الضوء المنير
في الوعظ والتذكير

تأليف

إبراهيم محمد علي عبد الباقي

من علماء الأزهر

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

يطلب من الناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها : علي يوسف سليمان

بشارع الصنادقية : بميدان الأزهر بمصر

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

مقدمة الجزء الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمداً يوافى نعمتك ونستمنحك الرضاء والتوفيق ونصلى ونسلم على من أرسل بين يدى الساعة بشيراً بالنعيم المقيم ونذيراً بين يدى عذابا شديداً.

محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه
وعلى من اهتدى بهديه واتبع سنته

من التوحيد

نص الخطاب الذى أرسل إلى شيخ الأزهر ورجال الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد : أتقدم إلى سيادتكم بأمر مخوف وإصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم يندمل جرحه فى عهدكم وقع اليأس ، وأعضل الرجاء .

سيدى : إن عامة الشعوب الإسلامية خلا القليل النادر قد انسلخوا عن الإيمان الحق والتوحيد الخالص فوقعوا فيما وقع فيه العرب فى عهد الجاهلية ، فترى الكثيرين قد انصرفوا عن الله ، فإذا لمت بهم ملمة ، ونزلت بهم نازلة يفزعون إلى غير الله ، ممن يسمونهم أولياء ويقدمون إليهم القرابين ، مما حرمه الله تعالى ونعى القرآن الكريم أعمالهم فى آيات كثيرة أكتفى منها بآية واحدة وهى : —

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »(١)

وبدهى أن المراد من الشركاء عندهم خدمة الأصنام ، لأن الأصنام لا تأكل ، ومن تأمل هذا لا يجد فرقاً بين ما يعمله المسلمون الآن ، وبين

(١) سورة الأنعام ١٣٦

ما يعمله أهل الجاهلية ، وهذا ماكان يخشاه النبي المعصوم على أمته ، ففي القاهرة تتدفق الرسائل على ضريح الإمام الشافعي صباحا ومساء : منها ماينقله البريد ، ومنها مايوضع باليد حتى بلغ في يوم من الأيام ١٦٨ رسالة وكذلك في المزارات المشهورة ، وبخاصة ضريح السيد البدوي ، والسيدة زينب .

هذا في القاهرة ، وأما في الاسكندرية فحسبي في ذلك ماكتبته صحيفة الأخبار ، ونقلته مجلة الأزهر عدد صفر ١٩٦١ صفحة ٢٢٨ ونصها : —

إن عامة شعب الإسكندرية جعلوا لكل ولي في الأنفوشي وظيفة منها : —

ياقوت العرش : يرد الزوجة لزوجها إذا وضعت قطعة فضة من فئة الخمسة القروش في صندوق النذور ، وأبو وردة ، يشفي الطفل من الشلل مقابل قرش واحد يوضع في صندوق النذور .

معاني المفردات :

الحرث : الزرع — الأنعام : الإبل والبقر والغنم من سورة الانعام ١٣٦

المعنى الإجمالي للآية :

كان مشركو العرب يخصصون جزءا من ثمرات الزروع ، ونتاج الأنعام لله يصرف على المساكين وجزء للأصنام يصرف لخدامها ويذبحونه عندها ، فإذا مازاد جعلوه لله على المعتاد وأخذوا مازاد للآلهة تركوه لخدامها قائلين إن الله غني .

الجعرانى : يستطيع إيجاد عمل لأى عاطل مقابل فتة عدس . . . هذا مايجرى فى الإسكندرية التى فيها معهد دينى إسلامى هذا وإنى لا أدرى على من تقع المسؤلية ؟ وفى الاقاليم أدهى وأمر .

ياسادة التفكير ويا أصحاب الرأى الضليع ويا من يغارون على الدين ، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين عن الأحاديث المتواترة فى النهى عن بناء المقاصير حول الذين سبقونا بالرحيل إلى ربهم صالحين كانوا أو غير صالحين ، وضرب القباب عليهم ، ووضع الستائر والعمائم وصناديق النذور ، وارتفاع القبور ، هل عندكم من علم فتخرجوه لنا حتى نسكت على هذا المنكر ؟

ولقد استفاضت الأحاديث فيها استفاضة لامجال لمتأول إلا تأويلا نائيا عن الصواب أريخشى أن تثور عليه عامة الناس ، ونسى الميثاق الذى أخذه الله على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعنَ الله اليهودَ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ » وقالت الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين : — يحذر ماصنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره(١) .

وقال أبو الهياج الأسدى : بعثنى على رضى الله عنه ، وقال : ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تَدَع قبرا مشرفاً إلا سويتَه ولا تمثالا إلا طمسته (٢) ، ومن دعائه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اللهم

---

(١) متفق عليه . البخارى وغيره

(٢) متفق عليه - البخارى وغيره .

لاتجعلْ قبرى وثناً يعبد ، اشتدَّ غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(١) .

وثبت عن عمر رضى الله عنه أنه كان فى سفر فرأى قوما يتهافتون على مكان فى الصلاة فقال : ماهذا فقالوا : هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنما أهلك من كان قبلكم بهذا ، إنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد ، فمن أدركته الصلاة فليصل ، وإلا فليمض ، وأثر عنه أيضا أنه قال : من لم يعرف الوثنية فإنه ينقض الإسلام حجراً حجراً .

يرى عمر أن هذه الشريعة خالدة ، وكل شريعة يراد لها البقاء لابد أن تعمل على سد كل ثغرة ينفذ منها تغيير .

وجاء فى الأمم الشافعى أن ولاة مكة كانوا يهدمون مابنى فى مقبرتها من القبور ، ولايعترض عليهم الفقهاء ، ونقله عنه النووى فى شرح مسلم عن شرح ماورد فى هذا المعنى من الأحاديث .

وجاء فى الزواجر لابن حجر الهيتمى. أن اتخاذالقبور مساجد . وإيقاد السرج عليها ، واتخاذها أوثاناً والطواف بها واستلامها والصلاة فيها من كبائر المعاصى .

راجع الكبيرة ٩٣ — ٩٨ وبعد أن أورد بعض الأحاديث الصحيحة فى ذلك ذكر كلام الفقهاء : الشافعية والحنابلة ، ومن أنها من أسباب الشرك،

---

(١) البخارى وغيره .

وآخر قولهم : وتجب المبادرة بهدمها ، وهدم القباب التى على القبور لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ، وأوصى بهدم القبور المشرفة ، كما تجب إزالة كل قنديل ، أو سراج على قبر ولا يصح وقفه . صفحة ١٦٣ من الجزء الأول ـ المطبعة الوهبية ـ بمصر سنة ١٩٢٠

وجدير بالذكر أن عبادة المشركين للأصنام لم تكن لذاتها بل لأصحابها الصالحين فيعبدونهم ليقربوهم إلى الله دليل ذلك التعبير بواو الجماعة التى هى للعقلاء : قال تعالى :

« مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى »(1)

وقد ضرب الله مثلا للذين انصرفوا عن الدعاء لله ، ودعوا غيره ، فقال سبحانه :

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »(2)

وقد كان قوم يدعون المسيح والملائكة ، فأنزل الله فى شأنهم آيتين هما :

« قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ

---

(1) سورة الزمر ٣
(2) سورة العنكبوت ٤١

عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً »(١)

تفيدنا الآيتان أن ماتدعونهم من الملائكة والمسيح والعزير ، هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويرجون رحمته ويخافون عذابه مع قربهم إلى ربهم ، إذن فأنتم أولى بالإلتجاء إلى الله تعالى .

ولله در القائل :

من استعان بغير الله فى طلب ... فإن ناصره عجز وخذلان
واشدد يديك بحبل الله معتصما ... فإنه الركن إن خانتك أركان

وقد روى الترمذى وصححه عن أبى واقد الليثى ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر والمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فررنا بسدرة ، فقلنا : يارسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ، فقال لهم : إنها السنن قلتم والذى نفسى بيده ، كما قال بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة .

يبين لنا هذا الحديث الشريف أن عمل التبرك قرين الشرك .

وثبت أن عمر رضى الله عنه كان فى سفر فرأى قوما يتهافتون على مكان

---

(٢) سورة الإسراء ٥٦ ، ٥٧

الصلاة ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

إنما هلك من كان قبلكم بهذا إنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد ، فمن أدركته الصلاة فليصل وإلافليمض .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مانحل والد ولده أفضل من أدب حسن ، رواه الترمذى وغيره .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العائد فى هيبته كالعائد فى قيئه ، رواه أهل السنن .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «العلم ثلاثة وماسوى ذلك فهوفضل آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة رواه ابن ماجه وغيره .

قال صلى الله عليه وسلم ، العين وكاء السَّه والسَّه هو الخاتم ، فاذانامت العين استطلق الوكاء رواه البيهقى فى السنن .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آخر ماتكلمه صلى الله عليه وسلم أن قال . قاتل الله اليهود والنصارى . اتخذواقبورأنبيائهم مساجد لا يَبْقَيَنَّ دينان بأرض العرب ، رواه البيهقى عن أبى عبيدة ابن الجراح .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم مر على شاة ميتة فقال . ألا ترون هذه الشاة هينة على أهلها . قالوا . من هوانها ألقوها قال والذى نفسى بيده الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولوكانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذى وغيره ، وقال صلى الله

عليه وسلم « إنَّ الدنيا حلوةٌ خضرةٌ وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » رواه الترمذى وغيره .

إن أخص صفات الإيمان العزة والسيادة فالمؤمن سيد فى نفسه لا يخضع للقهر خضوع العبد كما أنه يكون وفياً لعقيدته وفاء لا يتغلغل ولا يتزلزل ، وهذا وفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ساوموه ليخون عقيدته ، وبذلوا له مباهج الحياة الدنيا ليترك عبادة الله فأبى عليهم كل الإباء ، فانظر كيف يكون الثبات على الحق عند فتنة الدنيا ؟

والعبرة فى صحة العقيدة وسلامتها ليس مردها إلى حكم الجماهير ، ولكن مردها إلى موافقة الكتاب والسنة لا مخالفتها فإنهما الميزان الذى لا يضل ولقد أمرنا الله عز وجل أن نرد إليهما كل ما تنازعنا منه ، وجعل ذلك من علامة الإيمان بالله واليوم الآخر وأخبر أن ذلك خير وأحسن تأويلا قال تعالى .

« فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »(١)

أما الذين يعتدون بالهوى والبدعة ويشاقون رسول الله ، ويتبعون غير سبيل المؤمنين مهما ادعوا محبة الله عز وجل والفناء فيه فلن يكونوا موضعاً للتكريم الإلهى الذى لا يناله إلا المؤمنون المتقون ، فهؤلاء الذين يعتقدون

---

(١) سورة النساء ٥٩

مثل الحلاج فإنه من قوم ليسوا أهل تحقيق وبدهى أنه كلما كان الإعتقاد صحيحا كلما هز المشاعر والوجدان ، وأنتج خيراً ، وأثمر ثمراً طيباً وإن أعظم وازع للخير هو الدين ، فمثلا رعاية الجار ، والرفق بالضعفاء ، وصلة الأرحام ، وبر الوالدين والبعد عن الآثام ، ورعاية حق المجتمع والعبادات التى شرعها الله تعالى لايكون هذا إلا من الدين — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا وقال صلى الله عليه وسلم : « صلوا فى مرابض الغنم ، ولا تصلوا فى أعطان الإبل فإنها خلقت من الشياطين ، رواه ابن ماجه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وقال أيضا : صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا ، ولا تتخذوا قبرى عيداً وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم ، لأبى يعلى فى مسنده .

وقال أيضا : صلوا فى نعالكم ولا تشبهوا باليهود ، للطبرانى فى الكبير .

وقال أيضا : « صلوا خلف كل بر وفاجر وصلوا على كل بر وفاجر وجاهدوا مع كل بر وفاجر » للبيهقى فى السنن .

وقال أيضا : (أربع من الشقاء جمود العين وقسوة القلب والحرص وطول الأمل) لابن عدى فى الكامل .

وقال أيضاً :(صلةُ الرحم تُطيل فى العمر، وصدقة السر تُطفىء غضب الرب) رواه البزار .

وقال أيضا :(أربعٌ من أعطيهن فقد أعطى خيرَ الدنيا والآخرة : لسان ذاكرٌ وقلبٌ شاكرٌ وبدنٌ على البلاء صابر ، وزوجةٌ لاتبغيه حوبا فى نفسها ولا ماله) البيهقى فى شعب الإيمان .

كيف يعامل الآباء والأمهات الأبناء

يجب عليهم أنهم لايحاسبون الأطفال كما يحاسبون الكبراء ، لأن الطفل إذا عومل بما يعامل به الكبير يصبح حائرا بين إرضاء رغباته الخاصة وبين إرضائنا نحن ، وقد لايفهم مانفرضه عليه فيرى فى أوامرنا ونواهينا نوعا من التعصب بل والتعسف قد تؤدى به تلك الحيرة إلى أساليب شاردة من السلوك وهى مانسميه مشاكل الأطفال .

وخير علاج لتلافى هذه الحال أن نراعى القصد فيما نطلبه إليه أو نكلفه به ، وأن نحل التفاهم والتفهيم بدل الأمر والنهى كلما كان ذلك ممكنا ، وألا نحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ، بل نلجأ إلى تفهيمه الحكم على قدر ماتسمح به عقليته الصغيرة ، وحتى لايذهب معتقدا أن أوامرنا ونواهينا إن هى إلا مجرد نزوات عابرة أو نوع من التحكم ليس غير ، فإن أخطأ فلايجب أن نأخذ أخطاءه على أنها استهتار بنا ، أو تحد لأوامرنا ، لأن أخطاء الطفل غالبا يكون منشؤها جهله بخطأ ما يعمله ، ولو عرف ذلك ما صنعه ، هذا ومن الإسراف أن نلح فى تذكيره بأخطائه ، فقد يؤدى به هذا الإلحاح ألا يحتفل باللوم .

ومن الحكمة أننا لا ننبه دائما على عمل الواجب ، بل يكون على فترات وإلا فينشأ ضعيف الخلق يتطلب الثواب دائما عن كل عمل يقوم به .

وكذلك لانستعمل القوة دائما ، فيكون دائم التسخط بما يقوم به من

أعمال ، قاسيا فى معاملة الناس ، وربما يثور على من يعاشره ، أو على رؤسائه كما أنه يفقد روح الاستقلال ، ويشعر بالنقص فى نفسه .

وخلاصة القول : أن استعمال الشدة مع الطفل تجعله يصطنع الحيل والكذب والنفاق ، وأن يكون ذا وجهين وخير التربية أن يلجأ إلى عواطف المحبة والاحترام ، والإجلال ، وأما التخويف من عذاب الله فلا نلجأ إليه إلا إذا كان يفهمه .

وبهذه المناسبة أن الطفل إذا ما عاش فى بيت فيه النزاع فإنه يحاول الخلاص منه بأى ثمن ، هاربا من البيت أومستسلما لأحلام اليقظة ، وكلاهما شر فضلا عن أنه يعطى الطفل فكرة مشوهة عن الحياة الزوجية ، والطمأنينة فى البيت ، مما قد يتعبه فيها ، فيما بعد .

ومما يجب على الآباء نحو الأبناء ، أن يكون موقفهم موقف إقناع وتفهم لا قسر ولا قهر ولا يحرمونهم من اتخاذ أصدقاء بحيث يكونون فى سنهم يلعبون معهم ويمرحون وأن تكون الأطفال من بيوت شريفة بحيث تكون الآباء والأمهات حسنة السلوك والسمعة الطيبة .

قسوة لارحمة

من الأبناء من يشب بين أبوين تحملهما الشفقة عليه والمبالغة فى تمهيد أسباب الراحة له على غفران ذنبه ، وتهوين سيئاته ، والتسامح فى زلاته ، يظنان أن فى ذلك رحمة وعطفا ومحبة وكرما فيشب الإبن وقد ألفت نفسه عادات ممقوتة وأخلاقا مذمومة تتأصل فى نفسه ، وتخالط لحمه ودمه ، فتكون طبعا لايغلب وفطرة لاتقاوم ، ولايزال مغمورا فى عطف أبويه يدفع بهما المكروه ويرد عوادى الدهر ، حتى إذا ما فقدهما أو فارقهما بدأت الأيام تتنكر له ، وحوادث الأيام تعدو عليه ولا نصير له من فضيلة خالصة أو عزيمة صادقة ، أو إرادة متمكنة فيصير ألعوبة فى كف الحوادث ، وريشة فى مهب الأخطار وفريسة الأقدار ، ولا ملجأ ولا وزر يستدفع بها الخطوب ، ويرد نوائب الكروب ، كذلك يغالب الأيام وتغاليه ، ويجالد الحوادث وتجالده وصدق القائل :

فقسا ليزدجروا ومن يك
حازما فليقس أحيانا على من يرحم

« إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ »(١)

إن الحياة الدنيا كاللعب واللهو فى عدم استتباعها بشىء من الفوائد والمنافع ، يكون فى حياة بعدها ، أو هى دائرة بين عمل لا يفيد فى العاقبة فهى كلعب الأطفال وبين عمل له فائدة عاجلة سلبية كفائدة اللهو فى دفع الهموم ، والآلام ، يوضح هذا قول بعض الحكماء إن جميع لذات الدنيا سلبية وهى إزالة آلام .

وأما شرب المنبهات والمخدرات كالخمر والحشيش والدخان ، فإنه يكون أولا بالتكلف واحتمال المكروه والألم .

فإن هذه الأشياء كلها مكروهة بالطبع ، كما أخبر المجربون ، وإنما يتكلفون طلبا للذة متوهمة يقلد فيها الشارب غيره ثم يصير المؤلم بالتعود ملائما بإزالته للألم المتولد منه إزالة مؤقتة ، ذلك بأن هذه الأشياء سموم مكروهة فى نفسها ، ومتى أثر سمها فى الأعصاب بالتنبيه الزائد وغيره أعقب ذلك ضده من الفتور والألم ، وهما يطاردان بالعودة إلى الشرب .

وسماع الغناء وآلات الطرب لا تدخل فى عموم هذا ، لأنها لذة روحية وليست من ضروريات الحياة الشخصية ، وفى الآية وجه آخر يصح جمعه مع الأول ، وهو أن متاع هذه الحياة الدنيا الخاص بها متاع قليل أجله قصير ، لا يصح أن يغتر به العاقل فهو ليس إلا كلعب الأطفال فى قصر مدته

(١) سورة محمد ٣٦ .

من حيث أن الطفل يسرع إليه الملل من كل لعبة أو من حيث أن زمن الطفولة قصير، كله غفلة .

وإجمال القول أن المشركين لاحظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذى هو من قبيل اللعب فى قصر مدته وعدم فائدته أو من قبيل اللهو فى كونه رفعا لألم وكدر زيادة عما يصيبه من عذاب الآخرة .

الأرواح الخيّرة والشريرة

الأرواح البشرية قد تقوى المناسبة بينها وبين الملائكة فتستفيد من أرواح الملائكة قوة الخير وثباتا على الصلاح والإصلاح . قال تعالى :

« إذ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ »(١)

وقد نستفيد منها علما بالحق وبشارة بالخير وهو ما يسمى التحديث والإلهام ، ومنه بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام ، وتمثل جبريل لها عندما أراد الله أن تحمل بنفخة فيها ، وقد ثبت أن الإنسان له قرين من الملائكة ، ويعبر عنه بأنه ملك الإلهام ، أو بأنه واعظ الله فى قلب كل مؤمن ، كما له قرين من الجن ، ويعبر عن القرين من الجن بأنه داعى الشر .

وقد جاء فى الحديث الذى صححه الترمذى : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إن للشيطان لمّةً (٢) بابن آدم ، وللملك لمّةً فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيبٌ بالحق وأما لمة الملك فإيعادٌ بالخير ، وتصديقٌ بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان » رواه الترمذى والنسائى وابن حبان .

آفة الناس فى القديم والحديث أنهم لا يؤمنون إلا بالشىء الذى تراه

---

(١) سورة الأنفال ١٢

(٢) اللمة : الخطرة

أعينهم ، وتسمعه آذانهم ، وتلمسه أيديهم، ويرفضون أن يصدقوا أن هناك كائنات غير مادية تدرك بطريق غير طريق البصر المادى والسمع المألوف وهذا أساس ما يسمونه التفكير المادى وياويحهم ، أفلا يعلمون أن عالم الأرواح هو المتسلط على عالم المادة ! ! وكل هذه الاختراعات التى ملأت فراغ الدنيا أساسها الأرواح التى لا ترى ولا تحس وقد تعاقبت الآيات القرآنية فى ذلك ، منها قوله تعالى :

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ »(١)

---

(١) سورة الحاقة ٣٨ ، ٣٩

حكمة الله تتجلى فى خلق المتضادات

فى عالمنا هذا متضادات ومتقابلات، وكلها حكم تنبىء عن حكم بالغة وقدرة كاملة، فنها الطيب والخبيث، والخفيف والثقيل، والحلو والمر، والألم واللذة، والحياة والموت، والداء والدواء، والضياء والظلام، والأرض والسماء، والجنة والنار، والملائكة والشياطين. ولله تعالى الأسماء الحسنى والصفات العليا، كالمعز والمذل، والخافض والرافع، والقابض والباسط، والمعطى والمانع، ونحو ذلك، فمثل هذه الصفات، لا تتحقق ولا تتم وجودها إلا فى عالم مختار فى الإنس والجن، ولولاهم لتعطلت هذه الصفات، وإلا فكيف تتحقق عبودية العتق إلا إذا كان فيه رق، وكيف تتحقق عبودية الصدقة إذا لم يكن هناك فقر، ولولا الظلم والعدوان لما تحققت عبودية الصبر والمغفرة وكظم الغيظ التى هى من أحب الأشياء إلى الله تعالى.

فهذه الحكم تتلاشى بجانبها كل شر ومفسدة كالبرد والثلج والمطر، فشرها لا يكاد يذكر بجانب مصالحها وكذلك الشياطين، فهى محك تظهر الخبيث من الطيب، ولولاها لما تميز الأنبياء عن غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين فكم لله فى خلقه من آية وحكم وتبصرة، لا نحيط بها، ورحم الله القائل:

ولقد أبهمت علينا أمور انرجو ونخاف، اللهم آمن خوفنا، ولا تخيب رجاءنا، ولا يفوتنا أن نذكر أن الله تعالى لم يخلق الشر لأنه ليس من صفاته وإنما الشر من الإنسان وواقع عليه. وهو سبحانه لم يخلق الإنسان ميالا للشر، بل إنه مجبول على الخير، محب للسلام، كيف وقد خلقه فى أحسن تقويم،

وكرمه بالعقل الذى ساد به على العوالم الأرضية حتى سخر له العالم المادى ، ولم يجعل الشر أحب إليه من الخير ، بل ركز الخير فى طبيعته ، قال تعالى :

« وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ »(1)

ولكن الشيطان على العكس من ذلك كما قال تعالى :

« وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ »(2)

هذا ولما كان الإنسان معرضاً لفتنة الدنيا وتحكم الشهوات ، والغضب الحاد ، الذى يخرج الإنسان عن فطرته لم يجرد الله تعالى الدنيا من أنبياء مرسلين ، ووعاظ مرشدين . قال تعالى :

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »(3)

ولولا هذا النذير الذى أوجده الله فى كل عصر وجيل ، وهو كل نبى وما يخلفه فى الدعوة إلى الله حتى تبقى هذه الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهى العاطفة الدينية ، ولولا وجود هذا النذير لانطفأت هذه الفطرة ، ولما كان الإنسان هذا الإنسان ، وانتهى العالم إلى هلاك محقق .

وهل شرع الله الصيام إلا ليحفز الفرد والمجتمع إلى أحسن الأفعال ،

---

(1) سورة الحجرات ٧
(2) سورة الأنفال ٤٨
(3) سورة فاطر ٢٤

وينفره من سيئها ويمكنه من ضبط نفسه ، وإن الدعامة الأولى التى قام عليها صرح الإسلام ، وهى قهر النفس ، ومقاومة الشهوات ، وإن المعركة التى قامت بين ماتتطلبه النفس ، وإرضاء الله والمجتمع كانت معركة عنيفة ، وإن شبابنا لايعوزهم إلا المقاومة للشهوات ، فالشخص الذى ضعفت إرادته ، وشلت عزيمته لاأمل له فى مستقبل الحياة ، وأن أسوأ ماابتلى به الشباب أن يصبح أسيرا لعاداته وأن الشخصيات التى ضربت للناس المثل العليا كانت كلها من قهر النفس ومقاومة الشهوات .

الصلاة هى أولى العبادات ، وليست العبادات صلاة وصوماً ، وزكاة وحجا ، ونذراً وطوافا فحسب بل هى أوسع من ذلك إذ أنها تتناول عبودية القلب من تصديق وتوكل إلى الله وإنابة إليه ، وخوف ورجاء وتسليم ، وإذعان ، وانقياد ، وكذلك الحب فى الله والبغض فى الله ، وما إلى ذلك مما هو حق الله وحده ـ ويطوف بذهنى الآن سؤال : هل تعظيم المخلوق عبادة يكون فيها شرك بالله ؟

الجواب أن التعظيم يكون عبادة إذا كان للغائب ، أما إذا كان للحاضر فلا يكون عبادة ، مهما بلغ النهاية كتقبيل مواطىء الأقدام بين يدى ملوك الدنيا ، لأن سبب التعظيم معروف وهو سلطة حاضرة راجعة للأسباب والمسببات التى انتظم بها الكون .

أما من كانت سلطة غيبية كالغائبين ، والذين انقطعوا عن هذا العالم القائم على الأسباب والمسببات فتعظيمهم عبادة من العبادات وفيها إشراك مع الله تعالى كالذين يقفون أمام أضرحة من يعتقدون فيهم الضر والنفع ويتوسلون

بهم، ويرجونهم فليس من شك فى أن هذه عبادة لاتكون إلا لله تعالى ولهذا لايصح الحديث : «من تواضع لغنى من الأغنياء فقد ذهب ثلثا دينه».

نعم يدخل فى العبادة من يعتقدون أن الله تعالى منح سلطة غيبية لأحد الناس فيحللون ويحرمون ، أو من يعتقد أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على بعض الملوك من الملأ الأعلى لفرعون مصر فتعظيم هؤلاء وأمثالهم عبادة من العبادات وإشراك .

ما يجب على المصلى معرفته

أولا : يصح التطهر بالمياه الآتية : ماء المطر والثلج ، والبرد ، وماء البحر ، أى الملح ، ماء زمزم الماء المنفصل من أعضاء المتوضىء والمغتسل ، والماء الذى خالط طاهر ، وكان التغير قليلا بحيث لا ينفى عنه اسم الماء ، وإلا كان طاهرا فى نفسه ، غير مطهر لغيره . ومثله الماء الذى لاقته نجاسة ولم تغير طعمه ، أو لونه ، أو ريحه ، فإن تغير أحد أوصافه فهو نجس فى نفسه غير مطهر لغيره .

ثانيا : السؤر : السؤر هو مابقى فى الإناء بعد الشرب ، وهو طاهر سواء كان من آدمى أو من حيوان سواء كان مما يؤكل لحمه ، أو لا يؤكل لحمه فسؤر الآدمى طاهر ، من المسلم والكافر والجنب والحائض وسؤر البغل والحمار ، والسباع وجوارح الطير ، والسؤر لكل طائر .

أما سؤر الكلب والخنزير فهو نجس ، ويجب غسل الإناء الذى ولغا فيه سبع مرات إحداها بالتراب .

ثالثا : النجاسة : الميتة : وهى ماماتت حتف أنفه ، أى من غير تذكية ، وكذلك ماقطع منها وهى حية إلا ميتة السمك والجراد فإنها طاهرة ، ويجوز أكلها ، وإلا عظم الميتة وقرنها وظفرها وشعرها وريشها ، وجلدها وكل ماهو من جنس ذلك فهو طاهر ، وكذلك كل مالا دم له سائل ، فإنه طاهر ، كالنحل والنمل ونحوهما إذا وقع شىء منها فى الماء ، فإنه لا ينجسه إلا إذا تغير .

رابعاً : قيء الآدمي أو بوله ورجيعه .

خامسا : الودي وهو ماء أبيض ثخين يخرج بعد البول .

سادسا : المذي : وهو ماء أبيض لزج يخرج عند التفكير في الجماع أو عند الملاعبة .

سابعا : بول وروث مالا يؤكل لحمه .

ثامنا : الجلالة وهي التي تأكل القذرة من الإبل والبقر والغنم والدجاج والأوز وغيرها حتى يتغير ريحها .

تاسعا : الكلب والخنزير .

عاشرا : الدم سواء كان مسفوحا أي مصبوبا أو دم حيض أو نفاس إلا أنه يعفى عن اليسير كالذي يظهر في المرق بعد تسوية اللحم .

وهذه الأنواع متفق على نجاستها .

وأما المختلف في نجاستها وطهارتها فهي ما يأتي :

أحكام تتعلق بالاستنجاء

إذا قضيت حاجتك فعليك بنظافة المخرجين : القبل والدبر مما عليهما من أذى وقذر بماء ، أو حجر أو خرق أو ورق ، وكل ما أزال الأذى فهو مطلوب ، وليس الماء شرطا فى الاستنجاء . ومن آدابه ألا نستقبل القبلة جهة الكعبة ببول أو غائط ولا نستدبرها ، واغتفر بعض الأئمة الاستقبال والاستدبار إذا كان فى بناء لا فى خلاء .

ومن آدابه أنك تستعيذ بالله حين الدخول فتقول بسم الله اللهم إنى أعوذ بك من الخُبْث والخبائث : والخُبْث ، ذكور الشياطين والخبائث أناثها .

ومن الآداب أيضا ألا نستنجى بيمينك ولا تمس ذكرك بيمينك تكريما لها ويقول بعد الانتهاء والخروج : غفرانك . وروى أيضا قوله : الحمد لله الذى أذهب عنّى الأذى وعافانى . وروى أيضا قوله : الحمد لله الذى أذاقنى لذّته ، وأبقى فىّ قوته ، وأذهب عنى أذاه .

الدماء التى تخرج من المرأة

هى ثلاثة أولا ـ دم الحيض ـ ثانيا ـ دم النفاس ـ ثالثا ـ دم الاستحاضة، فدم الحيض يخرج من المرأة ، من قبلها حال صحتها من غير سبب ، ولا ولادة ، ولا افتضاض وأحكامه ـ وقته : يرى كثير من العلماء أن وقته لا يبدأ قبل بلوغ الأنثى تسع سنين قمرية ، وتقدر السنة القمرية بنحو من ٣٥٤ يوما ، فإذا رأت قبل بلوغها هذه السن لا يكون دم حيض ، بل دم علة وفساد ، وقد يمتد إلى آخر العمر ، ولم يأت دليل على أن له غاية ينتهى إليها ، فمتى رأت العجوز المسنة الدم ، فهو حيض .

دم الحيض له علامات : أن يكون على لون من ألوان الدم الآتية : السواد ـ الحمرة لأنها أصل لون الدم ـ الصفرة ، وهو ماء يرى كالصديد يعلوه اصفرار ـ الكدرة : وهى التوسط بين لون البياض والسواد كالماء الوسخ .

تقدير مدته : لم يأت فى تقدير مدته ما تقوم به الحجة .

ثم إن كان لها عادة متقررة تعمل بها ، وإن لم يكن لها عادة متقررة ترجع إلى القرائن المستفادة من الدم .

مدة الطهر بين الحيضتين : اتفق العلماء على أنه لا حد لأكثر الطهر المتخلل بين الحيضتين واختلفوا فى أقله ، فقد قدره بعضهم بخمسة عشر يوما ، وذهب فريق منهم الى أنه ثلاثة عشر يوما والحق أنه لم يأت فى تقدير أقله دليل ينهض للاحتجاج يحرم عليها الوطء والصوم وتجب إعادته ، والصلاة ولا تجب عليها إعادتها .

ثانيا دم النفاس :

١ — تعريفه : هو الدم الخارج من قبل المرأة بسبب الولادة ، وإن كان المولود سقطا .

٢ — مدته : لاحد لأقل النفاس فيتحقق بلحظة ، فإذا ولدت ، وانقطع دمها عقب الولادة أو ولدت بلا دم انقضى نفاسها ، ولزمها مايلزم الطاهرات من الصلاة والصوم وغيرهما .

وأما أكثره فأربعون يوما وحكمها أنها تدع الصلاة مادام الدم نازلا ويتحقق نزوله بحيث إذا وضعت قطنة في الفرج تلوثت . فإذا ما انقطع الدم تغتسل وتصلى .

ويظهر من آراء بعض العلماء أنه ليس لأقله حد ، وغاليه أربعون يوما وأكثره ستون يوما ويحرم عليها الوطء والصلاة ، ولايجب إعادتها وأما الصوم فيجب عليها إعادته ومثل النفاس الحيض .

ثالثا ـ دم الاستحاضة :

دم المستحاضة هو نزول الدم وجرياته من غير أوانه ، ولها أحوال :

أولا ـ أن تكون مدة الحيض معروفة لها قبل الاستحاضة ، وفى هذه الحالة تعتبر هذه المدة المعروفة هى مدة الحيض ، والباقى استحاضة .

ثانيا ـ أن يستمر بها الدم ، ولم يكن لها أيام معروفة ، إما لأنها نسيت عادتها ، أو بلغت مستحاضة ، ولا تستطيع تمييز دم الحيض ، وفى هذه الحالة يكون حيضها ستة أيام أو سبعة على غالب عادة النساء .

ثالثا - ألا تكون بها عادة ، ولكنها تستطيع تمييز دم الحيض عن غيره وفى هذه الحالة يعمل بالتمييز .

رابعا - أحكامها : لا يجب عليها الغسل لشيء من الصلاة ولا فى وقت من الأوقات إلا مرة واحدة ، حينما ينقطع حيضها .

خامسا - يجب عليها الوضوء لكل صلاة وعند مالك يستحب ولا يجب إلا بحدث آخر تغسل فرجها قبل الوضوء ، وتحشوه بخرقة ، أو قطن ، دفعاً للنجاسة ، أو تقليلا لها ، فإذا لم يندفع الدم بذلك شدت مع ذلك على فرجها وتلجمت واستثفرت ، ولا يجب هذا ، وإنما هو الأولى .

سادسا - ألا تتوضأ قبل دخول الوقت أى وقت الصلاة عند الجمهور ، إذ طهارتها ضرورية فليس لها تقديمها قبل وقت الحاجة .

سابعا - يجوز لزوجها أن يطأها فى حال جريان الدم عند جماهير العلماء لأنه لم يرد دليل بتحريم جماعها .

ثامنا - لها حكم الطاهرات ، فتصلى وتصوم وتفعل كل العبادات .

سنن الفطرة

١ — الختان ، وهو قطع الجلدة التى تغطى الحشفة من الذكر ،وأما المرأة فيقطع الجزء الأعلى من الفرج بالنسبة لها .

٢ — الاستحداد : وهو حلق العانة .

٣ — نتف الإبط .

٤ — تقليم الأظفار .

٥ — قص الشارب أو إحفاؤه .

٦ — إعفاء اللحية وتركها حتى تكثر بحيث تكون مظهرا من مظاهر الوقار ، فلا تقصر تقصيرا ، تكون قريبا من الحلق وألا تترك حتى تفحش بل يحسن التوسط .

٧ — ترك الشيب وإبقاؤه سواء كان فى اللحية أم فى الرأس والمرأة والرجل فى ذلك سواء .

٨ — إكرام الشعر إذا وفر وترك بأن يدهن ويسرح .

٩ — تغيير الشيب بالحناء أو الحمرة أو الصفرة ، ونحوها أما بالأسود فلا يجوز

١٠ — التطيب بالمسك وغيره من الطيب الذى يسر النفس ، ويشرح الصدر وينبه الروح ويجدد القوة والنشاط

أمور غير مشروعة وأمور مشروعة

١ — الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فى الأذان غير مشروعة جهرا أما سراً فيجوز لأن ألفاظه مأثورة لايجوز الزيادة عليها ، فهى مكروهة .

٢ — لايجوز فى التشهد ذكر سيدنا محمد ولا فى الأذان لكن فى غيرهما يجوز سيدنا محمد لأنها لم ترد فيهما .

٣ — التغنى فى الأذان واللحن فيه بزيادة حرف أو حركة ، أو مد : بدعة مكروهة .

٤ — مسح العينين بباطن أنملتى السبابة بعد تقبيلهما عند سماع المؤذن : أشهد أن محمدا رسول الله مع قوله : أشهد أن محمدا عبده ورسوله . رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا : بدعة كذلك .

٥ — التطوع بالصلاة حين الأذان وحين الإقامة غير مشروع ، بل المشروع أن ينصت للأذان ويقول مثل ما يقول ، إلا فى الحيعلتين ، فيقول لاحول ولا قوة إلا بالله وكذلك فى الإقامة فيقول أقامها الله وأدامها حينما يقول المقيم : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة .

ما يستحب للمؤذن : أن يكون طاهرا من الحدث الأصغر والأكبر ، وأن يبتغى بأذانه وجه الله فلايأخذ عليه أجرا وأن يكون قائما ، وأن يلتفت برأسه وعنقه وصدره يميناً عند قوله : حىّ على الصلاة حىّ على الصلاة ،

ويسارا عند قوله : حيّ على الفلاح ، حيّ على الفلاح ، وأن يدخل أصبعيه في أذنيه ، وأن يترسل في الأذان أي يتمهل ، ويفصل بين كل كلمتين بسكتة ويسرع في الإقامة ، وألا يتكلم أثناء الإقامة ، ويجوز الفصل بين الأذان والإقامة بالكلام .

الوضــوء

فرائضه ما يأتي : —

أولا : النية القلبية لأن النطق بها بدعة .

ثانياً : غسل الوجه مرة واحدة ولابد أن يسيل الماء علية وحد الوجه من أعلى الجبهة إلى أسفل اللحية طولا ، ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً .

ثالثاً : غسل اليدين إلى المرفقين ، والمرفق هو المفصل الذى بين العضد والساعد ، ويدخل المرفقان فيما يجب غسله ، وهذا هو المطرد من هدى النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يرد عنه صلى الله عليه وسلم أنه ترك غسلهما .

رابعاً : مسح الرأس ومعناه الإصابة بالبلل ، ولا يتحقق إلا بحركة العضو الماسح ملصقا بالممسوح فوضع اليد أو الأصبع على الرأس أو غيره لا يسمى مسحاً .

والمسح يصح بأن يمسح جميع رأسه ، أو على العمامة وحدها ، أو مسحه على الناصية ويكمل على العمامة .

خامساً : غسل الرجلين مع الكعبين .

سادساً : الترتيب على ما ذكرناه .

سنن الوضوء

أولا : التسمية .

ثانياً : السواك إذا كان متيسرا له والسواك وهو دلك الأسنان بعود ونحوه من كل خشن ينظف به الأسنان ، وخير ما يستاك به عود الأراك وقد وردت أحاديث تبين فوائده ومنها أنه مطهرا للفم ، ومرضاة للرب . ويشد اللثة ويحول دون أمراض الأسنان وهو مستحب فى الأوقات ولكنه فى خمسة أوقات أشد استحباباً .

١ — عند الوضوء .

٢ — عند الصلاة .

٣ — عند تلاوة القرآن .

٤ — عند الاستيقاظ من النوم .

٥ — عند تغير الفم . ويستحب كذلك للصائم والمفطر أول النهار وآخره سواء .

ثالثاً : غسل الكفين ثلاثاً فى أول الوضوء .

رابعاً : المضمضة ثلاثاً والاستنشاق كذلك ، وتتحقق المضمضة والاستنشاق إذا وصل الماء إلى الفم والأنف بأى صفة كذلك إلا أن الصحيح الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصل بينهما فقد

صح الحديث أنه تمضمض واستنشق من كف واحد فعل ذلك ثلاثاً ،
وفي رواية تمضمض ، واستنثر بثلاث غرفات متفق عليه وتسن المبالغة
في الاستنشاق ومج الماء في الفم إلا الصائم .

٦ — تخليل اللحية وذلك بأن تأخذ كفا من ماء وتدخله تحت
حنكك فتخلل .

٧ — تخليل الأصابع .

٨ — تثليث الغسل .

٩ — التيامن .

١٠ — الدلك .

من حكمه

الوضوء يزيل الفتور الذى يعقب خروج الفضلات من البدن كالبول ، والغائط اللذين يضر احتباسهما كاحتباس الريح فى البطن فالحاقن من البول ومن الغائط والحاذق من الريح كالمريض ، وكل منهم تكره صلاته كراهة شديدة ، فمتى خرجت هذه الفضلات الضار احتباسها يسر كانه كان يحمل حملا ثقيلا أو ألقاه ويشعر عقب ذلك بفتور واسترخاء ، فإذا توضأ زال ذلك ونشط وانتعش كذلك من مس فرجه ، أو قبل امرأته أو مس جسدها بغير حائل يحصل له لذة جسدية فى بعض الأحيان ، وحدوث اللذة عبارة عن تنبيه وتهييج فى العصب يعقبه فتور ما ، بمقتضى شدة رد الفعل . والوضوء يزيل هذا الفتور الذى يصرف النفس باللذه الجسدية عن اللذة الروحية والعقلية . ولهذا اشترط بعض من قال بنقض الوضوء بمس ماذكر أن يكون بلذة ، واكتفى بعضهم بكونه مظنة اللذة .

إما إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسدية غايتها بالوقاع والإنزال فيكون ذلك منتهى تهييج المجموع العصبى الذى يعقبه شدة رد الفعل أشد الفتور والاسترخاء والكسل وضعف الاستعداد اللذة الروحية بمناجاة الله وذكره ولا يزيل ذلك إلا غسل البدن كله فلذلك وجب الغسل عقب ذلك واشترط بعضهم فى الإنزال اللذة .

يحصل نحو هذا الضعف والفتور المرأة بسببين آخرين ، وهما الحيض والنفاس فشرع لها الغسل عقبهما كما شرع لها الغسل من الجنابة كالرجل .

ثم إن لفظ الطهارة يستعمل فى الطهارة البدنية والحسية كما فى قوله تعالى:

« فَإِذَا تَطَهَّرْنَ »(١)

ويستعمل فى الطهارة المعنوية وهى الطهارة من الفواحش والمنكرات كما قال تعالى:

« أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ »(٢)

وكما قال تعالى :

« وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ »(٣)

---

(١) سورة البقرة ٢٢٢
(٢) سورة النمل ٥٦
(٣) سورة البقرة ١٢٥

التيمم

يباح التيمم للمحدث حدثا أصغر ، أو أكبر فى الحضر والسفر إذا وجد سبب من الأسباب الآتية :

(أ) إذا لم يجد الماء ، أو وجد منه ما لا يكفيه للطهارة .

(ب) إذا كان به جراحة أو مرض وخاف من استعمال الماء زيادة المرض أو تأخر الشفاء ، سواء عرف ذلك بالتجربة أو بإخبار الثقة من الأطباء .

(ح) إذا كان الماء شديد البرودة وغلب على ظنه حصول ضرر باستعماله بشرط أن يعجز عن تسخينه ولو بالأجرة ، أو لا يتيسر له دخول الحمام .

(ى) إذا كان الماء قريبا منه إلا أنه يخاف على نفسه أو عرضه أو ماله ، أو فوت الرفقة ، أو حال بينه وبين الماء عدو يخشى منه سواء كان العدو آدميا أو غيره ، أو كان مسجونا ، أو عجز عن استخراجه لفقد آلة الماء كحبل ودلو لأن وجود الماء فى هذه الأحوال كعدمه ، وكذلك من خاف إن اغتسل أن يرمى بما هو برىء منه ويتضرر به جاز التيمم .

(ه) إذا احتاج إلى الماء حالا أو مآلا لشربه أو شرب غيره ، ولو كان كلبا غير عقور ، أو احتاج له العجين ، أو إزالة نجاسة غير معفو عنها . فانه يتيمم ، ويحفظ ما معه من الماء ، وإذا كان قادراً على استعمال الماء ولكنه خشى خروج الوقت باستعماله فى الوضوء أو الغسل فانه يتيمم ويصلى ولا إعادة عليه و ـ يجوز التيمم بالتراب الطاهر وكل ما كان من جنس الأرض كالرمل والحجر والحصى ز ـ كيفية التيمم :

١ — يقدم النية وتكون بالقلب لا بالنطق باللسان

٢ — ويسمى الله ٣ — يضرب بيديه الصعيد الطاهر ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين .

٤ — يباح به ما يباح من الوضوء والغسل عند عدم الماء ، فيباح به ما يباح بهما من الصلاة وغيرها ، ولا يشترط لصحته دخول الوقت .

٥ — وللمتيمم أن يصلى بالتيمم الواحد ماشاء من الفرائض والنوافل لحكمه حكم الوضوء سواء بسواء .

نواقضه : هى نواقض الوضوء ، لأنه بدل عنه كما ينقضه وجود الماء لمن فقده ، أو القدرة على استعماله لمن عجز عنه ، ولكن إذا صلى بالتيمم ثم وجد الماء ، أو قدر على استعماله بعد الفراغ من الصلاة لا يجب عليه الإعادة ، وإن كان الوقت باقيا ، وأما إذا وجد الماء وقدر على استعماله بعد الدخول فى الصلاة وقبل الفراغ منها فان وضوءه ينتقض ، ويجب عليه التطهر بالماء ، وإذا تيمم الجنب أو الحائض لسبب من الأسباب المبيحة للتيمم وصلى لا يجب عليه إعادة الصلاة ويجب عليه الغسل متى قدر على استعمال الماء .

المسح على الجبيرة : يشرع المسح على الجبيرة ونحوها مما يربط به العضو المريض وحكم المسح على الجبيرة ، الوجوب فى الوضوء والغسل بدلا من غسل العضو المريض ، أو مسحه . فمن به جراحة ، أو كسر وأراد الوضوء أو الغسل وجب عليه غسل أعضائه ولو اقتضى ذلك تسخين الماء ، فان خاف الضرر من غسل العضو المريض ، بأن ترتب على غسله حدوث مرض ، أو زيادة ألم ، أو تأخر شفاء انتقل مرضه إلى العضو المريض بالماء .

١ ـ المنى : وهو الذى ينزل بشهوة ويرجح أنه طاهر ولكن يستحب غسله إذا كان رطبا وفركه إذا كان يبسا .

٢ ـ بول وروث مايؤكل لحمه ويرجح طهارته .

٣ ـ الخمر : وهى نجسة نجاسة حسية عند جمهور العلماء ، والظاهر أنها نجاسة معنوية ، لانجاسة حسية لأنها من مادة طاهرة بل مادتها الأصلية قبل التخمير مطهرة لغيرها .

أحكام متفرقة

تطهر الأرض التى أصابها نجاسة يصب الماء عليها ثانيا : يطهر الشمس إذا كان جامدا يطرح الجزء الذى وقعت فيه النجاسة ، وماحوله ، وأما المائع فإنه ينجس إذا تغير باتفاق العلماء وأما إذا لم يتغير فهو طاهر عند بعض العلماء المجتهدين ، منهم الزهرى والأوزاعى ، وهو مذهب ابن عباس وابن مسعود والبخارى ، ويظهر أنه هو الصحيح .

يطهر النعل والخف بالدلك فى الأرض إذا ذهب أثر النجاسة ومثلهما المحلان القبل والدبر فيطهران بالماء وبغيره من ورق أو قماش أوحجر .

حبل الغسيل الذى ينشر عليه الثوب النجس ، تجففه الشمس والريح ، فلا مانع من نشر الثوب الطاهر عليه .

لوسقط شىء على المرء لايدرى هل هو نجس أو طاهر . لايجب عليه أن يسأل .

لايجب غسل ما أصابه من طين الشوارع .

إذا انصرف الرجل من صلاته فرأى على ثوبه أوبدنه نجاسة لم يكن عالما بها ، أوكان يعلمها ولكن نسيها أو لم ينسها ، ولكنه عجز عن إزالتها فصلاته صحيحة ولا إعادة عليه ، وهذا ماأفتى به كثير من الصحابة والتابعين .

من خفى عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله ، لأنه لاسبيل إلى العلم بتيقن الطهارة إلابغسله جميعه . فهو من باب مالايتم الواجب إلابه فهو واجب .

إن اشتبه الطاهر من الثياب بالنجس فيها يتحرى فيصلى فى واحد منها
صلاة واحدة كمسألة القبلة ، سواء كثر عدد الثياب الطاهر أم قل

النجاسة المرئية : كالدم يجب غسلها حتى تزول فان بقى أثرها بحيث يشق
زواله عفى عنه أما النجاسة غير المرئية كالبول فيكفى جريان الماء عليها

تطهر المرآة والسكين والظفر والعظم والزجاج والآنية المدهونة وكل
صقيل لامسام له بالمسح الذى يزول به أثر النجاسة

كما أن جلد الميتة يطهر ظاهراً وباطناً بالدباغ

المسح على الجبيرة

يشرع المسح على الجبيرة ونحوها مما يربط به العضو المريض ، فى الوضوء والغسل ، بدلا من غسل العضو المريض أومسحه .

متى يجب المسح ؟ من به جراحة أو كسر وأراد الوضوء ، أو الغسل وجب عليه غسل أعضائه ، ولو اقتضى ذلك تسخين الماء ، فإن خاف الضرر من غسل العضو المريض ، بأن ترتب على غسله حدوث مرض ، أو زيادة ألم أو تأخر شفاء انتقل فرضه إلى مسح العضو المريض بالماء ، فإن خاف الضرر من المسح وجب عليه أن يربط على جرحه عصابة ، أو يشد على كسره جبيرة ، بحيث لاتتجاوز العضو المريض إلا لضرورة ربطها ثم يمسح عليها مرة تعمها والجبيرة أو العصابة لايشترط تقدم الطهارة على شدها ، ولا توقيت زمنها بزمن بل يمسح عليها دائما فى الوضوء والغسل مادام العذر قائما .

مبطلات المسح وصلاة فاقد الطهورين

يبطل المسح على الجبيرة بنزعها من مكانها ، أو سقوطها عن موضعها من برء أو براءة ، موضعها ، وإن لم تسقط .

لما كانت الصلاة موقتة بمواقيت محدودة وجب على من عدم الماء والصعيد يعني الطهورين أن يصلي على حسب حاله ولا إعادة عليه .

فضل الأدعية

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس شيء أكرم على الله من الدعاء رواه الترمذى وقال أيضا ، الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض الحاكم

وعن ثوبان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يذنبه ، ابن حبان فى صحيحه

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من مسلم يدعو بدعوة ليس منها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا : إذن نكثر قال الله أكثر. احمد وغيره .

قال صلى الله عليه وسلم : (نيّـةُ المؤمن خيرٌ من عَمَـلِه)
حديث شريف .

يريد الرسول صلى الله عليه وسلم أن النية من خير الأعمال التى هى طاعة وليس القصد أن النية وحدها ، خير العمل ، فإنه فى ميزان العدل الإلهى والعقل لايستوى القاعد على العامل ، ومعروف أن القربات كلها مبناها على النيات ، ولا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقصد . لهذا لو وقع الجنب فى الماء من غير نية الغسل ولم ينو العبادة لم يصح عن الجنابة أو غيرها ، ولو أمسك عن المفطرات ولم ينو الصيام لم يكن صائما ، ولو أعطى الفقير هبة لم تكن زكاة ، ولو أكل حراما فظنه حلالا لم يأثم به ، وبالعكس .

وهذا هو مضمون الحديث الشريف : (إنما الأعمالُ بالنيات ، وإنّما لكلّ امرىء ما نوى(١)) .

جملتان : الأولى تبين أن العمل لاينفع إلا بالنية ، والثانية تبين أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه وهذا يعم العبادات والمعاملات والأيمان والنذور وسائر العقود والأفعال ، ويفهم من هذا أن من نوى بعقد النكاح التحليل كان محللا ، ولا يخرجه عن ذلك صورة العقد ، لأنه قد نوى ذلك ، وإنما الأمر بما نوى فالمقدمة الأولى معلومة بالوجدان ، والثانية بالنص ، فإذا نوى بالمصير الخمر كان له ما نواه ، ولذلك استحق اللعنة وإنما وقع طلاق

---

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

الهازل لأنه قاصد الهزل الذى لا يرضاه الله ولا رسوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثٌ جدهن جد ، وهزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة (١) .

بقى علينا الرجل الذى يحلف على شىء آخر غير الذى يراد الجواب العبرة بنية المحلف لا بالحلف إلا إذا كان الحالف مظلوما فتكون العبرة بنية الحالف : من أعلام الموقعين لابن القيم .

كذلك لا يصح أن يبتدع شخص فى الدين بنية الخير يعنى ليحمل الناس على فعل الخير أو البعد عن الشر لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، ولا يزيغ عنها إلا هالك) (٢) .

وقال أبو الدرداء : لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما . وقال رجل لسلمان : لقد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخراءة ، فقال : أجل . معنى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما ترك شيئا يقربنا إلى الجنة ويباعدنا عن النار عن إلا أخبر به حتى التطهر من النجاسة فى الاستنجاء ، ألا ومن خير الأعمال السعى فى مصالح الناس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من مشى مع أخيه ساعة من ليل أو نهار ، فى حاجة له كان خيراً له ، من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين قضاها ، أو لم يقضها .

---

(١) فى البخارى وغيره .

(٢) رواه أبو داود وغيره .

محاضر فى الصلاة المقبولة

نحمد الله العلى القدير ، والمشرع الحكيم ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد بن عبد الله الذى بعث رحمة للعالمين وخاتم النبيين .

وبعد — فلما كانت الصلاة هى الركن الركين فى الإسلام ، وإن كثيرا يؤدونها على غير وجهها الصحيح ، نعم يؤدونها ولا يقيمونها كما أمر الله تعالى «وأقيموا الصلاة» ومعنى الإقامة : هو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار ، وكما قال إمام الحنفاء وشجرة الأنبياء «خليل الله إبراهيم» :

« رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى »(1)

ياويحهم لقد اختزلوا أركانها ، وهدروا خشوعها فأصبحت حركة وصورا لا أثر لها فى إصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس ، وهذا ما كان يخشاه النبى المعصوم على أمته إذ قال : يأتى على الناس زمان يصلون ولا يصلون . . لما وجدت ذلك خصصتها بفصل وحده وعقبتها بما يسهل تأديتها وهو المسح على الجوربين .

هذا وقد بذل علماء الفقه جهودهم فى بيان أحكامها ، وأما فى مشروعيتها فلم يعطوها حقها من البحث والتمحيص فقالوا : الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ، مختتمة بالتسليم ولم يبينوا حكمها والآثار التى تترتب عليها ، مقتدين

---

(1) سورة إبراهيم ٤٠ .

بالقرآن الكريم فإنه لايقرر حكما إلا إذا أردفه بحكمته والفوائد التى تنجم عنه — ففى الصلاة مثلا يقول الله تعالى :

« اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ »(١)

ويقول فى الزكاة :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »(٢)

وفى الحج يقول :

« جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ »(٣)

وفى القصاص :

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٤)

أى تتقون القتل مخافة القوَد .

كذلك يبين علماء الفقه حكم المسح على الخفين ، جزاهم الله خيرا ، وشددوا فى المسح على الجوربين فاشترطوا شروطا فى صحة المسح عليه جعلته من الصعوبة بمكان ، ولم يقيموا الدليل عليها .

(١) سورة العنكبوت ٤٥
(٢) سورة التوبة ١٠٣
(٣) سورة المائدة ٩٧
(٤) سورة البقرة ١٧٩

وتعاليم الإسلام كلها تأبى التشديد ، ولا تعرف التقوى المرهقة ، ولا الرهبانية المبتدعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا (١) » ويقول أيضا : بُعثت بالحنيفية السمحة (٢) وكان يوصى أصحابه فيحذرهم من التشديد مخافة السآمة والملل ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا تُشددوا على أنفسكم فيُشدد عليكم فإن قوماً شددوا على انفسهم ، فشدد عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار

« وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ »(٣)

بعد قول الله تعالى فى خاتمة الوضوء :

« مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٤)

فالإسلام دين وسط ، جمع بين حقوق الروح والجسد ، ومصالح الدنيا والآخرة ، لاحرج فيه ولا عسر بقلة تكاليفه ، وسهولة فهمه ، وتنقسم تكاليفه إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص ، وابن عمر يرجح جانب العزائم .

هذا وليس من شك فى أن المسح على الجوربين واللفائف التى تلف على

---

(١) البخارى وغيره

(٢) الترمذى

(٣) سورة الحديد ٢٦

(٤) سورة المائدة ٦

الرجلين ، ترغب الذين يجدون فى غسل أرجلهم عنتاً وشدةً فى الصلاة مثل عمال النقل والمركبات الكهربية وغيرها والقائمين بالحراسة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الدِّينَ يسرٌ ، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدْوة والرَّوْحة وشىء من الدُّلجة) . رواه البخارى

المعنى الإفرادى

(يسر) : سهل (يشاد) : يغالب (فسددوا) السداد . والصواب فى القول والعمل (وقاربوا) اقتربوا (الغدوة) سير أول النهار (الروحة) السير بعد الزوال (الدلجة) سير الليل .

المعنى الإجمالى

ينبغى للمتعبد ألا يفرط فى عمله بل يلتزم السداد حتى لا يسأم ولا يمل مثل المسافر فإن المسافر إذا واصل ليله بنهاره فى السفر ضعفت صحته ، وعجزت مطيته .

التقليد فى فروع الشريعة

اختلف أئمة المسلمين فى جواز التقليد فى فروع الشريعة ، لمن يقدر على الاجتهاد ، وانقسموا فى ذلك ثلاثة مذاهب :

١ — يرى الكثيرون منهم أنه يجب عليه الاجتهاد ، ولا يجوز له التقليد ، فالإسلام فى نظر هؤلاء لايقتصر فى هذا الصدد على إباحة حرية الرأى ، بل يوجب العمل بها إيجابا على كل قادر ، ولا يجيز له أن يتخلى عن حقه فيها وإلى ذلك ذهب كثير من أئمة المذاهب الأربعة وفقهائهم وغيرهم .

والمذهب الثانى يجيز التقليد للقادر على الاجتهاد ، ولكنه يوجب عليه معرفته دليل الإمام الذى يقلده حتى يكون تقليده له على بينة ، وحتى لايعطل تفكيره تعطيلا تاما فى مسائل الفقه .

والمذهب الثالث مذهب جماعة من المتأخرين يبيحون التقليد للقادر على الاجتهاد بدون أن يوجبوا عليه معرفة دليل من يقلده بل يتوسع بعض هؤلاء ، فيبيحون لهذا المقلد الفتوى متى كان حافظا لرأى الإمام فى الفرع الذى يفتى به .

وقد رد ابن القيم هذا الرأى وخاصة على مايذهبون إليه من إباحة الفتوى للمقلد فقال : لابد للعامى من تقليد فيما جهله لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره فى القبلة لأنه لايقدر على أكثر من ذلك .

وأرى أن هذا المقلد يجب أن يكون عالما بالدليل الذى قلده فيه ، ولم

يكن الصحابة جميعهم أهل اجتهاد بل إنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن ، العارفين بناسخه ومنسوخه ، ومتشابهه ومحكمه وسائر دلائله بما يلقونه من النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يسمون لذلك القراء الذين يقرءون الكتاب، لأن العرب كانوا أمة فاختص من كان عنهم قارئاً بالكتاب بهذا الإسم ، وشريعة الإسلام قائمة على رفع الحرج وليس من شك فى أن تكليف جميع المسلمين الوصول إلى رتبة الجهاد فيه حرج والله يقول :

« مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(1)

وعلى كل إن حسن النية يشفع للمجتهد عند الله فلا يؤاخذه بخطئه فى الآخرة بل يثيبه على نيته ـ ولو كان المجتهد يؤاخذ فى الآخرة بخطئه فى اجتهاده لوقف الاجتهاد خوفا من عذاب الله وبقيت عجائب القرآن فى التشريع وغير التشريع مدفونة لايعتبر بها أحد ، ولا ينفع بها الناس .

ويقول جلال الدين الرومى :

ياأيها الإنسان : إنك مركب من طبيعة البهائم وطبيعة الملائكة فتخل عن طبع البهائم لتسمو على الملائكة ثم إن الحياة مزرعة الآخرة ، وجوهر الإسلام هو العمل بكل خشوع على مافيه خير الإنسانية وبذل الطاقة فى التخلق بالكمالات الإلهية ، والمسلم الصادق فى حقيقة أمره يسير على نهج

---

(1) سورة المائدة ٦ .

المسيح عليه السلام لأنه يؤمن بنبوته ويسعى إلى التخلق بأخلاقه فلماذ إذاً لايبدى المسيحى الصادق فى دينه تقديره وإجلاله النبى العربى الذى أتم شرائع من سبقه من الأنبياء ؟ ألم يجمع عليه الصلاة والسلام أشتات القوى التى سارت فى طريق الضلال ودفعها فى طريق الرقى والتقدم .

إننا إذا استثنينا عقيدة الأبوة الإلهية لعيسى عليه السلام لم نجد خلافا أساسيا بين المسيحية والإسلام فى جوهرها دين واحد ، وكلاهما وليد القوى الروحية المتشابهة فى الإنسانية فأولها احتجاج صارخ على المادية الصارمة السائدة بين اليهود والرومان ، وثانيهما ثورة على الوثنية العربية المتدهورة وعلى تقاليد العرب وأوابدهم ، وقد ظهرت المسيحية بين قوم أكثر استقرارا وحضارة من أهل الجزيرة العربية ، لهم حكومة منظمة فكانت المساوىء التى تحاربها المسيحية أخف وطأة نسبياً ، أما الإسلام فقد ظهر وسط قبائل وعشائر متأخرة فاضطر أن يكافح كل ماتأصل فى طبائع النفوس من حب المصلحة الشخصية والتشبث بالخرافات القديمة وقد حال القديس بولس دون تقدم المسيحية نحو الشرق ، وهو رجل مثقف ولكنه ذو خلق غريب ، وهو إن كان يهودى المولد فإنه كان يونانيا اسكندرانيا بثقافته وتربيته وبذلك انتقلت المسيحية إلى اليونان وروما حيث جمعت أشتات الحضارة والوثنية التى تكونت على مر القرون فابتدعت آراء ومذاهب جديدة واستحالت المسيحية إلى ديانة أخرى منذ اللحظة التى نأت فيها عن موطنها الأول فأصبحت ديانة « بولص » ولم تعد ديانة عيسى ، وكانت الوثنية القديمة فى طريق الانهيار ، وأعدت الفلسفة اليونانية والاسكندرانية العالم

الرومانى للاعتراف بإله متجسد خالق العالم الجوهر المولود قبل كل الدهور . فتأصلت هذه الفكرة فى الديانة المسيحية البولينصية ، ولذا فإن المسيحية المثالية الحديثة وهى أقرب إلى أن تكون فلسفة من أن تكون ديانة سماوية ليست إلا وليدة حضارة ظلت قرونا قبل المسيح وبعده .

ظهور الإسلام

أما الإسلام فقد ظهر بين أقوام، وفى ظل أوضاع اجتماعية وأدبية مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك ولو كتب للاسلام أن يحطم الحواجز التى أقامتها المسيحية المتفككة فى وجهه وشق طريقه بين شعوب الأرض الراقية لكان الآن يختلف فى تقدمه وطبائعه اختلافا تاما بين الناظرين الجماعات الإسلامية التى لم تؤت حظاً كبيرا من الثقافة ، وقد أدت كلمات هاتين الديانتين إلى نتائج تتفق مع طبيعة البيئة التى شقت طريقها فيها شأنهم فى ذلك شأن الأنهار التى تنساب فى بقاع مختلفة من الأرض - إن المكسيكيين الذين يقتص بعضهم من بعض بأوراق الصبار وعبدة الأوثان فى أمريكا الجنوبية ، وهما أحط الأمم المسيحية ، لا يمكن اعتبارهم مسيحيين بأى معنى من معانى الكلمة ، إذ توجد هوة واسعة بينهم ، وبين قادة الفكر المسيحى الحديث ، وإنك لتجد الإسلام حيثما حل بين قوم لديهم الاستعداد للرقى والثقافة يساير الاتجاهات النقدية ، ويشد أزر المدنية ويقدم للناس صورة المثل الأعلى الدين ، وبديهى أنه لابد أن تكون الأوامر والنواهى الدينية حاسمة قاطعة حتى تؤثر تأثيرا قويا دائما فى الشعوب البدائية وغير المثقفة ، ولن يكون للمواعظ الخلقية أى تأثير فى نفوس العامة الغارقين فى الجهالة والوحشية والضاربين فى بيداء الهمجية إلا إذا وجهت إليهم فى صيغة حاسمة وصيغت بالدقة التى تصاغ بها القوانين ، ورتبت عليها عقوبات معينة ، إذ الجانب الخلقى من الذين لا يستهوى أفئدة العامة ومشاعرهم .

والنظريات السياسية لا تؤثر فى نفوسهم ولا فى سلوكهم اليومى وحياتهم

ولكنهم يزدجرون بالسلطان والسوابق التاريخية أكثر مما يزدجرون بالمواعظ والمبادىء النظرية ، ولذلك كانوا بحاجة إلى أحكام واضحة تنظم علاقة الفرد بربه فضلا عن علاقة الفرد بغيره من الناس — وبدون هذه الأحكام ينسون واجباتهم. ثم إن السر فى نجاح الإسلام وانتشاره السريع العجيب على وجه الأرض يرجع إلى اعترافه بهذا المطلب الجوهرى للطبيعة البشرية، فقد وجد الإسلام أمامه عالما يموج بالملل والنحل المتفاخرة، ووجد بضاعة القول أهم عندهم من العمل، فخاطبهم بأحكام قاطعة صادرة من المشرع الأعظم ، ودعا إلى عبادة الله وحده فى وسط الحطام الأدبى الاجتماعى الذى ولد فيه ، وبذلك دعا البشرية إلى أداء الواجب الذى يؤدى دون غيره ، إلى السمو الروحى وبنجاحه فى رفع الشعوب المنحطة إلى مستوى أعلى من الأخلاق الاجتماعية أثبت للعالم ضرورة وجود نظام تشريعى إيجابى بين البشر واتجاهه الذى لايفترق عن الاتجاه الاشتراكى فى شىء يمثلان ذلك التطور الفكرى الذى ظهر فى شخص عيسى عليه السلام، على شواطىء بحيرة الجليل ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يغب عن باله التفاوت بين الناس فى القدر والاستعدادات مما يستلزم التفاوت الاقتصادى بينهم .

أضرار التقليد

ياحسرة على المسلمين اليوم . . . إن آفة التقليد قد ذهبت بروعة الدين، وأفسدت روحه الحقيقية .

ولقد أوضح بجلاء أحد الوعاظ المسيحيين الفرق بين الدين وعلم اللاهوت والآفات التى أصابت الكنيسة المسيحية ، من الخلط بين الأمرين، وما جرى فى المسيحية جرى فى الإسلام ، فقد حلت سخرية الإقرار الشفوى بالإسلام محل العمل ، وحل التمسك بالرسوم محل العمل الجدى الصادق ، وهو إسداء الخير للإنسان حبا فى الخير وابتغاء وجه الله ، وخمدت جذوة الغيرة الدينية، وأصبح حب الله ورسوله كلمات جوفاء ، وانعدم الإخلاص فى عمل الخير ، والتفكير فى الخير - إن مسلمى اليوم تمسكوا بحرفية النصوص ، وجنحوا إلى اتباع الرسوم الظاهرية بدلا من التمسك بالمثل الأعلى ، الذى دعا إليه النبى صلى الله عليه وسلم ، والتنافس فى صالح الأعمال ، والأخذ بأهداب التقوى والاستقامة، والإقبال على محبة الله ، ومحبة خلقه من أجله، وكان من الطبيعى أن يعمد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأولون بدافع من احترامهم له وإعجابهم به ، إلى أن يتأسوا بأسلوب حياته الكريمة ، وأن يثبتوا الحوادث العابرة ، فى حياته المتغيرة ، ويطبعوا على صفحات قلوبهم أوامره وأحكامه ، وتوجيهاته لمواجهة مقتضيات عصره فى مجتمع كان لايزال فى عهد الطفولة .

ولم يكن أشد منه صلى الله عليه وسلم إدراكا لمطالب هذا العالم،

الدائب التقدم بكل مايشتمل عليه من الظواهر الاجتماعية والأدبية ، المستمرة التغيير .

وعندما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله ، ولا فى كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيى ، ولا آلو ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم على بصيرة بمقتضيات عصره ، ومطالب قومه الذين كانوا يتمرغون فى حمأة التدهور الخلقى والاجتماعى قبل الإسلام فرأى بثاقب فكره واتساع نظره .

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه خرق ببصره حجاب الغيب ـ إنه سيأتى زمان على الناس تجب فيه التفرقة بين الأحكام العارضة الوقتية ، وبين الأحكام الدائمة العامة .

لنا تاريخ مجيد وصفحة مشرقة

وإنها الجديرة بأن تتداركها الأجيال والأجناس لم تدنسها الأحقاد ولم تلوثها الأهواء ، وقد رأيتم أن عصا الاستعمار لا تزال تعمل على تفريق صفوفكم ، وتوشك أصابعه الدنسة أن تعبث بكم ، فإن اعتصمتم بحبل الله ، وربطت الأخوة الإسلامية بينكم فتألم الغربى للشرقى والشرقى للغربى أرهبتم العالم وانتصرتم .

« وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »(١)

وصدق الله :

« لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ »(٢)

إنكم لن تهنوا أبدا وإن الله لا يخذلكم أبداً إذا كنتم فى كل ما تأتون وما تذرون تبتغون وجه الله وترجعون دائما إليه ولا يهولنكم ما تسمعونه من الدعايات السيئة ضد الإسلام ، فإنها نقر فى الهواء ونقش فى الماء .

هذا وإن من الدعايات السيئة دعوة فى بلاد الكونغو القاديانيه تلك

---

(١) سورة محمد ٣٨

(٢) سورة الحشر ١٣ ، ١٤

الطائفة المأجورة التي أغراها الاستعمار بالدرهم والدينار ، فإن للاستعمار دعايات مسيئة خلعوا عليها أسماء مزيفة سموها منظمات دولية وثقافة أجنبية ، وهي في الحقيقة أسست للتنفير من الإسلام ، وزعزعة عقائد المسلمين لينضموا تحت لوائهم . زعموا أن غلام احمد يوحى إليه ، ويؤولون القرآن تأويلا باطلا يقولون إن معنى خاتم النبيين في قوله تعالى :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ »(١)

بأن خاتم مأخوذ من الخاتم الذي هو زينة للإنسان .

هذا وقد باءت هذه الطائفة المأجورة بالفشل بعد أن آزرها الاستعمار ، وبذل القناطير المقنطرة بالذهب والفضة في رواج دعوتها لأن الحق دائما منصور إما بالحجة والبرهان وإما بالقوة .

ولو استتر الحق بثوب من التضليل لابد أن يظهر ولو بعد حين .

---

(١) سورة الاحزاب ٤٠

الاشتراكية فى الإسلام

اشتراكية الإسلام تضمن للعاجز العيش وللعاطل العمل وللمريض الصحة يتجلى ذلك فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه مَنْ ترك مالا فلأهله، ومَنْ ترك دَيْناً أوضياعاً فإلىّ وعلىّ . لهذا كانت صالحة لكل زمان ومكان ، وإزالة الفوارق ورغبة فى المساواة والعدالة الاجتماعية . وهى من الناحية السياسية تعمل على إعلاء المجتمع على الفرد ، ومن الناحية الاجتماعية تحقق المساواة بين الأفراد ، وإلغاء الفوارق بين الطبقات . ومن الناحية الاقتصادية تقضى على الرأسمالية الظالمة التى لم توف الجامع لها حقه ، وتطغى صاحبها فيتعالى على الناس . قال تعالى :

« إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى »[1]

وتجد الحكمة تظهر جليا فى نظام الإرث فى الإسلام ، فإنه يحطم الثروة ، ويفتتها تفتيتا لامثيل له فى أى قانون آخر . فالقانون الإنجليزى يحصر الثروة فى البكر ، من الأولاد ، ويحرم من عداه ، وبعض القوانين الأخرى تجيز الوصية لأى كائن بجميع المال ، سواء أكان وارثا ، أم غير وارث ، حتى الكلاب والقطط وسائر الحيوان .

أما الإسلام فيوزع أنصباء الإرث توزيعا عادلا ، فيعطى القرابات أنصبة متفاوتة ، ولا يسمح لصاحب الثروة أن يتصرف فيها بالوصية إلا بالثلث .

---

(١) سورة العلق ٦ ، ٧

وهذا كله محافظة على التوازن الاقتصادي . ويقول تعالى :

« كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ »[1]

فهو يؤيد الملكية الفردية التي جمعت من مال حلال أو من طريق الميراث ، أو الهبة بشرط أن يخصم منها الزكاة التي فرضها الله تعالى وهي تشتمل الثمانية أصناف التي جاءت في الآية الشريفة :

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ »[2]

وقد قاتل الخليفة الأول أبو بكر منكريها وما نعيها .

ولم يكتف الإسلام في الترفيه على الفقراء بالزكاة فقط بل جعل هناك ذنوباً لا يكفرها إلا الصدقات منها الحنث في اليمين ، وفي الظهار ، وفي الجماع في نهار رمضان وفي محظورات الحج .

فأي نظام تجده نزيها عادلا كفيلا بسعادة الفرد وصلاح المجتمع كنظام الإسلام وما أحوج العالم إليه في هذه الأثرة الطاغية وهذه المحن القاسية ، والفوضى المروعة .

وأعظم من هذا وذلك أن الإسلام أوجب على غير أصحاب المال أن يحضوا الأغنياء على الصدقات وأوعد من لم يحض على طعام المسكين شر وعيد .

---

(١) سورة الحشر ٧

(٢) سورة التوبة ٦٠

قال تعالى :

« أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ »(١)

---

(١) سورة الماعون ١ — ٣

محمد الرسول صلى الله عليه وسلم

بهذا الإسم الكريم تنطق ملايين الشفاه ، وله تهتز ملايين القلوب كل يوم وآن منذ ألف سنة وأربعمائة إلا قليلا إلى يوم الدين .

حقن الله به الدماء ، وقطع به العداوة الواغرة للقلوب ونصح للأمة وجاهد فى الله حق جهاده فأدى عن الله وعده ووعيده .

ولم يك صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى زمن طويل ، ليظهر دينه ، ولينتشر فى الخافقين لواؤه ، فقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاته ، ويومئذ وضع هو خطة انتشار الدين ، فبعث إلى كسرى وإلى هرقل كى يسلما ولم تمض مائة وخمسون سنة من بعد ذلك حتى كان علم الإسلام خفاقا ما بين الأندلس فى غرب أوربة إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين فى شرق آسيا وحتى كانت الشام والعراق وفارس ، وأفغانستان قد أسلمت ، وواصلة ما بين بلاد العرب ومملكة ابن السماء وكانت مصر وبرقة وتونس والجزائر ، ومراكش قد وصلت ما بين أوربا ، وإفريقيا ، ومبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن يومئذ ، إلى يومنا هذا بقيت راية الإسلام عالية فى هذه الربوع جميعاً ، خلا الأندلس التى أغارت النصرانية عليها ، فعذبت أهلها ، وأذاقتهم من ألوان الشدة والبأس، حتى لم يطيقوا صبرا عن الحياة ، فعادوا إلى إفريقية وارتد من ارتد منهم هولا وفزعا عن دينه ، ودين أبيه إلى دين العتاة المعتدين ، الله يتولى حسابهم وهو أسرع الحاسبين .

على أن ما خسره الإسلام فى الأندلس ، من غرب أوربا كان له العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينية ومكنوا لدين محمد فيها ، فاستشرى فى البلقان كلها ، وانبلج نوره فى روسيا ، وفى بولونيا ، وخفقت أعلامه فى أرض أسبانيا ، ومن يوم أن انتشر الإسلام فى صولته الأولى إلى يومنا لم يتغلب عليه من الأديان متغلب ، وإن تغلبت على أممه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشد بالله إيمانا ولحكمه إسلاما ، وفى رحمته ، وفى غفرانه ، أملا ورجاء هذه القوة التى انتشر الإسلام بها سرعان ما جعلته يقف وجها لوجه أمام المسيحية وقفة نضال مستميت ، فلقد محا هو الوثنية من بلاد العرب كما محا خلفاؤه الأولون من بلاد الفرس والأفغان ، وطائفة كبيرة من بلاد الهند أثرها ، كما تغلب خلفاؤه على المسيحية فى الحيرة ، واليمن ، والشام ، ومصر ، إلى مهد المسيحية فى رومية ، وفى مدينة قسطنطين .

وإن الإنسان ليأخذه العجب ، ويتولاه الاستغراب ، ويزداد عجبا حين يذكر هؤلاء العرب ، عرب البادية ، الزاحفين من شبه الجزيرة الصحراوية القاحلة — أن يضعوا أيديهم على حدائق الأندلس ، ورومية ، وسائر بلاد المسيحية .

ولكن متى عرف السبب كما قيل بطل العجب ، السبب هو قوة مبادئه ، وتعاليمه الرشيدة ، وقوة إيمان أهله .

وإليك بعض ما سجله التاريخ فى أزهى صفحاته :

منذ أن بعث الله رسوله نبى الهدى وهو يكافح هو وأصحابه لإخراج الناس من ذل العبودية إلى الله وحده ، ومن الخضوع إلا لشرعه ، وبعد أن

حرر بلاده من ربقة الاحتلال ، وطرد الفرس والرومان ، أخذ فى الفتوحات الخارجية فبعد غزوة تبوك ، وبينها وبين المدينة حول ٥٠٠ كيلومتر وقد أخذ أصحابه ينشرون الدين ، ويفتحون البلاد فهزموا أوربا فى موقعة حطين وفلسطين سنة ٥٨٣

ووقع بعض ملوك الصليبيين أسرى فى الحروب الصليبية التى كانت فى القرن السابع ، ووقع لويس التاسع أسيراً فى معركة عين جالوت ، وهذه الجزائر خاضت فى السنين الأخيرة أعنف معركة ، فى حرب قاسية عاتية ، ضد دولة عاتية ، والشباب الجزائرى سطر بدمائه وروحه أروع صفحات الجهاد والنضال وكذلك سوريا وغيرها من بلاد الإسلام التى احتلها العدو فى غمرة الأحداث ، وكانوا يسارعون إلى الموت كأنهم ذاهبون إلى رحلة جميلة يلقون فيها آباءهم .

وتلك صفحات مجد وفخار لآبائنا الأولين وحكامنا السابقين ، جزاهم الله خيراً بقدر ماعملوا وأخلصوا وإن النكسة التى أصابت المسلمين فى الأيام الغابرة فقد عوضها هذا الجيل الحاضر : حكام ومحكومون ، وأخذوا يبذلون مجهودات فى خير المجتمع ، ونسوا أنفسهم حتى صار مجتمعا سليما ، يرى كل واحد أنه جزء من هذا المجتمع ، يشقى بشقائه ويسعد بإسعاده ، ومن العجب العجاب أن يظل تعصب المسيحية على الإسلام بهذه الشدة فى عصر ، يزعم أهله أنه عصر النور والعلم له التسامح ، أولا يذكر هؤلاء المبغضون إغتباط المسلمين بانتصار المسيحية على المجوس حين افتتحت جيوش هرقل أرض فارس والروم والتاريخ يثبت أنهم لايلجئون الشدة إلا عند الضرورة القصوى .

الحق لا يعدم نصيراً

إلى الوزراء

تحت هذا العنوان ، فى صحيفة الجمهورية تاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩٦٨ كلمة الحق فى صفحة (الباب مفتوح) للأستاذ النابه المخلص لوطنه : السيد عبد الرءوف .

خلاصة هـذا المقال : أنه يجب على بوليس الآداب أن يطبق قانون الآداب على الجنسين : الرجال والنساء لأن القانون يحظر على كليهما الخروج عن نطاق الفضيلة لا يفرق بينهما . وحقا ماقاله الأستاذ فاننا نجد فى كل صباح ومساء فتيانا كثيرين ، يقودونهم الموكلون بحفظ الآداب ، ولم نسمع أحداً منهم اقتاد فتاة واحدة فى عمل مخز ، وترجيح من غير مرجح .

ورحم الله (مصطفى صادق الرافعى) حيث قال كلمته التى دوت فى آذان الحاكين والمحكومين وهى : ولوجىء لى بفتى يعاكس فتاة لنظرت إلى الفتاة فلو وجدتها متزينة متعطرة ومصقولة لحكمت عليها بعقوبتين : الأولى لأنها خدشت عفة الفتى والثانيه لأنها كشفت لحمها للهر .

هذا وأقرب حادثة منذ زمن قريب أن تجمهر عدد كبير فى شارع فؤاد حتى تعطل المرور ، مما أدى إلى استدعاء رجال الأمن ، وحفاظ النظام ، ولم يجدوا لهذا سببا سوى نساء عاريات ، ، وقبضوا على الفتيان على مرأى

ومسمع من الحاضرين ، ولم نسمع شيئا عن النساء ، اللاتى خدشن عفة الشباب .

هذا ولو أننا سألنا رجال الآداب عن الميني جيب ، هل يبيحه القانون الذى أمروا بتنفيذه الجواب لا ، فلماذا ولماذا ؟ لجزى الله الكاتب كل خير .

(إقـــتراح)

قد يبدو من السذاجة الآن أن أناقش موضوع (الميني جيب) بعد المناقشة الطويلة، والضجة التي دارت حوله ومع هذا وأيضا مع جهل بالقانون ؛ فأنا أعرف أن هناك قوانين تعاقب على الفعل الفاضح في الطريق العام .

وفي النيابات ملفات تتضمن أحكاما ضد سيدات وفتيات ، بتهمة التحريض والتعرض ، وأعتقد أن الفتاة أو السيدة التي تعرض نفسها في الطريق لاتقل خدشا للحياء ، عن السيدة ، أو الفتاة ، التي تبيع الهوى ، وإنما ينظر إلى ماتفعله ، على أنه عصرى ، ويا أيتها الحضارة ، كم من المهازل والفضائح ترتكب باسمك أقترح اقتراحا بسيطاً جداً ، وهو أن يطبق القانون دون حاجة إلى قوانين جديدة السيد عبد الرءوف جاء في صحيفة الأخبار في ١٢-٦-١٩٧٠

أن السيدة التي تدعى زينب راشد عميدة كلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر — قالت لأحد الصحفيين : إن بعض رجال الدين والصحفيين وغيرهما ينتقدون أزياء بناتنا في هذه الكلية لأنها تابعة لأكبر معهد دينى إسلامى قالت : أنا مستعدة لأن أجعل هذه الأزياء لها طابع يشعر بأن هذه الكلية كلية إسلامية ، ولكن ما السبيل إلى ذلك وقد مضت السيدة تقول : إن هؤلاء المنتقدين لم يرسموا لنا حلا لهذا ، وقد نبهت على المدرسين بأن يعاقبوا كل تلميذة تأتى إلى الكلية بالزى غير المحتشم بإخراجها من المحاضرة وحرمانها من الدرس ولكنى لم أجد من يصيخ إلى شكاتى

ويسمع أنات أحوانى ، ثم ذكرت أن الحل الأسلس هو أن تأخذ هذه الكلية فى كل تقاليدها طابعها الإسلامى وذلك بإنشاء معاهد ثانوية أزهرية للبنات تمد هذه الكلية بطالباتها .. بذلك يمكن للمنهج المستقيم على التربية الإسلامية فى الأســـاس أن يؤتى ثماره وتختفى بذلك كل المشاكل المتعلقة بالأزياء وغيرها ، كما أن خريجى هذه الكلية إذا ما اشتغلن بالتدريس أو عمل آخر لا يصبحن مثار أى شكوى بل يصبحن النماذج التى تفخر بها جامعة الأزهر ، كما يساعد ذلك فى حالة سفرهن للخارج على تأكيد الدعاية الطيبة لبلادنا وللتربية الاسلامية التى تدخل الآن فى مناقشة عنيفة مع الأحاديث فى أن تعاليم الإسلام حرب عوان على هـــذه الأزياء الخليعة فكيف لا يقضى عليها .

المخدرات

إن الإنسان ليتملكه العجب ، وتستولى عليه الدهشة حين يرى شابا قد آتاه الله حظا من الذكاء والعزة يتمتع بنضرة شبابه ، وجمال هندامه وقوة الفتوة ، وبعد الصيت وحسن السمعة ، قد أسلم قياده لهواه ، واتبع خطوات الشيطان ، فضل عن سبيل الرشاد فأصبح سليب العقل والمال عضوا أشل فى المجتمع منبوذا من العقلاء يتجنبونه كما يتجنب السليم الأجرب ، ولا يزال يلح عليه الداء حتى يلقى فى غيابة السجن ـ ياللعجب العجاب : إن الإنسان الذى هو بناء الله فى أرضه وميزه عن سائر خلقه يتكالب على الشقاء ، ويسعى للهلاك فى تناول المخدرات التى خلقت لتسهيل عمليات جراحية ، ودخولها فى بعض الأدوية لتسكن أوجاع بعض المصابين ، وتخفف آلام المكروبين فهى بمثابة الحقن للمريض ، هل يصح أن تتخذ كيفا من المكيفات فكم من أسرة كانت ناعمة البال ، راضية النفس تتمتع ببحبوحة العيش ، ورغد الحياة ، تسكن القصور العالية ، وتملك الضياع العامرة قد زال عزها وأخمل ذكرها وأصبحت تعيش من فضلات المحسنين ، ثالثة الأثافى سقوط بعض الفتيات فى حمأة المخدرات مع أن الفتاة يجب أن تظل مصونة العرض طاهرة النفس ، مبرأة من كل عيب ، بعيدة عن النقائص والموبقات ، حتى تستطيع أن تربى النشء تربية صالحة.ولقد فشت المخدرات فى مصر فشوا كادت تقضى على الكثير من شبانها فلقد نكب بتعاطيها عشرات الملايين من الأمم الشرقية ، وخاصة مصر ، وها هوذا ما يسمونه المعسل قد تفاقم ضرره وكثر شره فى صغار المزارعين من العمال الكادحين فتراهم يقتطعون

من أموالهم ، وأقوات من يعولونهم ، ويشترون هذا السم القاتل والخطر الداهم ، ومن بين هؤلاء من يستبدله بالحشيش فيتناوله تدخينا أو مذاباً مع غيره ، أوممجونا بمواد أخرى ، وهذا النوع من المخدرات أشد فتكا من غيره ، فترى من يتعاطاه هزيلا ضعيف القلب هائج الأعصاب لايكاد يبلغ الخمسين من عمره حتى تراه محطما لايستطيع أن يؤدى واجبه فى الحياة .

وإن تعجب من هذا فأعجب منه أن تسمع ممن أسرهم هذا السم أنه ليس بحرام لأنه لم يرد تحريمه فى القرآن مع أن القرآن يصر فى آيات كثيرة بأن كل ما فيه ضرر حرمه الله تعالى من ذلك قوله تعالى :

« قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ »(١)

والإثم فى لغة القرآن هو الضرر ، فيدخل فيه جميع المسكيفات ، وليس من شك أن أضرارها جسيمة : صحية واجتماعية واقتصادية وتبذير وحسبى فى ذلك قول الله تعالى :

« إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً »(٢)

ويلحق بهؤلاء « التبغ » ويسمونه دخاناً وقد نكب بتعاطيه عشرات

(١) سورة الأعراف ٣٣.
(٢) سورة الإسراء ٢٧

الملايين نكبوا في صحتهم وفي ماليتهم وفي أسرهم حيث أنهم يأخذون الرزق الذى ساقه الله إلى الأسرة فيحرقون به أجسادهم ظلم فادح وطغيان فاجر .

المخـــدرات أوالمنبهات كالخمر والحشيش والأفيون والـكاكايين والمورفين والدخان وغيرها .

تناول المخدرات يكون أولا بالتـكلف واحتمال المـكروه والألم فإن هذه الأشياء مـكروهة بالطبع كما أصر المجربون وإنما يتـكلفونه طلبا للذة متوهمة يقلد بها الشارب غيره ثم يصير المؤلم بالتقود ملائما بإزالته للألم المتولد منه إزالة مؤقتة ، وذلك بأن هذه الأشياء سموم مكروهة في نفسها ، ومتى أثر سمومها في الأعصاب بالينبيه الزائد وغيره أعقب ذلك ضده من من الفتور والألم وهما يطاردان بالعودة إلى الشراب .

الحب فى الله من كمال الإيمان

وفى البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليأتين على الناس زمان يطوف المؤمن بالصدقة من الذهب فلايجد أحدا يأخذها منه ، ويرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء » وفى الحديث المرفوع عن أبى هريرة رضى الله عنه أن من عباد الله عبادتغبطهم الانبياء والشهداء قيل من هم يارسول الله ؟ قال : هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لايخافون إذا خاف الناس ، ولايحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ قوله تعالى :

« أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »(١)

وقال صلى الله عليه وسلم : لايكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فإنما أقطع له قطعة من النار » البخارى . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت شهوة (٢) لى بقرام (٣)

---

(١) سورة يونس ٦٢

(٢،٣) الشهوة : الكوة . والقرام : الشد

فيه تماثيل فلما رآه رسول الله هتكه وتلون وجهه وقال : يا عائشة : أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرغ فيه فيقول : ياليتنى مكان صاحب هذا القبر .

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبل أحد مرة فعبر عن منهجه بقوله ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً ، تمضى على ثالثة وعندى منه دينار إلا شيء لدين إلا أن أقول فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ثم سار وقال : إن الأكثرين هم الاقلون يوم القيامة إلا من قال : هكذا وهكذا وهكذا أى يفرقه يمينا وشمالا ومن خلفه وقليل ما هم .

حكم لها عبر :ـ من كلام عبد الله بن الزبير :

١ ــ إنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه فإن تقبل الدنيا على لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لا أبكى عليها بكاء الخرف .

المعنى الإفرادى : ــ

٢ ــ لكل شخص عينان : عين ظاهرة وهى عين رأسه ، وعين باطنة هى عين نفسه ، فالعين الظاهرة لاترى من الشيء إلا صورته السطحية ، وهى أمر تافه لاقيمة له ، تتعلق باللون والحجم والشكل ونحوها ، أما العين الباطنة فهى تدرك حقيقة كل شيء حكمة وجوده وسر خلقه .

٣ — ولكل إنسان شيطان يلازمه من مولده إلى مماته .

كثير من الناس من يحمل نفس حيوان ضار ، لا يفكر إلا فى رغباته الجسمية ، وشهواته البدنية فلا يألو جهداً فى سبيل الوصول إليهما أن يرتكب كل دنية ، أو فعلة وحشية ، وما هى إلا سنون حتى يدركه الهرم ، فيموت ميتة الحيوان الأعجم ولو كان عنده أدنى تفكير لمزق حجاب الغفلة الذى ران على عقله فاعتبر بمن سبقه بالرحيل إلى ربه . الذين زالت عنهم الدنيا وانقطعت عنهم الأسباب ، فلا يجيبون داعيا ، ولا يسمعون ضجيجا ، لو أذن لهم أن ينطقوا لقالوا إن خير الزاد التقوى ، وقد خرجوا من الدنيا حفاة عراة ، أغنياء عما تركوا فقراء إلى ما قدموا ، وعما قليل سيلحق بهم وما أحسن ما قيل أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ـ ونال من الدنيا سرورا وأنعما — كبان بنى بنيانه فأقامه فلما استوى ما قد بناه تهدما فليست الحياة شهوة جسدية أو روحية حتى يتفانى المرء فى نيلها ، وليست جاها حتى يتفانى فى السمو إليه .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »(١)

فقال : « ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة

(١) سورة المائدة ١٠٥

نفسك ودع عنك أمر العوام ، وسئل أيضا عن الأدوية والرقى هل ترد من القدر شيئا ، فقال صلى الله عليه وسلم : هي من القدر . وعن يموت من أطفال المشركين فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، .

المعنى : إن الله يعاملهم على مايقع منهم يوم القيامة لا على مجرد علمه وسئل صلى الله عليه وسلم عن أكثر مايدخل الناس النار فقال : الأجوفان : الفم والفرج . وعن أكثر مايدخلهم الجنة فقال : تقوى الله وحسن الخلق وفى حديث آخر بين حسن الخلق بأنه : طلاقة الوجه وكف الأذى وبذل المعروف وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاثة أقسم عليهن : مانقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة وصبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر وأحدثكم حديثا فاحفظوه .

إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يبتغى فى ماله ربه ويصل به رحمه ويعلم لله حقا فهو بأحسن المنازل . وعبد رزقه الله علماً ، ولم يرزقه مالا يقول : لو أن لى مالا لعملت به عمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الأجر سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً فهو لايبتغى فى ماله ربه ولا يصل به رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهو بأسوأ المنازل عند الله ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء . رواه الترمذى وأحمد عن أبى كبشة الأنمارى .

وفى الترمذى مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليتمنين أقوام يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرونه من ثواب أهل البلاء .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد فى سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا. دينهم رواه أبو داود بإسناد حسن .

قال الحسن : إن العينة والله ماهى إلا عقوبة من الله عز وجل على الناس والعينة أن تبيع ـ من رجل سلعته بثمن معلوم إلى أجل مسمى لايتسكافأ مع الثمن ، ثم يشتريها بأقل من الثمن الأول صلة إلى أخذ الربا وهو من أعمال اليهود الذين كانوا يتخذون دينهم لهوا ولعبا ، يحتالون على محارم الله والوقوع فى امتهانه ، يخادعون الله . وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشىء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصى الله ، أو حلم يكف به السفيه ، أو خلق يعيش به بين الناس أهداف الإسلام ثلاثة :

١ ــ تحرير العقل البشرى من ربقة التقليد والخرافات .

٢ ــ إصلاح الحياة الاجتماعية بصورة ، يسود فيها العدل بين الناس .

٣ ــ صيانة الحريات .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتى ، ولن يتفرقا حـــتى يردا على الحوض) رواه الحاكم .

وقال أيضاً : (من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا مايبقى على مايفنى) رواه احمد .

قال صلى الله عليه وسلم : « أتانى جبريل فقال : يا محمد عش ماشئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ماشئت فإنك مجزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس ، الشيرازى .

قال صلى الله عليه وسلم : اتق المحارم تكن أعبد الناس . وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس . وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فان كثرة الضحك تميت القلب أحمد وغيره .

قال صلى الله عليه وسلم : مارأيت مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها البيهقى فى شعب الإيمان .

قال صلى الله عليه وسلم : من ولد له ولد وأذن فى أذنه اليمنى ، وأقام فى أذنه اليسرى لم تضره أم الصبيان. لأبى ليلى فى مسنده عن الحسن

قال صلى الله عليه وسلم من لد له ثلاثة أولاد فلم يسم أحدهم محمدا فقد جهل . الطبرانى الكبير عن ابن عباس

قال صلى الله عليه وسلم المؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم بفتح الخاء وكسرها

قال صلى الله عليه وسلم موت الفجأ تحفة من الله على المؤمن ، وحسرة على الكافر الطبرانى ولأبى نعيم

قال صلى الله عليه وسلم تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك . فى الأربعين النووية

قال صلى الله عليه وسلم من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من الناس لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله فان عليه إثم من عمل بها ، لا ينقص ذلك من آثام الناس شيئا . أخرجه الترمذى باختلاف فى بعض الألفاظ

قال صلى الله عليه وسلم الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها . الرافعى عن أنس فى الجامع الصغير

قال صلى الله عليه وسلم الفخر والخيلاء فى أهل الإبل ، والسكينة والوقار فى أهل الغنم لأحمد فى مسنده

قال صلى الله عليه وسلم ما على أحدكم إذا أراد أن يتصدق لله صدقة تطوعا أن يجعلها عن والديه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها وله مثل أجورهما بغير ألا ينقص من أجورهما شيئا

قال صلى الله عليه وسلم زودك الله التقوى وغفر ذنبك ويسر لك الخير حيثما كنت

قال صلى الله عليه وسلم ماعال من اقتصد. لأحمد فى مسنده

حكمة وأعظم دواء موجود فى العالم وأعظمه أثرا لإزالة القلق هو العمل

أغلق الأبواب على الماضى والمستقبل وعش فى حدود يومك

قال صلى الله عليه وسلم : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » عن أبي هريرة فى الجامع الصغير .

قال صلى الله عليه وسلم : مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله فجعل الناس يطيفون به يقولون مارأينا بنيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة ،فكنت أنا تلك اللبنة .

قال صلى الله عليه وسلم : « إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة(١) فى الناس ، وإن الله لايحب الفحش والمتفحش » أبو داود .

قال صلى الله عليه وسلم « اليمين على نية المستحلف » قال العلماء إلا إذا كان مظلوماً .

قال صلى الله عليه وسلم الأمر ثلاثة : أمر بين رشده فاتبعه ، وأمر بين غيه فاجتنبه ، وأمر اختلف فيه فكله إلى الله تعالى عز وجل ، فى مصابيح السنة .

وقال صلى الله عليه وسلم : ليس الإيمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل وإن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل . الحديث مرفوع ، هكذا قرر علماء الحديث .

---

(١) الشام : جمع شامة وهى الخال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى ، وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم ، ورجل منع فضل ماله فيقول الله اليوم أمنعك فضلى لما منعت فضل مالم تعمل يداك . البخارى وغيره .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنصرانى الذى أسلم: ألق عن نفسك شعر الكفر ثم اختتن .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أراد الحج فليعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الضالة وتعرض الحاجة » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس لابن آدم حق فيما سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجلف الخبز والماء(١)

رواه الترمذى

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما عمل به وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » رواه الترمذى .

وقال صلى الله عليه وسلم : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» الجامع الصغير . وقال أيضا عن الضيف أن يخرج معه إلى باب الدار .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد » هذان الحديثان ضعيفان، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » رواه الترمذى .

---

(١) وجلف الخبز الذى ليس معه إدام ، أو الخبز الغليظ اليابس

قول الله تعالى :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ »(١)

قال مجاهد : مكتوب فى عنقه سعيد أو شقى .

قال أبو القاسم البلخى: المؤمنون ينصرون أبدا: إذا غلبوا فهم المنصورون بالغلبة وإن غلبوا فهم المنصورون بالحق - وقال الراغب الأصفهانى نصرة الله للعبد ظاهرة ، ونصرة العبد لله هى نصرته لعباده ، والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده ، واعتناق أحكامه واجتناب نواهيه ، وإذا ما أراد الله النصر لقوم ذلل لهم الصعاب ، واندكت أمامهم الجبال لأن الله خير الناصرين قال تعالى :

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ »(٢)

أى يظهركم على أعدائكم لسبب طاعتكم فلن يقدر العدو على خذلانكم وهو معكم .

عبرة من قصة يوسف : فيها أمهات الفضائل والأخلاق أن يستخرج منها العظة والفضيلة فى شاب فى ريعان شبابه محفوف بالمغريات وموجبات الصبوة فلم يكترث لذلك واستمسك بدينه وقد عانى الصعوبات فلم يغير مبدأه السجن والإذلال ولو أطاع هواه لكان كل ما فى القصر طوع يديه، ولكنه

---

(١) سورة الاسراء ١٣

(٢) سورة آل عمران ١٦٠

آثر رضاء الله على هذا كله لأن الله تعالى سيعوضه خيرا من هذا ، وإن الحق لو استتر بثوب من التضليل لابد أن يظهر ولو بعد حين ، وكان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : « أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا اعتم سدل عمامته بين كتفيه » رواه الترمذى .

وفى حديث مسلم عن عمر بن حريث رضى الله عنه قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر عليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه. قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى ليلا . رياض الصالحين . يقال : أدلج : سار من أول الليل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بانعم أهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس عذابا فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط فيقول لا .

الجزية الصحيح أنها تضرب على الوثنيين ولم يضربها الرسول عليهم لأنها

فرضت فى السنة الثامنة من الهجرة والعرب جميعهم قد أسلموا ولم يضر بها على أهل خيبر لأنه صالحهم على أن يزرعوها بشطر ما يخرج منها .

الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر عليا بان يسحب من أبى بكر الرياسة فى عام الحج دليل ذلك أن الرسول لما قاد الحجاج قال : قم يا على : أد رسالة رسول الله وهى لا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل المسجد مشرك ومن كان له عهد فعهده ما عاهد عليه ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك .

شر المعاصى الجهر بها

المعاصى كلها شرور ، وهى مثل السم ، تارة يقتل لساعته إذا كان كثيرا وتارة يقتل بالتدريج إذا كان قليلا ، والمعاصى لذائذ وقتية . ووراءها الهلاك مثل السم فى العسل ، وعلى قدر لذة صاحبها الرخيصة على قدر ما يلحقه من الضرر . نعم تارة لا تكون فيها ضرر ، ولكنها تكون ذريعة للضرر مثل خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية وسفرها وحدها ، وإرخاء العنان لها فى الخروج إلى الملاهى أو المتنزهات العامة فقد دلت التجارب على أن هذا كله يفسد المرأة والناس بإزاء المعصية فريقان فريق يفعلها مستهترا بها ويجهر بها غير مبال بما يوجه إليه من الناس فهذا شر ما خلق الله ، كالذى يفطر فى شهر رمضان ، فهذا الشخص الذى يعلن الجريمة ولا يخشى الله والناس قد مات ضميره ، وسلب الحياء منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمتى معافى إلا المجاهر الذى يعمل بالليل فيستره ربه ثم يصبح فيقول يافلان إنى عملت البارحة كذا كذا يكشف ستر الله عز وجل » .

وقد سئل لقمان الحكيم « أى الناس شر ؟ فقال : الذى لا يبالى إن رآه الناس مسيئاً » الطبرانى فى الأوسط عن أبى قتادة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها فمن ألم بشىء منها فليستتر بستر الله وليتب إلى الله فانه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله » رواه البيهقى فى السنن .

أما الفريق الثانى وهو أقل شرا من الأول ، فعنده جانب من الحياء ، فتتغلب عليه شهوته ويطغى عليه غضبه فينسيه جانب الله وجانب الناس ،

فلا يجد عزما يقاوم به الشهوة أو يدفع به الغضب ، فتحلو الخطيئة فيقع فى الزلل فينتهك حرمات الله ويمد يده إلى الناس بالإيذاء فيخدش العرض المحترم أو يسلب المال ، أو يقتل النفس البريئة ولكن مع هذا يخشى أن يطلع عليه الناس ، فيشتهر أمره ، وتسقط منزلته وتهون كرامته فيدفعه ذلك إلى التستر فيرتكب ما يرتكب فى جنح الليل ، وفى غفلة من الناس ولما كان الإنسان مستعدا بفطرته للخير والشر على السواء تحقيقاً لمناط التكليف . واستحقاق الجزاء ولما كان كذلك لم يجرد الله تعالى الدنيا من أنبياء مرسلين ، وهداة مرشدين حتى تقوم الحجة على الناس أجمعين .

« رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً »(١)

وكذلك من الجهر المحرم ما يكون بين الرجل والمرأة ففى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته ، وتفضى إليه ثم ينشر سرها ، رواه مسلم .

وحكم الجهر بالذكر أنه لا يجوز إلا فى التلبية بالحج والتكبير فى العيدين ، وفى غير ذلك لا يجوز ولا يؤجر عليه صاحبه إلا إذا كان القلب حاضرا خائفا وكان يتذلل كما قال تعالى :

« وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ »(٢)

(١) سورة النساء ١٦٥

(٢) سورة الاعراف ٢٠٥

هل فى المال حق سوى الزكاة

أخرج الدارقطنى عن فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فى المال حقا سوى الزكاة ، ثم تلا هذه الآية :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »[1]

وقال صلى الله عليه وسلم : (من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس وسادس) .

وقال على رضى الله عنه : إن الله تعالى فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر مايكفى فقراءهم فان جاعوا وعروا ، وجهدوا فيمنع الأغنياء حق الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه »

وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (على كل مسلم صدقة فقالوا : يانبى الله فمن لم يجد قال : يعمل بيده فينفع نفسه ، ويتصدق ،

---

(١) سورة البقرة ١٧٧

قالوا : فإن لم يجد؟قال : يعين ذا الحاجة الملهوف ، قالوا : فإن لم يجد قال : فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة البخارى .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يغرس مسلم غرسا ولا يزرع زرعا ، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شىء إلا كانت له صدقة » البخارى
وقال القرطبي : قوله تعالى :

« وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ »(١)

استدل به من قال : إن فى المال حقاً سوى الزكاة وبها كمال البر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان معه فضلُ ظهرٍ فليُعِدْ به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليُعِدْ به على من لا زاد له » من رياض الصالحين للإمام النووى .
ومن فضل الله تعالى أنه لم يجعل الصدقة منة يمنها الغنى للفقير وإنما هى حق استودعه الله تعالى يد الغنى ليؤديه إلى أهله ، وليوزعه على مستحقيه ، قال سبحانه :

« وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ »(٢)

قال على رضى الله عنه : « بشر البخيل بحادث أو وارث » وقال أيضا : يعيش البخيل فى الدنيا عيش الفقراء ويحاسب فى الآخرة حساب الأغنياء .
وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا

(١) سورة البقرة ١٧٧
(٢) سورة الذاريات ١٩

الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم وحملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » رواه أحمد وغيره .

هذا ومن الجحود الآثم أن يتقلب الإنسان فى نعم الله تعالى ، ولم يدخل فى حسابه شىء من آلام الفقراء وحاجات المساكين ، وضيعة اليتامى وبؤس الأرامل، وبكاء المنكوبين، هذا المخلوق هو وحش فى صورة إنسان إذ أنه انسلخ من الإنسانية التى هى أخص صفاته ، والتى امتاز بها عن سائر الحيوان إذ أن الإنسان يعيش لنفسه ولغيره ، والحيوان يعيش لنفسه فقط على أن المال الذى يبخل به على غيره إنما هو لله منه أتى ، وإليه يعود ، وقد استخلفه الله عليه ينتفع به مدة حياته ثم يسلبه إياه ، ويعطيه غيره عند مماته. قال تعالى : حكاية عن كليم الله موسى لبنى إسرائيل :

« قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ »[1]

ورحم الله القائل :

المال عندك مخزون لوارثه والمال مالك إلا يوم تنفقه
إن القناعة من يحلل بساحتها لم يلق فى ظلها هماً يؤرقه

الحق أن البخل بالمال كفر بنعم الله وغصب لحقوق الضعفاء وكنود

---

(١) سورة الأعراف ١٢٩

لله ، وعمى فى القلب . إذ أن البخل سيفقده أعز شىء لديه وهو خسران نفسه التى بين جنبيه ـ قال تعالى :

« قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ »[١]

قال الأديب :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها	على الناس طراً قبل أن تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت	ولا البخل يبقيها إذا ماتولت

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خصلتان لايجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق » البخارى فى الأدب .

وحسبى فى ذلك قول الله تعالى :

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ »[٢]

وفسر الفحشاء : بالبخل ، وصدق الله ، فقد جرت عادة الناس أنهم إذا ماأرادوا أن يذموا شخصا يذمونه بالبخل .

---

(١) سورة الزمر ١٥

(٢) سورة البقرة ٢٦٨

أحكام هامة متفرقة

٩ - القربات كلها مبناها على النيات ، ولا يكون فعل العبد عبادة إلا بالنية والقصد ، لهذا لو أمسك عن المفطرات ولم ينو الصيام لم يكن صائما ، ولو أعطى الفقير هبة لم تكن زكاة ، ولو أحل حراما فظنه حلالا لم يأثم به وبالعكس وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » جملتان كفتا وشفتا وتحتهما كنوز العلم فالجملة الأولى : تفيد أن العمل لا يكون عملا إلا بالنية ، والجملة الثانية ، أفادت أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه ، وهذا يعم العبادات والمعاملات والأيمان والنذور وسائر العقود والأفعال . وهذا دليل على أن من نوى بالبيع عقد الربا حصل له الربا ، ولا يعصمه عن ذلك صورة البيع ، وأن من نوى بعقد النكاح التحليل كان محللا ولا يخرج عن ذلك صورة عقد النكاح لأنه قد نوى ذلك ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فالمقدمة الأولى معلومة بالوجدان والثانية بالنص فإذا نوى بالعصير حصول الخمر كان له ما نواه ، وكذلك استحق اللعنة ومن ذلك بيع العينة تخلصا من الربا ، ومن ذلك من يتزوج امرأة رجل طلقها ثلاثا ليحلها له ولم يقصد الزواج الشرعى فهذا حرام ، ولا يعقد الزواج وكذلك الطلاق لا يقع إلا بالقصد والإرادة أى إرادة المتكلم والمعنى : فلو لم يعرف المعنى ولم يقصد أو كان مكرها لم يقع الطلاق بخلاف الهازل لأنه قاصد التكلم قال صلى الله عليه وسلم ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة رواه أهل السنن .

فالمشرع الحكيم ألغى الألفاظ التى لم يقصد المتكلم بها معانيها بل جرت

على غير قصد منه كالنائم والناسى والسكران والجاهل والمكره والمخطىء من شدة الفرح أو الغضب أو المرض ونحوهم ، ولهذا لم يكفر من قال من شدة فرحه براحلته التى ضلها وعليها ماؤه وغذاؤه . اللهم أنت عبدى وأنا ربك وكذلك المقاصد والاعتقادات معتبرة فى التصرفات والتقربات والعبادات، فالقصد والنية والاعتقاد يجعل الشىء حلالا وحراما وصحيحاً وفاسدا وطاعة ومعصية كما قال تعالى :

« وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً »[1]

وقال أيضا :

« وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا »[2]

وقوله تعالى :

« فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ »[3]

---

(١) سورة البقرة ٢٠٨

(٢) سورة البقرة ٢٣١

(٣) سوة البقرة ٢٣٠

الذى لم ينشأ عن تعمد

فمن رحمة الله تعالى أنه لايؤاخذ أحدا على الخطأ والغضب والسكر والنسيان والإكراه والجهل بالمعنى وسبق اللسان بما لم يرده ، ولغو اليمين كل هذا فى القرآن الكريم وأنه قال تعالى :

« رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا »[1]

وقال تعالى :

« إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ »[2]

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

٢ — ومن حلف على امرأة ظاناً بأنها طلقت فلا يقع به الطلاق .

٣ — المعاصى كلها منشؤها الجهل بقبحها والغفلة عن مضارها ويكون ذلك بتزيين الشيطان وتغلب الشهوات وفتن الدنيا فإن من يتحقق له أضرار المعصية إن عاجلا وإن آجلا لا يمكن يقترفها فمثلا السارق لو تحقق له أنه سيقطع لايمكن أن يقدم على سرقته فكل من عصى الله فهو جاهل .

إن شرط الإيمان الإذعان النفسى بكل ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يستلزم العمل عند انتفاء المانع فى ترك العمل عن جهالة فهو فاسق

---

(١) آخر سورة البقرة

(٢) سورة النحل ١٠٦

إلى أن يتوب ، ومن تركه لعدم الإذعان أو استخفافاً به فهو كافر والكفر بالبعض كالكفر بالكل قال تعالى :

« أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ »(١)

والمعصية التى تنشأ عن شهوة أو غضب لا تخرج الإنسان عن الإيمان إلا إذا أحاطت به خطيئته فيكون غير مؤمن لأن المؤمن لاتحيط به خطيئته .

قال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الملاعين الثلاثة : البراز فى الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » رواه أبو داود وغيره عن معاذ ، وقال أيضا « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » رواه أحمد وغيره .

القرآن لايقرأ إلا إذا كان لايخرج عن قواعد اللغة العربية وأن يكون على رسم مصحف عثمان ، وأن يكون متواتراً والسبعة متواترة ، أما مابين السابعة والعاشرة ففيه خلاف ومابعد العشرة فشاذ .

فى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالرجل الميت عليه دَين فيسأل هل ترك لدَينه قضاء ، فإن حدث أنه ترك صلى عليه ، وإلا قال صلوا على صاحبكم ، فلما فتح الله عليه بالمال قال : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دَيناً أو ضياعاً فإلىّ وعلىّ .

---

(١) سورة البقرة ٨٥

قال تعالى :

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »(1)

إجمال الآية الشريفة : ـ أن شأن الحياة فى قصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود وسرعة تقضيها وانعدام نعيمها واغترار الناس بها بحال ماعلى الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقها ونضارتها فجأة ونهايتها حطاما وظنها أنها سلمت من الجوائح بعد خضرة زرعها السندسى وألوان أزهارها الرشيقة كالعروس التى ازينت بالحرير الملون والذهب والفضة لزوجها .

فهذا المثل فى جلائه وتمثيله لحقيقة حال الحياة الدنيا وغرور الناس فيها وسرعة زوالها عند تعلق الآمال بنوالها ، وماأحسن ماقيل :

أن تسترد وماتهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا

قال تعالى :

---

(1) سورة يونس ٢٤

« كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »[1]

فى حقائق التوحيد ، وأصول التشريع ، وأمثال الوعظ والتهذيب ، وكل مافيه صلاح الناس فى عقائدهم وأخلاقهم ومعاشهم واستعدادهم لمعادهم لقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها ، ويزنون أعمالهم بموازينها فيقيسون ربحها وخسارتها .

أقوى الروابط : إن أقوى الروابط رابطة الدين وأعظم حافز للخير العام العقيدة والدين والنفوس الجامحة لايردعها عن غيها قانون ولانظام إلا العقيدة الدينية .

وإن الشرور التى غمرت العالم لم تكن إلا من ضعف الوازع الدينى .

الابتلاء : ابتلاء الله عباده بالخير والشر فى هذه الدار من كمال حكمته ، ومقتضى حمده ، ثم إن مدة الابتلاء قصيرة بالنسبة لدار الحيوان والبقاء ، وأعظم الابتلاء مخالفة الطبع وداعى النفس والشهوة ، ولابد من دار تقع فيها الإساءة والإحسان ، وتجرى على أهلها أحكام الأسماء والصفات ، ثم يعقبها دار يجازى فيها المحسن والمسىء ، ولولا ذلك لتعطلت ربوبيته وإلهيته وعزه وحكمته قال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ »[2]

(١) سورة الروم ٢١
(٢) سورة الأنعام ٥٣

من الناس من يحمل نفس حيوان ضار لا يفكر فى غير رغباته الجسدية وشهواته البدنية ولا يدخر فى سبيل الوصول إليها أن يرتكب كل دنية أو فعلة وحشية ، ومثل هذا لا يعيش إلا ليأكل وما هى إلا سنون حتى يدركه الهرم ، ويعتريه الضعف ، فيموت ميتة الحيوان الأعجم البهيم لم يحصل من جهاده الدنيوى نورا يعرج به إلى العالم الذى خلق لأجله .

ضرر التسول : التسول فى الأمة وصمة عار وفضيحة جارحة منها فقدان الكرامة والعزة والحياء فيجب الضرب على أيديهم ما دام العمل ميسرا لهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال ما يغديه وما يعشيه » .

ميزة الإنسان

قال تعالى :

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً »(١)

المعنى : ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة فى سلوكها والعمل بها لفعل ، بأن جعلكم على استعداد واحد ، وألزمكم حالة واحدة فى أخلاقكم وأطوار معيشتكم بحيث تصلح لها شريعة واحدة فى كل زمن ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك لأنهم حينئذ يكونون كسائر أنواع الخلق التى يقف بها استعدادها عند حد معين ، كالطير والنمل والنحل ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم حتى تكونوا نوعا ممتازا يرتقى فى أطوار الحياة بالتدريج ، وعلى سنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة فى كل طور من أطوار حياته فى جميع أحواله .

كذلك أخلاقهم فى الميول لضرورة اجتماعية ، ولولا الاختلاف فى الميول لانجر كل إنسان إلى عمل واحد وصفة واحدة ، وفى ذلك ركود فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وتطبق هذه الحكمة « لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا فإن تساووا هلكوا » .

أى تساووا فى الميول والغنى والفقر .

قال الحسن : العلم علمان ، علم على اللسان فذاك حجة الله على صاحبه وعلم فى القلب وهو العلم النافع المثمر وإلا فهو جهل .

---

(١) سورة النحل ٩٣

٥ - الأحاديث الضعيفة ترجع إلى أن رواة الحديث كانوا يروونها عن كعب الأحبار الهوى وغيره من الذين يظهرون الإسلام ليكيدوا له ويشوهوا سمعته وبخاصة أبا هريرة فقد ضمه كعب إليه وخدعه لأن له أساليب غريبة وطرقا عجيبة - وهذا ما جعل أبا هريرة يثق به .

٦ - لذات الدنيا : نكاح وطعام وشراب ورياسة ولباس ، ومعظم آلام الدنيا لأهل الأرض منها ومتولدة فيها .

٧ - كذلك الكمال لايدرك إلا بالآلم كالعلم والشجاعة والزهد ، والعفة والحلم ، والمروءة وهكذا فلذائذ الدنيا متولدة من آلامها ، وهل يجد الآكل لذة الطعام إلا بعد الجوع الشديد وكذلك الشارب ولله در القائل :

والله قد جعل الأيام دائرة فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا

٨ - المريض مرض الموت لايصح أن يتصرف فى ماله إلا فى الثلث فقط .

٩ - إذا كفر أحد الزوجين ، فإن رجع ولو بعد العدة فصحيح ، ولا عقد ، ولا يجوز أن تتزوج الذى كفر زوجها إلا بعد انقضاء العدة ، هذا هو الصحيح .

١٠ - الأحاديث تدل على أن الصداق لم يقدر بمقدار خاص لأن ذلك يرجع إلى العرف فما يقوله بعض الأئمة بألا يقل عن عشرة دراهم كما هو مذهب أبي حنيفة أو لا يقل عن ثلاثة دراهم كما هو مذهب مالك كلها أقوال

مرجوحة ، دليل ذلك أن أم سليم تزوجت أبا طلحة على إسلامه وآخر يتزوج امرأة على ما يحفظ من القرآن ، وحديث : التمس ولو خاتما من حديد . ذلك لأنها انتفعت فى الأولى بإسلامه من الآخر عند الله ، والثانية كذلك .

الشيعة

قد كتبت فى مؤلفى (الدين والعلم الحديث) عن الشيعة ووفيت الموضوع حقه وأن أقربهم إلى الحق الزيدية ويليهم الإمامية ، ولكن لم أكتب فى الغلاة منهم ، لهذا رأيت أن أكتب فى هذا المؤلف عنهم باختصار .

الغلاة أصناف : منهم السبئية أتباع (عبد الله بن سبأ) وهو أول من من أظهر الغلو ، قال هؤلاء : حل فى على جزء إلهى واتحد بجسده ، وبه يعلم الغيب ، وأتى فى الغمام ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وينتقل هذا الجزء الإلهى بنوع التناسخ ، من إمام إلى إمام .

ومنهم الخطابية ، أتباع أبو الخطاب محمد بن أبى زينب الأسدى ، قالوا : إن جعفر الصادق هو إله زمانه قال الشهرستانى قد بالغ الصادق فى التبرى من أبى الخطاب ، واللعن عليه .

ومنهم المفوضة ، قالوا : إن الله خالق الأئمة ، ثم اعتزل تاركا لهم خلق العالم ، وتدبير شئونه .

ومن الغلاة من يدين بثالوث مكون من الأب وهو على والإبن وهو محمد ، وروح القدس وهو سلمان الفارسى .

ويقول بعضهم : إن يوم الأحد معناه على ، ويوم الإثنين معناه الحسن والحسين .

وقد ذكر الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل فرقاً عدة للغلاة ولكن هذه الفرق كلها ترجع إلى أن الأئمة آلهة ، أو أشباه آلهة ، أو أنصاف آلهـــة .

وعلى أى الأحوال فان للغلاة دينهم الخاص ، وهو لايمت إلى الإسلام بصلة وما زال كثير من الكتاب ينسب جهلا أوتشكيكا عقيدة الغلاة إلى جميع فرق الشيعة من ، الإمامية ، مع أن الإمامية قد استدلوا بكتب العقائد والأصول على كفر الغلاة ، ووجوب البراءة منهم ، ومن كل مافيه شائبة الغلو وذلك لأنهم خالفوا القرآن الكريم ، كما جاء فى سورة المائدة الآية ٧٧ .

« قُلْ يا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »

فى سورة الزخرف الآية ١٥

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ »

ويقول الإمام على كرم الله وجهه : هلك فىّ إثنان : مبغض ومحب غال .

ولا يفوتنا أن نقرر عن الإمامية أنهم موحدون ولا يخالفون الجمهور إلا فى مسائل ثلاث :

١ ـ حصر الإمامة فى أئمتهم .
٢ ـ عصمة الأئمة .
٣ ـ جواز نكاح المتعة وهو الزواج المؤقت بوقت معلوم .

هل هو عصر نور أم عصر ظلمات ؟

يفخر أبناء الجيل الحاضر بأن هذا العصر عصر علم ونور ، وياويحهم لقد ضلوا سواء السبيل ، لأن ثمرة هذا العلم قد استخدمت فى ارتكاب الجرائم ، وقتل النفوس البريئة فى الحروب ، فهذه المخترعات الكيمائية والطائرات الجوية فى هذا العصر يكمن تحت أجنحتها الموت الزؤام ، ويرفرف عليها العداوة والبغضاء ، ولو أن هذه المخترعات الحديثة استعملت فى خدمة المجتمع لحق علينا أن نفخر بها ولكن لم تستخدم إلا فى المطامع الأشعبية فالعلم يتقدم والأخلاق تتأخر ، حتى أصيبت فيها الفضيلة بجزع أليم، والأرض رجوماً من نار وصار العالم على شفا جرف هار، وإن هذه الحروب لوصمة عار فى جبين هذا الجيل الجديد وإنها لمدنية زائفة ، إذ أن المدنية الحقة هى التى تحفظ للإنسانية حقوقها وللشعوب حرياتها ، وينعم الكل فى ظلها فلا يستأثر الحاكم على المحكوم بشىء من متع الحياة الدنيا ، وأن تكون القيم الروحية هى الميزان الذى توزن به الناس .

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »(١)

وإن كلمة عمر إلى عمرو بن العاص ليستقى منها العالم معانى الحرية الصحيحة لا الحرية الماجنة التى خرجت عن نطاق الفضيلة وهى :

يا عمرو بم استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، نحن

---

(١) سورة الحجرات ١٣

ما فتحنا تلك البلاد إلا لنذيق الناس حلاوة الحرية الصحيحة . لهذا كان القائد الإسلامى يحمل معه منشور السلام وعدة الدفاع ، فلا يجنح للشدة إلا عند الضرورة القصوى ، ولنضرب لذلك مثالين :

أولهما : معاهدة عمر مع أهل بيت المقدس ، عقب فتحه لهـا ، جاء فيها :

هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم ، ولكنائسهم وصلبانهم . لاتسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من غيرها . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضر أحد منهم .

ثانيهما : معاهدة عمرو بن العاص ، مع المصريين ، بعد فتحه لمصر :

هذا ما أعطى عمرو بن العاص ، أهل مصر من الأمان ، على أنفسهم ، وملتهم ، وأموالهم وكنائسهم ، وبرهم وبحرهم لايدخـــل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص .

أو لا يخجل هؤلاء مما يتلقونه صباح مساء من اللقطاء التى سدت شوارع فى أعظم مدن الغرب ، ومن كثرة الانتحار التى دوت فى العالم وملأت الصحف ، وبخاصة فى أمريكا ، فقد نقلت الصحف أنه فى كل ٣٥ دقيقة يقع حادث انتحار ، وفى كل ٢٠ ثانية يصاب شخص بالجنون ، وأن انجلترا عجزت عن مقاومة اللصوص . فعلام تفخرون يارجال العصر الحديث ، تفخرون بالتمدين الكاذب الذى نشر الفردية ونشرها فى الأمر ، فقتل الفضائل وقلب كل

شيء رأسا على عقب إطلع على صحيفة الجمهورية فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٦٦، ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٨٦ تجد ما يأتى :

حزب أمريكى يطالب بإبادة الأجناس غير البيضاء هذا الحزب حزب سياسى جديد فى أمريكا . تحت اسم الحزب الوطنى لحقوق الولايات الأمريكية .

أعلن متحدث باسم الحزب أنه يؤمن بإبادة الأجناس غير البيضاء فى العالم ، ويدعو لترحيل اليهود إلى إسرائيل . أو مدغشقر ، ويعتقد أن حل التفرقة العنصرية يكون فى ترحيل الزنوج بالقوة إلى إفريقيا قال المتحدث ، واسمه جوزيف كارول : إن الجنس الأبيض أخذ يتضاءل بحيث أصبح البيض بالنسبة لغيرهم كنسبة واحد إلى سبعة ، ولذلك يتحتم عليهم الدفاع عن أنفسهم بالقضاء على الأجناس الأخرى فما أحوج العالم الذى يجتاحه القلق والفوضى المروعة وأصبح كالريشة المعلقة فى الفضاء لاتستقر على حال من القلق إلى هداية روحية تحرر العقول من رق الأوهام والخرافات ، وتكبت سورة المطامع والشهوات وتكبح جماح الغرائز والأهواء ، ويعيش الكل فى أمن وسلام ، نعم ما أحوج العالم إلى هداية القرآن الكريم الذى هو أساس الدين ، فيه من الآيات ما يحفز الهمم إلى العمل ، ويوجه الأنظار إلى قراءة آيات الكون لتنتفع بما فى هذا الكون من عبر وآيات فيزيد المؤمن إيمانا ولا يرتاب الذين فى قلوبهم مرض ، وكلما ازداد الإنسان علما امتلأ قلبه رهبة وجلالا وهيبة وإكبارا وتورثه إيمانا كاملا ، واعتقاداً ثانيا قال

صلى الله عليه وسلم : (إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، قلنا يارسول الله : ماجلاؤها ؟ قال جلاؤها القرآن) .

ياعمر متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا نحن مافتحنا تلك البلاد إلا لنذيق الناس حلاوة الحرية الصحيحة التى أتانا بها الإسلام .

نصيحة حكيم

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

إن هذا التوجيه الشديد له معنى غزير ، وهو يهتف بأن الإنسان يكون حذرا يقظا ، بحيث يكون عنده حيطة تامة ، ويقظة بالغة . فلا يوسع الخطو تجاه صديقه ، ولا يبالغ فى السير نحوه ، ولا يدلى بأسراره له ، وواجب الإنسان يتطلب إحساساً مرهفاً ، وفراسة صادقة ، وبصيرة نافذة تستشف الحوادث ، وتستنبط الأخبار ، وتكشف اللثام عن أسرارها ، إن مكر العدو لايقاس بجانبه مكر ، وسياسته قائمة على الخداع ، والمكر والخيانة ، والقسوة الوحشية والبلاد التى تحت نفوذه ، وتقع تحت فريسته ، يبالغ فى تمزيقها ، وتحطيم قواها ، سلسلة مآسى رهيبة تقشعر منها الأجسام، وتبرأ منها الإنسانية ، هل بلغكم نبأ البلاد التى نكبت بالحكم الإنجليزى ، هل درستم تاريخها ، لقد ضجت بأصوات الشكايات ، من شدة الذعر ، وزوال الأمن من القلوب وحل مكانه الفزع والرعب فى هذا الجو الخانق مضى هذا العهد المشئوم ولارجعة له وهو مودع لايبكى عليه ، وواجب على كل شخص أن يتخذ منه نبراسا يستضىء به طيلة حياته .

وفى هذا المعنى :

أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما
وبغض بغضتك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما

وفى هذا المعنى أيضا : إذا أحببت فلا تفرط وإذا أبغضت فلا تشطط .

الشهداء : هم حجة الله على المبطلين فى الدنيا والآخرة ليسوا هم علماء.

رسوم ، وحملة الشهادات الذين حذقوا النقاش فى العبارات والجدل ، ولكن هم أعلام الحق والفضيلة ومثل العدل والخـــير : منهم العالم المستقل بالدليل والحاكم المقيم بالعدل والمصلح لما فسد من الأخلاق ، فهم شهداء الدنيا والآخرة : قال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »(١)

والصالحون لم يبلغوا درجة من كان قبلهم ، لأنهم ليس لهم من العلم والعمل مايحتج به على المبطلين الجائرين عن الصراط المستقيم ، أو هم الذين تغلب حسناتهم على سيئاتهم ولا يصرون على الذنب وهم يعلمون .

هؤلاء الأربعة هم صفوة عباد الله وهم موجودون فى كل مكان .

الشفاعة نوعان : شفاعة عامة وهى ثابتة للرسول صلى الله عليه وسلم وهى انصراف الناس للجزاء وشفاعة خاصة بين الناس بعضهم ببعض ، وهى لاتكون إلا بعد أن يستوفوا مايستحقون من جزاء بما كسبت أيديهم ، ولا يؤذن فيها قبل أن يذوقوا العذاب بما كانوا يفسدون ولا تكون فى إسقاط حد أو هضم حق ، أو جلب منفعة غير مستحقة ، وإنما تكون لإزالة ضرر أو رفع مظلمة عن مظلوم ، أو جلب منفعة لمستحق لها .

أما الشفاعة الشركية التى كان يعتمد عليها المشركون فقد نفاها القرآن الكريم فى قوله :

« وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ »(٢)

(١) سورة البقرة ١٤٣ (٢) سورة البقرة ٤٨

أين حقوق الإنسان

منذ عشرين عاما والأمم العربية تعانى أحوالا تشيب النواصى ، وتذيب الرواسى الصهيونية وقد آزرها قوم لاذمة لهم ولا عهد ، على هذا العدوان ، ومما يضحك قليلا ، ويبكى كثيرا ، أن كل المحن التى توالت على الدول العربية وبخاصة فلسطين ـ كانت فى السنة التى تأسست فيها هيئة الأمم المتحدة لتحفظ للإنسانية حقوقها وقد رفعوا الصوت عاليا فدوى فى آذان هؤلاء ومايسمونه مجلس الأمن : اسم من غير مسمى فلم يجدوا من يسمع لشكاتهم ويسمع أنات أحزانهم سوى وعود خلابة كالسراب غر من رآه ، وأخلف من رجاه ، ولقد سبق الأمم المتحدة ومجلس الأمن جمعيات لهذا المقصد ولكن كتب عليها الفشل والخذلان ، لأنها لم تؤسس على دعائم الإخلاص ، وكل عمل يبنى على غير الإخلاص لابد أن تكون عاقبته الخسران

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » (١)

وهاهو ذا التاريخ يعيد نفسه ، فلقد فشلت الأمم المتحدة فى حفظ الأمن ونشر السلام فى ربوع البلاد مما لا نعهده فى عهد من عهود التاريخ

ويعجبنى مقال نشر فى مجلة الأزهر فى العدد الأخير ، للأستاذ النابه

---

(١) سورة الرعد / ١٧ المعنى الإفرادى : (الزبد) هو كل مايعلو على وجه الماء كالرغوة وغيرها (رابيا) عاليا مرتفعا (جفاء) أى مرميا مطروحا

الدكتور أحمد الحوفى فرأيت من الخير ألا يخلو المرشد من نشره هذا المقال معنون بالعنوان الآتى : مجلس الأمن الإسلامى وهو :

١ — دأب الناس عن أن يتحاربوا فى كل عصر وفى كل صقع ، وكلما صعدوا فى سلم الحضارة زاد افتنانهم فى اختراع وسائل الحرب والتخريب والتدمير فهدموا بمخترعاتهم ، ماأبدع العلم والحضارة ، وخربوا فى يومهم ماشيدته الأجيال من قبلهم ، ومن عجب أنهم لايبتغون من الحرب إلا بسط السلطان ، وتوسيع الملك واشباع النهمة إلى الشهرة والمجد ، واستعباد الضعفاء والاستئثار بخيرات بلادهم ، وطالما اعتلت الدعوات إلى الإسلام فصمت دونها الآذان كأنما كتب على البشر ألا ينعموا بسلم دائم ، وليس صراع العالم الذى يهدد البشرية بالانقراض ، وينذر الحضارة بالدمار ناشئا عن دوافع سامية ، أو غايات نبيلة بل إنه صراع مبعثه الغاية منه التغلب والسيطرة واحتكار الخيرات ، والاستئثار بالقوة والنفوذ

٢ — وهنا تتجلى عظمة الإسلام ، لأنه دين سلام ، يؤثر السلم على الحرب ماوسعه الإيثار ، فإن لم يكن من الحرب بد لحماية العقيدة أو صيانة الحياة ، أو الدفاع عن الوطن ، فالحرب شر ، وضرورة موقوتة

ذلك أن الإسلام يدعو إلى المثل الأعلى فى جمع الصلات والمعاملات ، فإذا لم ينجح المثل الأعلى لجأ إلى العلاج الذى لاينجح سواه مراعاة للواقع ومجاراة للأحداث .

ولقد دعا الإسلام إلى السلام فأبى خصومه إلا الحرب ، وصبر المسلمون على أذاهم فلم يردهم الصبر إلا طغيانا وعدوانا

فلم يكن للمسلمين مندوحة عن الحرب ليحموا أنفسهم وعقيدتهم ، استجابة لدينهم الذى يأمرهم بالقوة والإستعداد للدفاع ، كما يدعوهم إلى المسالمة ولاغرابة فى أن يكون الإسلام دين سلام والقرآن الكريم يصف المؤمنين المتقين بالمسالمة والتسامح .

« وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا »(١)

وتسمى الجنة دار السلام :

« لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ »(٢)

وتجعل التحية فيها سلاما :

« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا »(٣)

ويبشر الأتقياء بأن تحييهم الملائكة فى الجنة بالسلام :

« الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(٤)

---

(١) سورة الفرقان ٦٣
(٢) سورة الأنعام ١٢٧
(٣) سورة الأحزاب ٤٤
(٤) سورة النحل ٣٢

وكيف لايكون دين سلام وكل مسلم يقول فى تشهده كل يوم مرات : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم يختتم كل صلاة بالسلام ، وإذا كانت الحرب فى طبائع البشر فإن الإسلام ضيق نطاقها وراعى فيها حرمات الإنسانية أوفى رعاية ، فالمسلمون لم يحاربوا إلا المحاربين ، وتركوا المسالمين ، وغير المحاربين آمنين فى ديارهم ، والمسلمون لم يتجاوزوا فى حروبهم حدود الدفاع والإرهاب إلى الإنتقام الحاقد والتنكيل المبيد ، وقد جنحوا إلى السلام حينما استجاب الأعداء للسلام ، وكانوا بعد انتصارهم رحماء بالمغلوبين . لم يمثلوا بالقتلى ولم يخربوا العمران ، ولم يجبروا أحدا إلى أن يسلم ، لأنهم يعلمون أن لديهم من القوة الذاتية مايفتح له القلوب ويشرح الصدور ، فلقد ذاع الإسلام فى مكة والنبي وأتباعه قلة لايملكون من وسائل القوة مايحمون به أنفسهم من الأذى ثم ذاع فى المدينة قبل أن يهاجر النبي إليها وتعهد الذين أسلموا بحماية النبي ونصرته إذا هاجر إليهم ، ثم استمر الإسلام ينشر بقوته الذاتية فى كل عصر حتى فى العصور التى ضعف فيها المسلمون واضطرب سلطانهم .

وحسبنا هنا شهادة السير توماس أرنولد فى قوله : تصدعت أركان الامبراطورية العظمى وتضعضعت قوة المسلمين السياسية ، ولكن غزواته الروحية بقيت مستمرة دون انقطاع وعندما خربت جموع المغول بغداد سنة ١٢٥٨ م وأغرقوا فى الدماء مجد الدولة العباسية .

وعندما طرد (فرديناند) ملك اليونان دورفمتاله المسلمين من قرطبة

سنة ١٢٣٦م ودفعت غرناطة آخر معاقل الإسلام فى أسبانيا الجزية للملك المسيحى .

فى هذا الوقت كان الإسلام قد استقرت دعائمه ، وتوطدت أركانه فى جزيرة سومطرة وكان يستعد لأن يحرز تقدما ناجحا فى الجزائر الواقعة فى الملايو .

وفى هذه اللحظات التى تطرق فيها الضعف السياسى إلى قوة الإسلام نراه قد حقق بعض غزواته الروحية الرائعة إذ تغلب الكفار المتوحشون على المسلمين ، وهم الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر والمغول فى القرن الثالث عشر ، ولكن الفاتحين الغالبين ، اعتنقوا ديانة المغلوبين .

كذلك حمل دعاة الإسلام الذين فقدوا مظهر القوة والسلطان عقيدتهم إلى إفريقيا الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية والروسيا وغيرها ، ثم صار للإسلام فى السنوات الأخيرة أتباع فى انجلترا وأمريكا واستراليا واليابان .

٣ — الإسلام دين عبقرى جمع العقيدة والعمل ، فهو شريعة ونظام سياسى واجتماعى يكفل للبشر جميعاً أفراداً وجماعات .

ومن عبقريته أنه لم يتغافل عن الغرائز البشرية فيتغاضى عن آثارها ، أو يفترض محوها بل عرفها وعرف آثارها ، فسن لها من الوسائل ما يكفل تهذيبها والتسامى بها ودرء أضرارها ، ومن هذه الغرائز غريزة المقاتلة ، وإذا كان من المحتوم أن يعيش الناس جماعات فمن المتوقع أن ينشب بينهم الخلاف

والتنازع على المصالح ، وكثيراً ما تعجز الوسائل السلمية عن حسم هذا التنازع فتنشب الحرب وقد عرفنا الإسلام أنه يحرص على السلام ، ويحض على صيانته بالقوة .

فما حكم الإسلام حينما يتحارب شعبان مسلمان ، أو طائفتان من المسلمين أتقف الشعوب الإسلامية الأخرى وقفة المتفرج اللاهي أم لشق بالأرواح المزهقة والدماء المراقة والأشلاء الممزقة والعمران المقوض ، والأقوال المبعثرة فى طاعة الشيطان أم ينحاز بعض المسلمين إلى فريق ، وينضم آخرون إلى فريق ، لا ، إن فى موقف المسلمين موقف المتفرج ، أو موقف الشامت المتشفى منافاة للأخوة الإسلامية ، ومجافاة للصلة الإنسانية ، وتمكيناً للمتحاربين من أن يتفانوا أو يقضى قويهم على ضعيفهم ، ومن ذا الذى يرى أخويه يقتتلان فيتركهما ، ويخلى بينهما ، ويرضى بأن يصبر حتى يرى ما بينهما من صراع ، ثم إن فى تحيز فريق من المسلمين إلى طائفة ، وتحيز فريق آخر إلى طائفة توسيعاً لميدان الحرب ، إطالة فى أجلها وإفسادا للعلاقات التى تربط المسلمين وتخريبا فى الأرض وتدميراً للحضارة .

المؤلف : وإجمال القول : أن الإسلام دين الأمن والسلام ، والسكينة والصفاء والمودة والإخاء ولم يكن دين حرب ، أو نزال ، أو مشاحنة وبغضاء ، وإنما يهدى إلى السلام ، وقد حض الإسلام على تأمين الدعوة والدفاع عنها ، ضد من يقف فى سبيلها حتى لا يخشى من يريد الإسلام الفتنة عن دينه ولقد كانت الأمم تتحرش بجيرانها على حين غفلة ، دون سابق إنذار فتطلق عليهم المدافع ، وهم آمنون ، فلا يستطيعون أن يحموا أنفسهم من نيران

المدافع بغتة بساحتهم ، فني مستهل القرن العشرين عقدت الدول في هولندا عام ١٩٠٧ م مؤتمراً لهذا الغرض ، فقرر ألا تبدأ الأعمال الحربية إلا بعد إخطار سابق إذا لم تجب الدولة الموجه لها الإنذار طلبات الدولة صاحبة الإنذار وهذا القرار الذي صدر في القرن العشرين جاء في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان فقال تعالى :

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ »(١)

المعنى : إذا لاحت علامات خيانة من العدو فلا تقاتلهم حتى تعلمهم بذلك ولا تأخذهم على غرة فإن هذا غدر وخيانة وتعويقا للرقي وفيه إضعاف للمسلمين جميعاً ، لهذا رسم الإسلام في قوله تعالى :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(٢)

فإذا تحاربت طائفتان من المسلمين كان على الأمم الإسلامية أن تسعى جهدها للصلح بينهما ، بأن تعرف أسباب النزاع وتقضي بينهما بالعدل فان

---

(١) سورة الأنفال ٥٨

(٢) سورة الحجرات ٩ ، ١٠

رضى المتحاربان بهذا الحكم فقد عاد السلام وكفى الله المؤمنين القتال ، وإن رضيت طائفة ورفضت الأخرى وأصرت على الاستمرار فى عدوانها معتزة بقوتها كان على المسلمين جميعاً أن يحاربوها منضمين إلى الطائفة المعتدى عليها ليكونوا قوة عظمى تستطيع تحطيم العدو الباغى حتى يخضع المعتدى لحكم الله ، وهنا تتجلى سماحة الإسلام وسموه ذلك أنه دعا إلى إنصاف المظلوم وإقرار السلام ، ثم إنه قيد المنتصرين تقيداً يمنعهم من الانتقام لأن المتوقع أن تتشفى الطوائف الغالبة من الطوائف الباغية مجازاة على تمردها وغرورها.

لكن الإسلام قضى بغير ذلك ، قضى بأن يستأنف المستنصرون الذين رفضت وساطتهم وحكمهم العادل فاضطروا إلى محاربة الباغى ـ الصلح بين المتنازعين صلحا قائما على العدالة ، لا على التحيز والمحاباة والتشفى والانتقام ، وحبب إلى المسلمين العدل فى حكمهم بأن الله يحب العادلين ، وبنى القرآن الكريم الدعوة إلى الاصلاح بين المتحاربين على أنهم إخوة للمسلمين الآخرين ، إخوة فى الدين والدين رباط وثيق لا يقل عن رباط النسب والدم ، وإخوة فى الإنسانية لأنهم جميعاً من أب وأم .

ولاشك أن هذا أعظم نظام لصون السلام وحفظ الأمن والفصل العادل بين الشعوب المتنازعة هذا هو مجلس الأمن الحقيقى الذى يستمد قوته من حب الحق ونصرة العدل ، ولا يرعى شيئا غير الحق والعدل إنه مجلس الأمن الذى شكله الخالق ، فهو إذن مجلس يسعى إلى الخير ويقر السلام على الأرض ويعتز برهبته الدينية الروحية ، وهيهات أن يصل إلى شىء منه ما أقامته الأهواء من جماعات مثل عصبة الأمم وهيئة الأمم ومجلس الأمن لأنها

جماعات خيبت الآمال ولم تصن السلام ولم تناصر الحق المستضعف وحرصت الدول القوية فيها على رعاية صوالحها والاحتفاظ بنفوذها ومحاباة من يستظلون بها ، ووضع العراقيل فى طريق من يخشى قوتهم أو يخالف سياستها سياستهم ، وهذا هو السبب فى أن الحرب لاتنقطع ، ملتهبة وباردة فى أن العالم سيحزب شيعاً وكتلا ، ونتيجة ذلك كله أن يطغى القوى على الضعيف ويطمع المسلح فى الأعزل فلا تكاد حرب تنتهى حتى تبدأ فى أعقابها حرب أخرى أشد طحناً وأقوى فتكا فمتى تثوب البشرية إلى رشدها ، ومتى ينعم العالم بسلام دائم بجمعية مجلس الأمن .

المؤلف : إن الذى دفعنى إلى اقتحام هذا المقال فى مؤلفى هذا هو احتفال بعض الأمم بمرور عشرين عاما على تكوين هيئة الأمم المتحدة ويا ويحهم لقد تنكبوا الطريق وضلوا سواء السبيل ؛ لو أنهم أنصفوا لقلبوا هذه الاحتفالات إلى مناحاة لقد سجل التاريخ عليها العجز والضعف والاستكانة وإن منهم من يحابى اليهود ويبرر أعمالهم الوحشية ، وإن تشريد العرب ، وإخراجهم من أوطانهم مقهورين مغلوبين كان فى السنة التى تم فيها تأسيس هيئة الأمم المتحدة . أفلا يخجل هؤلاء المحتفلون !

وهانحن أولاء نتلقى ضربات قاسية فى كل صباح وفى كل مساء بل كل لحظة من اللحظات تروع الآمنين وتعض مضاجع الآباء والأمهات فكم من نساء تأيمت ، وكم من أطفال تيتمت وكم من بيوت تهدمت ولو نظرت إليهم لوجدت فى كل عين دمعة ألم ، وفى كل دار رنة حزن وأسى .

لمثل هذا يذوب القلب من ألم إن كان فى القلب إسلام وإيمان

السيدة مريم

فى حين طبع الكتاب شاع فى مصر أن السيدة مريم العذراء ظهرت فى كنيسة فى الزيتون ، وقد أخذ الناس من الأقاليم ومن الأقطار الأخرى يفدون إلى هذه الكنيسة ليروها ، ولقد تحدث الكثيرون بأنهم رأوا نوراً وحماما ليلا ، وكان من آثار ذلك أن اختلف المسيحيون والمسلمون ممن لهم سعة الاطلاع ، الأولون ينسبونها إليهم ويتمسحون بها والآخرون يجعلونها منهم لأن القرآن أثنى عليها وعلى ابنها المسيح عيسى .

لهذا رأيت أن أجلى هذا الموضوع لقراء البيان حتى يكون الكل على بينة من هذه السيدة الفاضلة التى أثنى عليها القرآن وأخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها سيدة نساء اليهود ، كما أثنى على آسية امرأة فرعون بأنها سيدة نساء القبط .

وكان أبوها عمران من علماء بنى إسرائيل وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحق بن ابراهيم وكانت زوجته عاقراً وطالما تمنت أن يكون لها ولد ليكون سلوتها فى وحشتها ، وسيرها فى وحدتها ، فأحلى أمانى المرأة أن تجد لها ولداً بجانبها ، وترى طفلها بمرأى منها ، سجية طبعت عليها النساء حتى لقد ترى ذلك فى البنات الصغيرات فهن يدللن العرائس ويحرصن على اقتناء الدمى فالتجأت إلى الله تعالى فنذرت له تعالى إن أنالها أمنيتها ورزقها الولد تهبه خادما لبيت المقدس خالصاً محرراً لا تستخدمه فى شيء ، أجاب الله دعاءها فشعرت بالجنين يتحرك فى أحشائها فأشرقت الدنيا فى عينها ، ولكن هى الدنيا لا تعطى إلا

لتأخذ ، ولاتهب شيئاً إلا لتأخذ مقابلا ، فلكل فرحة ترحة فبينما هى تعد للمولود عدته ، وإذا فرحها ينقلب بفقد زوجها ، هذا ولما تمت عدة الحمل وضعته ، وإذا المولود أنثى ، فعاد إليها الحزن حيث خاب ظنها فى أنها كانت ترجو أن يكون المولود ذكراً ليصلح إلى خـــدمة البيت ، وطلبت من الله كالمعتذرة قائلة :

« رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ(١) وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »(٢)

فرحم الله ضعفها فاستجاب دعاءها فقبل هبتها بأن رضى بأن تكون ابنتها وفاء للنذر ، وأخبرها بأنه أعلم بما وضعت ، وبقدر ماوهبت فلفتها فى خرقة وحملتها إلى بيت المقدس وقدمتها إلى الأحبار قائلة : دونكم هذه البنت ، فانى قد نذرتها لخدمة البيت وانصرفت بعد أن تركتها تنازل القوم فى كفالتها وكان أشدهم حدباً عليها، وأكثرهم رغبة فى كفالتها زكريا لأنه زوج خالتها ، وهنالك اشتد النزاع كل يدلى بحجته حتى تحاكموا للقرعة وانطلقوا إلى نهر ألقوا فيه أقلامهم(٣) فارتفع قلم زكريا فوق الماء ، ورسبت أقلامهم ، وكفلها زكريا فبنى لها غرفة عالية فى بيت المقدس ، وكان يتفقد شئونها وكلما

---

(١) مريم : لفة عبرية ومعناها : العابدة

(٢) سورة آل عمران ٣٦

(٣) الأقلام : سهام الاقتراع

دخل عليها فى مكانها للعبادة يجد عندها رزقا، وعهده بها ألا يدخل إليها أحد فحاول الوقوف على السر العجيب، فقال :

« يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »(١)

هذه الكرامة قد أوجدت أملا عند زكريا فى أن الله قادر على أن يهبه الولد بعد أن بلغ من الكبر عتيا فدعا الله تعالى قال :

« قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا »(٢)

إلى قوله تعالى :

« يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا »(٣)

وكانت الملائكة تأتى مريم وتخبرها باصطفاء الله تعالى وإجابته إياها وتطهرها جاء ذلك أيضا فى سورة آل عمران :

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ

---

(١) سورة آل عمران ٣٧
(٢) سورة مريم ٤
(٣) سورة مريم ٧

عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ »(١)

ولقد نشأت مريم نشأة طهر وعفاف ، وبينما هي في خلوتها وإذا بالملك جبريل ظهر أمامها يقول لها :

« إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا »(٢)

فاستعاذت منه قائلة :

« إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا »(٣)

وغشيتها سحابة من الحزن وجلست حائرة كيف تحمل من غير أن يكون لها بعل اقرأ هذه الآيات من سورة آل عمران :

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ

---

(١) سورة آل عمران ٤٢ - ٤٤
(٢) سورة مريم ١٩
(٣) سورة مريم ١٨

لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ »[١]

ومن سورة مريم :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا »[٢]

نمت مريم وترعرعت ، واشتد ساعدها ، وعمر قلبها بالتقوى والصلاح ومكثت بالبيت تعبد الله الذى يرسل إليها رزقها رغدا ، وأخلصت فى القيام بسدانة البيت وخدمته حتى صارت مضرب الأمثال .

وخلاصة القول أن السيدة مريم كانت من الفاضلات فضلها الله على نساء العالمين اللاتى كن فى عصرها وقد أثنى عليها القرآن فى آيات منها فى سورة التحريم :

« وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ »[٣]

(١) سورة آل عمران ٤٥ - ٤٨

(٢) سورة مريم ١٦ - ٢١ (٣) سورة التحريم ١٢

المعنى : أحصنت فرجها : حفظته من الحلال والحرام ـ ، كلمات ربها : فى الوعد والوعيد والكتب التى أنزلت على الرسل ومنها سورة الأنبياء قال تعالى :

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ »(١)

وكانت عبادتها على شريعة توراة موسى قبل أن تبدل مؤمنة بوصية ابراهيم يعقوب عليه السلام التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم :

« وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »(٢)

وإنا نسائل علماء الدين عن الإشاعة التى ملأت الكرة الأرضية فى ظهور السيدة مريم فى كنيسة الزيتون هل هذا صحيح وإذا كان صحيحا فبم يفسر الموت ، ومعروف عند جميع الملل أن الموت : هو انفصال الجوهر الحى عن الجسم المادى الفانى ، وبعبارة أخرى هو انقطاع تصرف الروح عن أعضاء الجسم فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى أنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم الشخص بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ، ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لايتعلق بالأعضاء وكل ماهو وصف

---

(١) سورة الأنبياء / ٩١

(٢) سورة البقرة / ١٣٣

للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد في البعث ، وهذا هو البعث فتتصرف فيه كما كانت من قبل وبعبارة أوضح : إن موت الإنسان هو عبارة عن سلب يديه ورجليه وعينيه ، وأذنيه ولسانه وجميع أعضائه ، وسلب أهله وولده ، وأقاربه وأصحابه وماله منه .

ومن هذا يتحقق للقارىء الكريم أن الروح بعد انسلاخها من الجسد لا تعود إليه إلا عند البعث وهو خروج الناس من قبورهم ، فيحيوا حياتين فقط : الحياة الأولى وهو في بطن أمه والحياة الثانية عند البعث ، وليس بينهما حياة أخرى ، وقد أجمعت الكتب السماوية على ذلك يوضح ذلك ما حكاه القرآن الكريم عما يقوله أهل النار :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ . قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ »(١)

فصريح هذه الآيات أن الإنسان كتب عليه موتتان : الأولى حينما كان

---

(١) سورة غافر ١٠ — ١٢ .

ترابا وماء ، وهواء ، فإنها عناصر ميتة ، والثانية حين انقضاء الأجل الذى قضاه فى الدنيا .

وكذلك يحيا حياتين الأولى بعد الموتة الأولى ، والثانية بعد الموتة الثانية ، وهو البعث . وإجمال الآيات قولهم : ربنا أمتنا موتتين بأن خلقتنا أمواتا ثم أمتنا بعد انقضاء آجالنا ، وأحييتنا اثنتين عند الميلاد وعند البعث .

والمقت أشد الغضب ، والمعنى بغض الله لكم أشد من بغضكم أنفسكم عندما تدركون أنها سبب مصائبكم هذا وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم عن النبوة التى هى أعلى مراتب الإنسان - بأنها قد انقطعت فقال صلى الله عليه وسلم : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا يارسول الله : وما المبشرات قال: الرؤيا الصالحة ، وفى حديث آخر «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، الحديثان فى البخارى .

وإذا كان هذا فى النبوات فكيف فى غيرها فاذا ظهر الميت ، فانما يكون من الجن ، لأن الجن يتشكل فى صورة الميت وكان فى الأيام السابقة جماعة اشتهروا بتحضير الأرواح فى أوربا ، وقد تبين لهم أخيرا أن الذى يحضر هو جن يجىء فى صورة الشخص الذى يريدون تحضيره .

خطأ الكثيرين فى الكرامة

الكرامة هى نوع من خوارق العادات التى تروى عن جميع الأمم المختلفة والأديان والملل ، وقد قال علماء التوحيد إنها تقع المؤمن والكافر ، والبر والفاجر والساحر ، ويختلف اسمها باختلاف من ظهرت على يديه فتسمى معجزة للنبى المرسل إذا تحدى بها ، وكرامة الرجل الصالح المتبع للرسول صلى الله عليه وسلم ومعونة لمن دونه من المؤمنين واستدراجا للكافر والفاسق وقد صحت الأحاديث بأن الدجال يظهر على يديه خوارق عجيبة ، وعلى كل لانعتد بشىء من هذا ولا نحكم بأنه كرامة إلا إذا عرضناه على الكتاب والسنة ، وإلا فهو من أعمال الشياطين وفى جمع الجوامع أن الإلهام وهو الكشف الصحيح عندهم ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوما بخواطر خلافا لبعض الصوفية ، ولا يعتد بخلافهم ، لأنهم خالفوا به الأصول كما خالفوا النصوص والكرامة لاتدل على الولاية ، ولو صح ما ادعاه بعض الصوفية من الكشف لما صحت شهادة الله بإكمال دينه :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا »(١)

وأولياء الله هم المذكورون فى :

---

(١) سورة المائده ٣

« أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ »(١)

فالأولياء حقا هم المتقون أحياء كانوا أو أمواتاً ولهم بشارتان : بشارة فى الدنيا وبشارة فى الآخرة فبشارة الدنيا الرؤيا الصالحة وبشارة الآخرة الجنة والأولياء هم الذين والوا الله بالطاعة ووالاهم الله بالرضا والإكرام ثم إنهم درجات تضمنتهم الآية الشريفة .

« ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ »(٢)

فالظالم لنفسه هو الذى قصر فى بعض حقوق الله وتاب عنها ، واستوفى عذابه فى الدنيا أو فى القبر أو قصر فى حقوق الناس ولكنه رد المظالم إلى أهلها أو عفوا عنه .

والمقتصد : هو من يفعل ما أمره الله به من الواجبات القاصرة على نفسه ، ويترك ما نهى الله عنه ، والسابق بالخيرات : هو من يزيد على ذلك فيتقرب إلى الله بالنوافل ويتكمل بالفضائل ، وهذه درجة المقربين من شهداء الله الصديقين والصالحين من الأبرار .

---

(١) سورة يونس ٦٢ ، ٦٣

(٢) سورة فاطر ٣٢

خرافات لا كرامات

يحدثنا التاريخ الصحيح أن المبالغات التي نقرأها في الكتب عن كرامات الأولياء نشأت في عصر المماليك في القرن الثالث عشر والعصر العثماني إلى القرن التاسع عشر، حيث كان الجهل والجمود الفكري قد عم البلاد طوال العصرين المذكورين، فكانت هذه فرصة انتهزها النفعيون الذين يعيشون على هذه الدعاية فأخذوا يروجون للسيد البدوي وغيره أمورا خارقة للعادة قاموا بها، ومما نسبوه إلى الأولياء أنهم حولوا الرصاص إلى ذهب، أو قطع المسافة من مكة إلى المدينة في خطوتين أو يحيون الموتى، ويميتون الأحياء وهكذا مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم قد طلب منه أن يسقط عليهم كسفا من السماء أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى في السماء فتعجب الرسول من قولهم وأعلنها في تواضع:

« سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً »[1]

هذا موقف سيد الأولين والآخرين: آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة، فكيف بغيره:

« وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً »[2]

هذا وقد ورد في رسالة السيد أنه حول الشعير إلى قمح، وقطع المسافة

---

(١) سورة الإسراء ٩٣

(٢) سورة المجادلة ٢

من مكة إلى طنطا فى إحدى عشرة خطوة وإطاعة الحيوان له ، وشفاء المرضى من غير علاج ودواء ، والصبر على عدم الطعام أربعين يوما ، وإحضار الأسرى من بلاد الافرنج ، ومما يدعو إلى العجب والدهشة أنى رأيت بعينى وأنا طفل عجلا من الجواميس يصحبه رجل من النفعيين ويدخل البيوت لا يمنعه أحد ويأكل ما يشاء ويطلب ما يشاء ويطلق عليه عجل السيد، كما أن النساء والصبيان يتبركون بهذا العجل ويتلمسون منه البركات ، وليس من شك فى أنه لا فرق بين هذه والسائبة التى ذكرها القرآن الكريم :

« مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ »(١)

المفردات : كان أهل الجاهلية يعظمون هذه الحيوانات فحرمها الإسلام .

فالبحيرة هى التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شىء والوصيلة الناقة البكر فيكون أول نتاج الإبل بأنثى ثم تثنى بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بأخرى ليس بينهما ذكر والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلا يحمل عليه شىء وسموه الحامى .

ومما نسب إلى السيد كتاب يدعى الأخيار فى ظل ألفاظ فى غاية الاختصار

---

(١) سورة المائدة ١٠٣

فى مذهب الشافعى ، وهذا الكتاب مخطوط كتبه شخص يدعى ابراهيم سنة ٦٣٩ .

وإذا كنت تعجب من هذا فأعجب منه أن هؤلاء النفعيين قد جعلوا ضريح السيد مثل الكعبة : بيت الله فوضعوا عليه حجراً وهذه وثنية لأن الوثنية ليست حجرا يعظم فقط بل كل مايرجى منه النفع أو دفع الضرر سواء كان جمادا أو حيوانا أو إنساناً ولا يقاس الحجر الأسود عليه لأن الحجر الأسود رمز لمبالغة الله تعالى وقد جاء فى الحديث الذى رواه الخطيب رضى الله عنه فى التاريخ : الحجر عين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، فتقبيله تعظيم لله لأنه جعل مبدأ للطواف حول بيت الله تعالى ، كتحية المسجد فإنها تحية لرب المسجد فتقبيله مظهر من مظاهر التعلق بالسلطان الأعلى .

« خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »(١)

وكان عمر رضى الله عنه يقبله ويقول : والله إنى أعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك ، ولما سئل عن ذلك قال : شىء صنعه النبى صلى الله عليه وسلم فلانحب أن نتركه ولذلك أمرنا بأننا نقول حين تقبيله أو استلامه : اللهم إيمانا بك وتصديقاً بكتابك واتباعا لسنة نبيك ووفاء لعهدك .

هذا وإنى لاألقى التبعية على من وضعوا الحجر فحسب بل على كل من يرى

(١) سورة الانعام ١٠٣

هذا المنكر ولم يعمل على إزالته وبخاصة علماء هذا المعهد الدينى ، فالتبعة عليهم أكثرهم ثلاث طوائف : الأولى ينقصها سعة الاطلاع وترى أن هذا جائز من غير علم بل عن جهل وينطبق عليهم قول عمر : « إنما ينقض الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية » .

والطائفة الثانية تعرف أن هذه وثنية ، ولكن تخاف من ألسنة الناس يخشون الناس والله أحق أن يخشوه ، وهذه الطائفة شر من الأولى لأنها ضعيفة الإيمان .

والطائفة الثالثة : وهى من القلة بمكان ، جهرت بإخراج هذا الحجر ، ولكن لقلتها لا تستطيع أن تنفذ ما تراه أذكر منهم : الشيخ عبد الجليل عيسى ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ محمد العدوى ، والشيخ حفنى رحمهم الله . وسبقهم فى هذا المرحوم الشيخ محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا رحم الله الجميع ، ولا تعجب لهذه القلة لأن أهل الحق قليلون فى كل زمن وجيل كما قال تعالى :

« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ »(١)

« وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ »(٢)

هذا وقد دام الصراع بين الفقهاء والصوفية ردحاً من الزمن ، فالفقهاء يرون الشريعة قوانين محدودة منظمة يسهل الرجوع إليها فى تنظيم الحياة ، فليس فيها لبس ولا غموض ، وهذا حق .

---

(٢) سورة الأنعام ١١٦

(١) سورة الأنعام ١١٩

أما الصوفية فيعتمدون على الخواطر والإلهامات التى لاتستقر على حال فتارة تخطىء وتارة تصيب وهاهو ذا عمر بن الخطاب كان من الملهمين، ومع هذا فقد كان يخطىء ويصيب ، وهو ثالث ثلاثة بعد الصديق الذى يلى درجة النبوة فكيف بغيره ، وقد كتبت فى الإلهامات فى مؤلفى « العلم والدين صفحة ٣٠٦ » ونقلت فيه صورا كثيرة ، وإن الإلهامات نوعان : إلهامات إلهية وإنما تجىء للعبد من المواظبة على العبادة من الاتصال بالله ، لا من طريق التعلم ، ولا من طريق الزهد والتقشف ولا الانجذاب ، كما عليه الكثيرون قال تعالى :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »(١)

النوع الثانى : الإلهامات الشيطانية: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن للشيطان لمة بابن آدم ، وإن للملك لمة رواه الترمذى عن ابن مسعود. واللمة هى الخطرة التى تخطر فى ذهن الإنسان » .

ويرى ابن تيمية أن الولاية هى التقوى والكرامة تجرى على يد الصديقين والصالحين كذلك يقول : إن الولاية ليست ملازمة للكرامة بل قد يكون وليا ، وليس له خوارق ، وقد تجرى على يديه خوارق ولايكون ولياً ويرى أن من أوتى الاستقامة أفضل مما أوتى الكرامة .

ولذا ينقل عن أبى على الجرجانى تلك الكلمة الحكيمة « كن طالباً للاستقامة لاطالباً للكرامة فإن نفسك تطلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة .

(١) سورة العنكبوت ٦٩

ويقول أيضاً : ليس لأحد أن يتقرب إلى الله بالموتى من الأنبياء والصالحين ، وأن التقرب إلى الله بالاقتداء بهم ، وأن الاستغاثة لاتجوز بالموتى أما بالأحياء فلا تكون فيما لايقدر عليه إلا الله تعالى .
والمؤلف كلمة تتلخص في الآتى :

قد يكون في الشخص خاصة روحية قوية طبيعية يحدث منها أمورا خارقة للعادة كما قد ظهر شخص ساذج تظهر عليه علامات الطفولة وكان ينطق بأرقام عملية حساب تحتاج إلى مجهودات وتفكير ومراجعة وهو ينطق بها من غير أن يمسك قلما وكان ذلك منذ ثلاثين سنة تقريباً أو أكثر وقد احتفظت به وزارة المالية ليرجع إليه ولكنه لم يعمر قليلا رحمه الله تعالى .

وجاء في كتاب السيد أحمد البدوى بقلم الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ما يأتى تحت عنوان : الكرامات في الإسلام : وإذا كان الإسلام قد نادى بأن لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وجاء ظهوره مصحوبا بتحطيم الأصنام والقضاء على البدع والخرافات ، إلا أنه مع انقضاء دور الازدهار بالنسبة للدولة العربية الإسلامية من ناحية ، ومع انتشار تيار التصوف في أرجاء العالم الإسلامى من ناحية أخرى ، أخذ أصحاب المصالح يروجون لكرامات الأولياء ، ويبالغون في هـــذه الكرامات مبالغة تتمشى وانتشار الجهل وضعف المستوى الفكرى للناس فإذا قيل : لماذا لم تظهر الكرامات للصحابة مع عظم مكانتهم عند الله ؟ رد على ذلك المناوى في طبقاته الكبرى : إنما كانت الكرامات بعد زمن الصحابة أكثر لأن قوة إيمانهم لاتحتاج معها إليها . ولأن الزمن الأول كان كثير النور . فلو حصلت لم تظهر كل الظهور ولاضمحلالها في نفس النبوة بخلاف من بعدهم .

ألا ترى أن القنديل لا يظهر نوره بين القناديل بخلاف الظلام ، والنجوم لا يظهر لها ضوء مع الشمع وهكذا لم يحاول المناوى أن يعلل عدم ظهور الكرامات في العصر الأول في الإسلام تعليلا صحيحاً على أساس أن الإسلام في دوره الأول كان قوياً ، وأن العقيدة كانت سليمة ، فلم يكن هناك مجال للخرافات والافتراءات والمتاجرة باسم الدين.. ثم قال الأستاذ: ومع انتشار التصوف لم يرض الصوفية المتطرفون بهذا الاعتدال لأن الصوفية اعتبروا أنفسهم ورثة الأنبياء بل وضعوا أنفسهم على قدم المساواة مع الأنبياء ، وبلغ الأمر ببعضهم أن اعتبروا الولى أعظم مكانة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد نسب إلى السيد عبد القادر الجيلاني أنه قال : أوتيتم معاشر الأنبياء اللقب ، وأوتينا مالم تؤتوا (١) ثم إن المبالغة في الكرامات كانت فيها عزاء للصوفية والفقراء لأنهم بذلك يخلقون لأنفسهم ديناً من المجد الموهوم يعوضون فيه ما ضاع عليهم من حظوظ الدنيا .

ومن هذا قال الأستاذ : ويعتبر الشعراني إلى حد كبير من أكثر المسئولين عن الترويج لهذه الخرافات .

أجل حاول بعض أتباع السيد أحمد البدوى أن يجعلوه قرينا للنبي صلى الله عليه وسلم فكانوا لايسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم إلا ويأتى سلامهم مقرونا بالسلام على السيد البدوى فيقولون السلام عليك يا رسول الله والسلام عليك يا أحمد يا بدوى (٢) ومما جاء في هذا الكتاب

---

(١) الشعرانى : الجواهر والدرر صفحة ٢٧٨

(٢) عبد الصمد الجواهرجى ٧٢

قصة تواتر ذكرها فى الكتب التى عالجت سيرة السيد أحمد البدوى خلاصتها أن امرأة مات لها ولد صغير ، فجاءت إلى السيد أحمد البدوى باكية وقالت: ياسيدى ما أعرف ولدى إلا منك .

وقد حاول الفقراء الملتفون حول السيد البدوى منعها وإبعادها، ولكنهم لم يستطيعوا وظلت تستنجد بالسيد البدوى وهى تقول : توسلت إليك بالله ورسوله ! ! ويلاحظ هنا أن الرواة لم يستحوا من جعل إنسان يتوسل بالله عزوجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عندالسيدالبدوى ليقوم السيدالبدوى بإحياء الميت هـ ـ المؤلف : لوصح هذا الحكم الإسلام على السيدة بالكفر الصريح لأنها جعلت مرتبة السيد فوق مرتبة الله تعالى وفوق مرتبة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويذكر على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية أن أغلب الطرق منسوبة إلى أربعة من كبار الأولياء « الأقطاب » هم عبد القادر الجيلانى ، وأحمد الرفاعى ، وأحمد البدوى ، وإبراهيم الدسوقى ، ولكل واحد من هؤلاء طريقته الخاصة التى نسبت إليــه ، وهى الطرق القادرية والرفاعية والأحمدية والبرهامية تشعبت من هذه الطرق الأربعة طرق كثيرة أخبرنى الباحث فيها أنها عدد أيام السنة ، وأن كل فرقة من فرق الصوفية اتخذت لنفسها شعاراً وكان شعار الأحمدية هو اللون الأحمر ، وشعار الرفاعية اللون الأسود .

والذى يبدو لنا أن طوائف الصوفية كانت من باديء أمرها تغلب

عليها الاستقامة والصلاح وأن الفساد تطرق إلى الطائفة الأحمدية فى أوائل القرن الثامن الهجرى فكانت أعمالهم كأعمال الرفاعية من أكل الحيات والإمساك بالنار المشتعلة ووضع الزجاج فى الفم وطحنه بالأسنان ومن المآخذ التى أخذت عليهم أنهم يأخذون العهد على النسوان ، ويختلى أحدهم بهن فى غيبة أزواجهن وتقول له : يا أبى ويقول لها : يابنتى . . . ! ! كذلك اشتهر بعض الأحمدية والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللاتى يأخذن العهد عليهن حتى خصهم الشعرانى بالذكر فى معرض الحديث عن وقائع الزنا التى تحدث من جراء اختلاط الجنسين(١) .

ومما أخذ على الأحمدية أيضا الضرب بالدف عند الذكر والتصفيق والأغانى مما يذهب روعة الذكر ، ويذكر الجبرتى : فى أنه حدث فى سنة ١١٨٣ هـ ١٧٦٩م أن مات سيدى على البيومى الأحمدى بعد أن أخذ طريق الأحمدية عن جماعة ، ثم حدث له جذب ، ومالت إليه القلوب ، وصار الناس فيه اعتقاد كبير . وبعد أن يتحدث الجبرتى عن أفعاله هو وجماعته واجتماعهم فى المشهد الحسينى كل يوم ثلاثاء فى صور غير كريمة يقول : قامت عليه العلماء ، وأنكروا كل مايحصل من التلوث فى الجامع من أقدام جماعته ، أن غالبهم كانوا يأتون حفاة يرفعون أصواتهم بالذكر وينقل عنه الجبرتى حديثاً غريباً لا يصدقه عقل ولادين .

---

(١) توفيق الطويل : التصوف فى مصر ص ٨١ الشعرانى ، العهود المحمدية ص ١٨٠ .

وخاتمة الحديث أن الجبرتى يتهم القائمين على سدانة الأضرحة بأنهم هم الذين شادوا بذكر السيد أحمد البدوى وغيره، ونسبوا إليهم هذه الكرامات معاذ الله ، بل هذه الخرافات لإثرائهم والتفاف الناس حول الأضرحة حتى لاينقطع مورد أرزاقهم .

هذا وقد وفينا المسألة حقها فى موضوع سبق بعنوان (الروحانية علوية أم سفلية) ومن ذلك ما رواه التاريخ الصحيح : أن الشيخ عبد القادر الجيلانى قال : تراءى لى مرة نور عظيم ملأ الأفق .

ثم بدت لى فيه صورة تناديني : ياعبد القادر ، أنا ربك وقد أسقطت عنك التكاليف ، فإن شئت فاعبدنى وإن شئت فاترك فقلت له : اخسأ يالعين، فإن ذلك النور قد صار ظلاما ، وتلك الصورة قد صارت دخانا ، ثم خاطبه اللعين ، فقال : يا عبد القادر نجوت منى بعلمك بأحكام ربك وفقهك فى أحوال منازلاتك، وقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقيل له : من أين عرفت أنه شيطان ؟ قال : بإحلاله لى ما حرمه الله على لسان رسوله .

مدعو النبوة

كثير من الناس بعد ما جاور الرسول ربه ادعوا النبوة ، ولكنهم لم يلبثوا إلا قليلا حتى افتضح أمرهم وظهر كذبهم منهم الأسود العنسى وقد كانت له شياطين يخبرونه ببعض الأمور التى تراها الجن ، ولا نراها نحن ، وهـــذا الغيب غيب نسبي أعنى يكون غيبياً عند البعض وشهوداً عند البعض الآخر مثل اكتشاف المرض عند الطبيب فإنه غيبي ، وشهود عنده ، أما الغيب المطلق فهو لله تعالى . ومن الذين ادعوا النبوة أيضا مسيلمة الكذاب ، والحارث الدمشقى الذى خرج من الشام زمن عبد الملك بن مروان فقد ادعى النبوة ، وكان الشياطين يخرجون رجليه من القيد ويمنعون السلاح أن ينفذ فيه ، وكان يدعى أنه يرى الملائكة فى الهواء ، وإنما كان يرى جناً ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه فقال له عبد الملك : إنك لم تسم الله فسمى الله فطعنه فقتله ، وهكذا أهل الأحوال الشيطانية .

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق : إماحى وإماميت سواء كان ذلك الحى مسلماأو نصرانيا أوكافرا فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ، ويقضى له بعض حاجات ذلك المستغيث ، فيظن أنه ذلك الشخص ، وإنما هو شيطان أصلى لما أشرك بالله تعالى ، كما كانت الشياطين تدخل فى الأصنام وتكلم المشركين ومنهم من يقول أنا الخضر ، وربما أخبره ببعض الأمور ، وأعانه على بعض أموره كما جرى لكثير من المسلمين واليهود والنصارى والمشركين فيأتى لهم الشيطان بعد موته على صورته وهم يعتقدون أنه ذلك الميت ويفعل أشياء

تتعلق بالميت ، وربما أحرقوا جثتهم بالنار حتى أن بعض حجاج بيت الله الحرام يخبر أنه رأى فلاناً فى الحجاز يحج مع أنه مقيم ببلده .

فلا يغتر مغرور بهذا كله وليعلم أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية سببها فعل مانهى الله عنه ورسوله . فالقول على الله بغير علم ، والشرك والظلم فلا تكون سببا للكرامة بل تكون بما يحبه الله ورسوله من صلاة وصوم ، وذكر وتلاوة قرآن بتدبر ، وبذل أموال فى طاعة الله وحج بيت الله الحرام وكل مافيه قربة إلى الله تعالى . وماعدا ذلك فإنها من أعمال الشياطين قال تعالى :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ »(1)

هذه أحوال من ادعى النبوة ، لابد أن تتلاشى نبوتهم لأن عدالة الله تعالى تأبى كل الإباء أن ينتصر الباطل على الحق مهما طال الأمد وامتدت فترة الابتلاء ومهما كثرت جنوده وأشياعه ، كما أن الحق دائما فى عزة وسعادة وأهل الباطل مهما استطالوا فى ذلة وشقاء والنصر يكون بالحجة والبرهان ، وإما بالقوة وصدق الله :

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ »(2)

---

(1) سورة الشعراء ٢٢١ - ٢٢٣

(2) سورة غافر ٥١

اختلاف الصحابة كان للدين

الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا أسمى أخلاقا، وأصدق إخلاصا لله، وترفعاً عن خسائس الدنيا، من أن يختلفوا لعرض الحياة الدنيا، ولكن كان في عصرهم من الأيدي الخبيثة التي عملت على إيجاد الخلاف وتوسعته مثل الأيدي التي جاءت فيما بعد، فصورت الوقائع بغير صورتها. فمن يطعن في الصحابة فإنما يطعن في الدين، وتشويه للأمانة التي حملوها وهو الكتاب الإلهي والسنة المحمدية. فعثمان رضي الله عنه، لو أراد أن يستنصر لفعل، إذ أن الذين كانوا معه عشرون ألفا ولكنه آثر التضحية بنفسه، لأنه أهون الشرين، وذلك لتضييق دائرة الفتن، وسفك دماء المسلمين. وعثمان افتدى دماء أمته بدمه، متبعاً سياسة الإسلام، وهو أن يختار المرء في كل حالة أقلها شرا، وأخفها ضررا فإذا كانت للخير قوة غالبة تقمع الشر، وتضيق دائرته، فالإسلام يهدف إلى قمع الشر بقوة الخير بلا تردد وإن لم يكن للخير قوة غالبة تقمع الشر، وتضيق دائرته كما كانت الحال في موقف أمير المؤمنين (عثمان) من البقاء فمصلحة الإسلام في مثل ما جنح إليه عثمان (أعلى الله مقامه في دار الخلد).

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوما، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله، فلا تخلعه، يقول ذلك ثلاث مرات، رواه ابن ماجه.

بين الإمام على ومعاوية

حينما التقى الجيشان خارج البصرة ، وخرج الزبير على فرسه ، فخرج إليه على ، فقال على للزبير لعمرى لقد أعددتما سلاحا ورجالا ، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً) .

ألم أكن أخاكما فى دينكما ، تحرمان دمى ، وأحرم دمكما ، فهل من حدث أحل ذلك ، فقال طلحة آليت على عثمان فلعن على قتلة عثمان ، ثم ذكر الزبير بأشياء : منها أنه قال له : أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غنم ، فنظر إلى فضحك وضحكت إليه ، فقلت له : ألا يدع ابن أبى طالب زهوه ، فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس بمزه ، لتقاتلنه وأنت له ظالم ، فرجع الزبير وهو آسف ويعزم على ألا يقاتل عليا وشعر أنه أخطأ فى اجتهاده ، وأصبح الرجوع للحق أولى ، لأنه يعمل لله ثم رجع الناس والجميع لا يشكون فى الصلح ، وباتوا بأهنأ ليلة ، وبات الدخلاء بأسوأ حال ، وانتهت المعركة بانتصار على لأنه لم يقصر فى قتل عثمان بل بعث الحسن والحسين وغيرهما للدفاع عنه ، أما المطالبة بالثأر فلم يستطع أن يقف على الجناة ثم طاف على القتلى (كرم الله وجهه) فلما أتى على طلحة قال لهفى عليك يا أبا محمد . إنا لله وإنا إليه راجعون لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى .

لو اختلط الغرب بالشرق لفسد العالم

قالها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يشهد الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد من أصحابه بالإلهام إلا لعمر فقال صلى الله عليه وسلم : «كان فيما قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى ففى عمر ، والمحدث : الملهم، بيد أن الإلهام تارة يصيب كبد الحقيقة ، وأخرى يخطئها من غير الأنبياء ، أما هم فهم معصومون عن الخطأ فى أمور الدين فقط وقد أصاب عمر فى هذه الحكمة ، فتحققت فراسته فى القرن العشرين .

جاء فى تفسير المنار ، جزء سابع صفحة ٣١٨ ما يأتى :

النوع الثانى ما يمنحه الله تعالى من التثبت إلى الحق والإلهام ، لمن دون الأنبياء ، من خيار خلقه الذين سلمت فطرتهم ، وصفت سريرتهم وزكت بالعمل الصالح نفوسهم ، حتى غلبت فيهم الصفات الملكية على النزعات الحيوانية ، فتستفيد من أرواح الملائكة قوة فى الخير والحق ، وثباتا على الصلاح والإصلاح ، قال تعالى :

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا »[1]

تستفيد منها علما بالحق ، وبشارة بالخير ، وهو ما يسمى التحدث والإلهام ومنه بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام وتمثل جبريل لها

(١) سورة الأنفال ١٢ .

عندما أراد الله أن تحمل بنفخة فيها وقد ثبت أن للإنسان قرينا من الجن وقرينا من الملائكة وهذا يسمى ملك الإلهام أو واعظ الله في قلب كل مؤمن.ثم إن الإلهامات نوعان : إلهامات إلهية ، وإنما تجيء له عبد من طريق العبادات والزهد والتقشف والاتصال بالله لامن طريق الانجذاب والشعوذة فإذا جاءت من غير هذا الطريق تكون من قبيل المصادفة وتكون إلهامات شيطانية ، وقال أبو سليمان الداراني : تبدو لى النكتة النكتتان فى قلبي فأستدل عليها بشاهدى عدل : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. يريد أن الإلهام إذا كان موافقا لكتاب الله وسنة رسوله فهو من الله وإلا كان من الشيطان .

عود إلى بدء حقاً إن خروج النساء عن نطاق الفضيلة وتبرجها الفاضح إنما كان من تقليد المرأة الغربية فمثلا من أين عرفت المرأة المصرة الميني جيب والميكو جيب وغيرهما أليس ذلك إلا من التقليد الأعمى وإن الإسلام ما حظر عليها التبرج والاختلاط إلا صيانة لشرفها وحفظا لعرضها ، وإبقاء على عفافها الذى هو رأس مالها ، إذا فقدته فقدت أعظم أمنيتها ، وأى شخص يرتاب فى أنها تكون هدفاً للأنظار الساخرة وأقاويل السوء .

يقول الدكتور صلاح قطب : إن ظاهرة ارتداء الميني جيب لا تتفق مع تقاليدنا وعاداتنا ، وبالأخص فى دور العلم ، ولابد من محاربة هذه الموضات المستوردة ، من طريق الارتفاع بالوعى والتوجيه ، وأن تقوم الأسرة بدورها فى تربية وتنشئة بناتها على ارتداء الأزياء التى تتفق مع تقاليدنا الدينية والاجتماعية .

ويقول الأستاذ زكى علاج مدير أمن القاهرة : إنها ليست موضة إنها تقليد أعمى واستهتار بالقيم ، وانحدار بالأخلاق والفضيلة .

وسئل مدير الأمن : هل القانون يبيح التعرض للحريات الشخصية إذا اعتبرنا ارتداء الميكروجيب حرية كما يطالب التعرض ؟

ويرد مدير الأمن ، قائلا : إرتداء الميكروجيب فى نظر الدين وتقاليدنا الشرقية من الأعمال الخارجة والتى يجب أن تمنع أصلا من طريق الأسرة .

وأرى أن تسن عقوبة لمن لايستجب إلى ذلك ، وأن ينضم إليهم رجال الدين ، وبذلك يمحى أثرها ويقضى عليها قضاء لاقيامة بعده . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس ، العلماء والأمراء لأبى نعيم فى الحلية .

ويقول المقدم مصطفى يسرى الزرقانى رئيس الشئون العامة بالمديرية والذى أدى الفريضة أى فريضة الحج عدة مرات : هذه الموضة دخيلة على بلادنا ، وهى وباء ورذيلة صدرت إلينا مع بعض العادات الأخرى ، التى لا تتلاءم مع مجتمع دين الإسلام ، والذى يحرم ظهور عورات النساء مهما كانت بسيطة فما بالك بالأجساد الشبه عارية التى تثير فى نفوس الشباب القلق ، مما يؤدى إلى القول والإثارة ، وقد يتسبب عن ذلك فوضى فى الطريق العام قد تؤدى إلى شرخ فى جدار الأمن العام وهنا واجب الشرطة يكون حتما فى التدخل ، لحماية الفتاة والجمهور . وفى حمايتهم حفظا للأمن العام .

ويقول الطالب أسامة محمد إسماعيل بكلية الزراعة : إن موضة الميني جيب التى أصبحت منتشرة بين طالبات الجامعة تقليد أعمى ، أحب أن نلفت الأنظار إليها . والحل الوحيد لكرنفال الأزياء الذى نراه هو الإسراع بتنفيذ مشروع توحيد الزى .

المؤلف . هذه آراء عباقرة مصلحين ، جمعوا بين العلم والدين ، ولعلها تكون درساً قاسيا ، لمن يتشدقون بالحرية : كلمة جوفاء يلقونها من غير وعى وتفكير . هذا وقد دلت الحوادث ، وشهدت التجارب أن عجائب الصناعات وبدائع الاختراعات التى غص بها فراغ الدنيا لم يكن للمرأة فيها أدنى أثر فكيف تسوى بالرجل ؟

سر النجاح فى الدنيا والآخرة

نجاح المرء فى الحياتين يتوقف على أوصاف أربعة وهى :

١ - الإيمان الصحيح الذى يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وتظهر آثاره على الجوارح ، ولا يبتغى صاحبه إلا الخير .

٢ - الأعمال الصالحة التى فيها دنيا ودين للشخص وللناس أجمعين ، وليس فيها ضرر ولا تأثيم لا على الفرد ولا على المجتمع .

٣ - التواصى بالحق ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولذلك كانا مقصدين من مقاصد الدين .

٤ - وكذلك التواصى بالصبر .

فمن جمعوا هذه الصفات ربحوا ربحا عظيما يفيدهم أحياء وأمواتاً .

فأولى هذه الصفات الإيمان بالله وبما جاءت به أنبياء الله إيمانا يستلزم العمل عند القدرة عليه وانتفاء المانع ، ومعروف أن الإيمان عقيدة وعمل ، فإذا تجرد الإيمان عن العمل فلا ينفعه إيمانه وكان كشجر بلا ثمر ، والإيمان شعب فعلى قدر تمسك المرء بالشعب يكون الإيمان وكلما نقصت شعبة من الشعب يكون النقص فى الإيمان ، وفى هذا جاء الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » . رواه البخارى

الصفة الثانية : الأعمال الصالحة وهى كل ما ينفع الإنسان فى دينه ودنياه

فالسعي في طلب العيش ليعول نفسه وأسرته عمل صالح ، والاهتمام بأمر المسلمين عمل صالح ، والصلح بين المتخاصمين عمل صالح وهكذا ، وكل ماشرعه الله من العبادات والمعاملات عمل صالح .

الصفة الثالثة : التواصي بالحق ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا ينفعه ذلك إلا إذا كان عاملا بما يأمر تاركا مانهى عنه ، والمنكر : هو كل ما ينهى الله عنه ويستقبحه العقل وهو مراتب يكون باليد ، فإذا لم يمكن يكون باللسان ، وإذا لم يمكن يكون بالقلب ، ومعنى هذا أنه لايرضى به ولا يعاشر صاحبه ولا يعامله ، ويظهر سخطه عليه ، فان بني إسرائيل لما عصوا الله تعالى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، ولكن واكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ولم ينج منهم إلا الذين نهوا .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانوا ثلاثة : ثلثا نهوا ، وثلثا قالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم ، وثلثا أصحاب الخطيئة فما نجا من هؤلاء إلا الذين نهوا وهلك سائرهم . إسناده جيد . ينتظم ذلك في قول الله تعالى :

« وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » (1)

(1) سورة الأعراف ١٦٤ - ١٦٦

الصفة الرابعة : التواصى بالصبر : ومعنى هذا أن يوصى الإنسان الذى نزلت به نازلة بالصبر احتمال الآلام والمشقة فى العمل الطيب ، ويبين له أن عاقبة الصبر ظفر ونجاح ، وحسبى فى ذلك قول الله تعالى :

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »[1]

ولفضل الصبر ذكر فى القرآن الكريم سبعون مرة

ورحم الله القائل :

ألا بالصبر تبلغ ما تريد وبالتقوى يلين لك الحديد

---

(١) سورة الزمر ١٠

الرحمـــة

من صفات الله تعالى أنه الرحيم. ووصف القرآن الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك بأوصاف منها أنه رحيم قال تعالى:

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »(١)

وقد تجلت رحمة الله فى خلقه، إذ لم يعذب عباده فى الدنيا بما كسبوا وجعل الذنوب مكفرات التوبة، وفعل الخيرات، والمصائب كذلك مكفرات.

كذلك تجلت رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى مواطن كثيرة منها: معاملته للحيوان، فقد نهى صلى الله عليه وسلم أن يتخذ كل ذى روح غرضا ففى البخارى ومسلم، عن ابن عمر، أنه مر بفتيان من قريش، قد نصبوا طيرا، وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً: أى هدفاً يرمى إليه. أين هذا مما تقره التشريعات الوضعية فى بعض الدول فى القرن العشرين، من التحريش بين بعض الحيوانات والطيور، حتى تسقط صريعة الجراح والآلام، ومن اتخاذ بعض الطيور غرضا يرمى، ولا غرض

(١) سورة التوبة ٢٨

لهم فى هذا إلا التلهى والتسلية ، وإذا كان فى القوانين الوضعية الحديثة بعض رعاية الجوانب الإنسانية ، فهذا أمر لم يعرف إلا بعد أن تأثرت فيما تأثرت به بالشريعة الإسلامية .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته) رواه مسلم فى صحيحه .

وفى الصحيحين مرفوعاً : (عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض) .

وفى صحيح البخارى مرفوعاً : (بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فشرب منها ، ثم خرج ، فاذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال رجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى فنزل البئر فملأ خفة ، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له) وفى رواية : فأدخله الجنة .

قالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم لأجراً ؟ قال : فى كل ذات كبد رطبة أجر .

مقومات الإنسان

مقومات الإنسان غرائز ، لابد منها فى بقائه ، وتحقيق شخصيته ، غير أن تلك الغرائز لها حدود لاتتعداها ، فإذا خرجت عن حدودها كانت شرا على الفرد والمجتمع ، وما بعث الله رسله ، وأنزل كتبه إلا لتنظيم هذه الغرائز من هذه الغرائز : الغريزة الجنسية ، وهى أقوى الغرائز ، وأعنفها ، وهى تلح على صاحبها دائما فى إيجاد مجال لها ، فإ لم يكن ثمة مايشبعها انتاب الإنسان الكثير من القلق والاضطراب ، ونزعت به إلى شر منزع .

والزواج هو أحسن وضع طبيعى ، وأنسب مجال حيوى ، لإرواء هذه الغريزة ،وإشباعها ، فيهدأ البدن من الاضطراب ، وتسكن النفس عن الصراع ، ويكف النظر عن التطلع إلى الحرام ، وتطمئن العاطفة إلى ما أحل الله وقد روى مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم من امرأة مايعجبه فليأت أهله فإن ذلك يرد مافى نفسه . وفى رواية أخرى : (فإن البضع واحد وعليها ماعليها) .

ومن الغرائز أيضا الغريزة العصبية ، التى تدفع الإنسان إلى الدفاع عن نفسه ، ويتقى بها شر أعدائه وقد نظمها الشرع ، فلا تستعمل إلا فى الذود عن الحق ودرء الباطل وانتهاك حرمة الله ، ونهى الشرع عنها إنما كان عن الأخذ فى أسبابها ، وكذلك كظم الغيظ والعفو ، ومقابلة السيئة بالحسنة .

ومن الغرائز أيضا غريزة حب البقاء ، فيكد ويجد فى طلب العيش ،

ولا يستحل مال الغير ، ولا يأكل من طعام ليس له فيه حق ، وحب الاستطلاع كذلك غريزة ، ولكن حددها الشرع بحيث لا تصل إلى درجة التجسس بالجيم ، ولا التحسس بالحاء ، الأول البحث عن عورات الناس من طريق الأخبار ، والثانى من طريق العين والنظر .

ومن رعاية الله تعالى بالإنسان أن جعل الخير أحب إليه من الشر ، وأوامره سبحانه كلها فضائل وخير ، ونواهيه كلها نهى عن الشرور ، فالمعاصى ماهى إلا لذائذ شخصية وقتية ومن ورائها الهلاك ، فعل السم فى العسل ، تارة يقتل ساعته إذا كان كثيرا وتارة يقتل بالتدريج إذا كان قليلا ومن الأسف أن الإنسان الذى فضله الله على سائر خلقه وأكرمه بالعقل تارة يتناول ما يضره ولا ينفعه وهو على يقين بالضرر ، كتناول المكيفات التى فيها ضياع الأموال ، وإفساد الصحة ، وخراب البيوت ، وإهدار الكرامة فكم من بيوت كانت آهلة بأهلها ، عامرة بسكانها أصبحت خراباً يباباً وكم من شاب كانت تتدفق الصحة من جوانبه ، وتملو وجهه النضارة ، أصبح فى حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد وليس لهذا من سبب سوى تناول المخدرات وشرب المسكرات .

ومن العجب العجاب أننا نرى الحيوان البهيم لا يمكن أن يقترب مما يضره إلا إذا كان مخدوعا فيه ، فأنت ترى من هذا أن الإنسان تارة ينزل من إنسانيته إلى أسفل من الحيوان وصدق الله :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »[1]

---

(١) سورة التين ٨

اقتراح

طلعت علينا جمهورية يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٦٨ فى صفحة (الباب المفتوح) كلمة الحق للأستاذ صاحب التوقيع ، بعنوان (إلى الوزراء ـ اقتراح) وهذا نصها :

قد يبدو من السذاجة الآن ـ أن أناقش موضوع (المينى جيب) بعد المناقشة الطويلة ، والعنيفة التى دارت حوله ومع هذا وأيضا مع جهلى بالقانون ، فأنا أعلم أن هناك قوانين تعاقب على الفعل الفاضح فى الطريق العام ، وفى النيابات ملفات تتضمن أحكام ضد سيدات وفتيات ، بتهمة التحريض ، والتعرض وأعتقد أن الفتاة ، أو السيدة التى تعرض نفسها فى الطريق لاتقل خدشاً للحياء عن السيدة أو الفتاة التى تبيع الهوى ، وإنما ينظر إلى ماتفعله على أنه عصرى ، ومودرن حضارى .

ويا أيتها الحضارة كم من المهازل والفضائح ترتكب باسمك ، أقترح اقتراحا بسيطا جدا . وهو أن يطبق القانون دون حاجة إلى قوانين جديدة .

السيد عبد الرؤف

المؤلف : لله در هذا الكاتب النبيل ، وجزاه خيرا بقدر ما أسدى للأمة من قول سديد ، ونصح جميل ! !

يطلب الأستاذ إلى القائمين على تنفيذ قوانين الآداب ألا يختص بفريق دون فريق ، فإن هذا ظلم فادح وترجيح بلا مرجح ، فلماذا لم تطبق العقوبات

على الجنسين ، والقانون يدين المرأة التى تكشف عن ذراعيها وساقيها ، فها نحن أولاء نرى الشوارع غاصة بنساء قد انفرط فيها عقد الحياة ، وتمردن على القوانين والآداب ولم نسمع عن واحدة منهن أن بوليس الآداب اقتادها إلى التحقيق معها ، فى حين أنه لا يخلو وقت من الأوقات إلا وعشرات الشبان يساقون إلى تطبيق العقوبات .

فهلا طرق سمع هؤلاء كلمة المرحوم (مصطفى صادق الرافعى) التى دوت فى الآفاق فطبقوها على النساء اللاتى يخرجن عن نطاق الفضيلة حتى يقضى على هذه الفوضى النسائية التى شوهت سمعة بلادنا وخدشت كرامتنا . قال رحمه الله وبرد ثراه ، وخلد ذكراه : لو جىء لى بفتى يعاكس فتاة لنظرت إلى الفتاة فلو وجدتها متزينة متعطرة ، ومصقولة لحكمت عليها بعقوبتين : الأولى لأنها خدشت عفة الفتى ، والثانية لأنها كشفت لحمها للهر .

تحضير الأرواح

إن من يزاولون هذه المهنة يتخذون أعوانا من الإنس والجن ، وهؤلاء الأعوان يندسون بين الزوار باعتبار أنهم زائرون ويلتقطون أخبارهم ويوصلونها إلى من يدعى معرفة الغيب حتى إذا مادخلوا عليه أخبروه بما عرفوا من أتباعه السالف ذكرهم .

ومن هؤلاء من يستخدم قرينا من الجن يتصلون بقرين الإنسان فيعرفون منه كل شيء ويهمسون بما عرفوه من القرين فى أذن الدجال فتجده يناديك باسمك واسم أمك واسم أبيك ويحدثك بأخبارك وأحوالك وماضيك ، لكنه لايستطيع أن يحدثك بما يخبئه لك القدر لأن الغيب لله وحده فإذا ماأخبر عن شيء فى المستقبل وحدث يكون بالصدفة لاعن علم ومعروف أن لكل إنسان قرينا من الجن يلازمه من وقت ولادته حتى يوم وفاته ، فإذا مات الإنسان بقى قرينه سابحا فى الفضاء شأنه شان الأرواح فإذا ماعقدت جلسة استحضار الأرواح ، وتادى محضروها روح أحد المتوفين هنا يحضر قرينه الذى كان يلازمه فى حياته ، وحين يسأل عن اسمه يجيب أنه فلان على اسم المتوفى لأنه لايعرف له اسما غيره ، ويجيب على كل سؤال يوجه إليه موهما الحاضرين أنه روح المتوفى المطلوب فيكون صادقا فى كلامه من حيث أنه لايعرف له اسما غير اسم المتوفى ، وكاذبا لأنه ليس هو روحه ، ونظرا لأنه كان يلازم المتوفى أثناء حياته جاز عقلا أن يجيب على كل سؤال يلقى إليه خصوصا إذا كان السؤال خاصا بتركة المتوفى أو أشياء يجهلها السائل عنه ومن هذا نعلم أن الجن تارة يكذب والقرين كذلك لأن الجن كالإنس منهم الصادق

والكاذب وأما استحضار أرواح الأموات بعد انتقالها من دار الدنيا تكون رهينة أعمالها انتظارا ليوم الحساب والجزاء لاتلبي غير نداء ربها ولا تملك نفعا ولا تدفع ضرا .

هذا وقد سبق أن كتبت فى حقيقة الموت بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياتين حياة برزخية روحية بعد الموت وحياة أخرى روحية ومادية بعد البعث .

كذلك يوجد فى بعض الناس خاصة روحية يدرك بها أشياء خفية فمنذ ثلاثين سنة أو أكثر ظهر ولد يقرب من البلوغ وهو لا يتجاوز ١٣ سنة كان ينطق بعملية حسابية على البداهة من غير أن يمسك قلما وكان يمكث فيها الحاسبون بأقلامهم ساعات من الزمن ، وكان هذا الولد عبيطا ومات .

المؤلف

كم كنت أود أن أبين لقراء مؤلفى هذا ما يجرى الآن فى المعاملات المصرفية . ولله الحمد والمنة قد سبقنى فى هذا البحث الدكتور (محمد عبد الله العربى) عميد معهد الدراسات الإسلامية فاكتفيت بما كتبه بعد ما أقره المؤتمر الثانى للبحوث الإسلامية وهو بالنص ما يأتى :

رأى الإسلام فى المعاملات المصرفية

كلمة مبدئية عن الربا فى القروض الإنتاجية

قبل أن نتحدث عن المعاملات المصرفية ، وأكثرها يصطبغ بالصبغة الربوية ، يجب أن نحسم الخلاف القائم فى هذا العصر ، بين الربا فى القروض الاستهلاكية و « الفائدة » فى القروض الإنتاجية .

قال بعض المعاصرين — هنا وفى بلاد إسلامية أخرى — إن الربا الذى حرمه الإسلام هو ما اتصل بقروض استهلاكية ، يقترضها ذوو الحاجة الملحة ويؤدون عنها رأس مالها ثم الربا المضاف إليها ، أما القروض الإنتاجية التى يقترضها الموسرون ويوظفونها فى مشروعات إنتاجية تدر عليهم ربحاً وفيراً فإن الفائدة التى يؤدونها عن رأس المال الذى اقترضوه ليست بالربا المحرم .

ونرد عليهم بأن تسمية الربا بالفائدة لا يغير طبيعته ، فالفائدة ليست إلا زيادة فى رأس المال المقرض ، وكل زيادة عنه هى ربا لغة وشرعاً .

وأكبر حجة ساقوها على هذا الرأى هو أن الربا الذى حرمه القرآن هو ما كان سائداً فى الجاهلية قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن العصر الجاهلى لم يكن أهله على علم بالقروض الإنتاجية وأثرها فى النشاط الاقتصادى الحديث .

ونسوا أن القرآن خاتم الهدايات الإلهية لم يكن ليشرع لعصر معين

بل تشريعه يمتد إلى أبد الدهر ، ولم يكن ليغيب عن علم الله سبحانه وتعالى، ماسوف يتمخض عنه اقتصاد هذا العصر — أو أى عصر — من اعتماد على القروض الإنتاجية ، والزعم بضرورة ترتيب فائدة عليها حتى لا تنقطع . ونسوا قوله تعالى :

« وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ »[1]

بغير تمييز بين ما إذا كانت رؤوس الأموال هذه التى استخدمها مقترضوها قد استخدموها فى أغراض إنتاجية أو استهلاكية ، ونسوا كذلك الحديث الذى يقرر أن « كل قرض جر نفعا فهو ربا » فلم يميز الرسول بين ما إذا كان القرض الذى عاد بزيادة على المقرض قد فرج كربة المقترض أو وظفه فى تمويل مشروع إنتاجى ، ولو شاء سبحانه هذا التبيين أو علم أن فيه خيراً للناس لما ترك النص عليه . . .

وسنبين لهم - من واقع تجارب هذا العصر وشهادة كثير من علماء الاقتصاد فى هذا العصر بالذات أن الربا فى هذه القروض الإنتاجية قد تسبب فى أضرار فادحة فى الاقتصاد العالمى المعاصر ولكننا نريد فى البداية أن نمحص الحجة التى يتوكئون عليها ، وهى أن العصر الجاهلى لم يكن يعرف ما نشأ فى العصور الحديثة من القروض الإنتاجية .

حسب الباحث أن يتأمل فى الظروف المادية التى أحاطت بالاقتصاد

---

(١) سورة البقرة ٢٧٩

الجاهلى وبالبيئة الجاهلية ـ بيئة مكة وما حولها من قرى الحجاز ـ ليوقن أن القروض الإنتاجية كانت ضرورة حيوية من ضرورات اقتصادهم . فمكة ـ مهد الإسلام ـ وما حولها من القرى كانت ترتبط معا بروابط اقتصادية وتجارية ، تجعل القرض الإنتاجى لازمة من لوازم حياتهم .

وينبئنا التاريخ بأن ـ مقر قبيلة ثقيف ـ وهى قرية تبعد إلى الجنوب الشرقى من مكة بنحو خمسة وسبعين ميلا ، كانت تمتاز بأرض خصبة فى الوديان المحيطة بها وكانت لذلك تصدر إلى مكة وقرى الحجاز الأخرى حاصلاتها من الزبيب والقمح والأخشاب وغيرها ، وكانت تستورد من مكة السلع التى تأتى بها قريش فى كل من رحلة الصيف إلى الشام ، ورحلة الشتاء إلى اليمن وجنوب الجزيرة ، وهذا التبادل التجارى كان يتم أكثره عن طريق القروض الربوية لاسيما أن جالية كبيرة يهودية كانت تقيم بالطائف ، هاجرت إليها بعد طردها من اليمن ولم تكن لها صناعة إلا الإقراض بالربا لهذا النشاط التجارى لأهل الطائف وما حولها .

أما مكة فكانت فى أرض جدباء لازراعة فيها ولا غابات ولا معادن ، ولذلك كانت لا تعتمد فى رزقها إلا على التجارة حتى أصبحت أعظم مركز تجارى فى الجزيرة العربية . يقول المؤرخون : إنها كانت المحطة الوسطى بين مأرب وغزة فى طريق القوافل الرئيسى بين متاجر الشرق ومتاجر الغرب . وقالوا : إن مكة صارت على هذا النحو أشبه بجمهورية تجارية يعيش اقتصادياً على الرحلتين ، وكان يزيد فى مكانتها التجارية ، أن قريشا كانوا سدنة الكعبة والبيت الحرام ، وكانوا لذلك موضع الرعاية والتكريم فى حلهم وترحالهم .

وكان للتجارة بصفة عامة احترام كبير فى نفوس قريش ويتجلى ذلك على الأخص فى أن المهاجرين من قريش إلى يثرب ، بالرغم من كل ماقدم لهم الأنصار من مشاركة فى أرزاقهم تغنيهم عن الكد والسعى آثر أكثرهم أن يبدأوا فى الحال بممارسة التجارة . قال أبو هريرة : « إن إخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق فى الأسواق » أى الخروج إلى التجارة .

وهكذا يروى التاريخ كيف كانت مكة مركز نشاط تجارى عظيم ، ومحط القوافل فى غدوها ورواحها، يترقبها أهل مكة رجالا ونساء وأكثرهم قد وظف بعض ماله فى السلع التى تحملها هذه القوافل . كما يروى التاريخ أن قافلة أبى سفيان التى أدى خوف الاستيلاء عليها إلى غزوة بدر كانت قريش كلها مساهمة فى تمويلها ، والتمويل يحتاج إلى رأس مال ، فإذا لم يكن رأس المال متوافرا لدى بعضهم لجأ هذا البعض إلى الاقتراض بربا يتعهد بأدائه إلى المقرض اعتماداً على أن الربح الذى سوف يجنيه من توظيف المال المقترض فى التجارة سوف يدر عليه أكثر من الربا المفروض عليه أى أن هؤلاء كانوا يقومون بالدور الذى يسمى الآن دور «الشريك القائم» يعطى مااقترضه من المال إلى القائمين فعلا بالاتجار . لشراء السلع فى إحدى الرحلتين ثم بيعها فى الرحلة الأخرى ، ثم يدفع فى النهاية من النصيب الذى خصه رأس المال الذى اقترضه ، بالإضافة إلى مبلغ الربا المتفق عليه .

لذلك عجبت قريش عندما جاء الإسلام يحرم الربا ، وقالوا :

« إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا »(١)

---

(١) سورة البقرة ٢٧٥

هو تأجير لرأس المال والربا الذى يستحقه المقرض هو أجرة رأس المال فكان الربا على هذا النحو جزءاً لايتجزأ من حياتهم الاقتصادية ، وكان أصحاب المال فى مكة لايقتصرون على إقراض مواطنيهم فى مكة بل يمتد إقراضهم إلى أهل القرى الأخرى فى الحجاز ، فكانوا يساهمون بصفة أصلية فى تمويل القوافل وفى الوقت ذاته يقرضون غيرهم ليشاركهم فى تمويلها فقد ثبت أن عباس بن عبدالمطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم وخالد بن الوليد وغيرهما كان إقراضهم يتجاوز حدود مكة إلى أهل الطائف وثبت أن عثمان بن عفان كان من أغنياء التجار الذين يمولون التجارة بالربا على نطاق واسع .

وهكذا يتبين بما لاشك فيه أن عرب الجاهلية كانوا يتعاملون بالربا فى حالتين :

(الحالة الأولى) عند تقديم قرضين لأجل معين بربا يزيد عن رأس مال القرض ، وكانت هذه الزيادة تحدد بما يتفق عليه الطرفان ، فطورا كان المقترض يدفع هذه الزيادة على أقساط شهرية وطورا كان يدفعها جملة واحدة عند حلول أجل القرض ـ فإذا عجز المقترض عن السداد أعطى أجلا آخر بعد مضاعفة قيمة القرض ، وفى حالة تقسيم الزيادة على أقساط شهرية كانت تضاعف هذه الأقساط مقابل تأجيل سدادها .

(الحالة الثانية) حالة البيع: أى يبيع البائع السلعة بثمن مؤجل فإذا حل الأجل أو عجز المشترى عن أداء الثمن زيد الثمن وامتد الأجل . كما ثبت أن البيع مع تأجيل الثمن لم يكن فقط لعجز المشترى عن تعجيل الثمن بل كان لإمهاله حتى

يبيع السلع التي اشتراها . وكانت الشركة المسماة « شركة الوجوه » شائعة في الجاهلية ، وهي أن شخصين أو ثلاثة يعقدون عقد شركة فيما بينهم بغير تقديم أي مال من أحدهم ، وكانوا إعتماداً على الثقة بهم يشترون مع تأجيل الثمن فإذا باعوا سلعهم المشتراة اقتسموا الربح بعد تسديد الثمن . وفي بيئة كالبيئة الجاهلية كان شراؤهم بغير تعجيل الثمن يقترن دائماً بفائدة ربوية للبائعين مقابل الأجل .

فلما جاء الإسلام أحدث ثورة في أساس حياتهم الاقتصادية .

كان أساس القرض الإنتاجي في العصر الجاهلي ألا يقترن الإقراض بأي مخاطرة من جانب رب المال فهو يقدم مال القرض ويقرض عليه الفائدة الربوية ثم يسترد رأس المال ورباه ، سواء ربح المشروع أو خسر . جاء الإسلام فحرم الربا مهما كان هدف القرض ووجه بذلك ضربة قاضية إلى النظام الاقتصادي القائم ، إن أهمية :

« وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا »(١)

لم تقتصر على إحلال البيع وتحريم الربا بل قلبت التفكير الاقتصادي عن دور رأس المال ودور التجارة رأساً على عقب . جاء الإسلام فشجع التجارة وبالتالي شجع عملية الإقراض ولكن بغير زيادة على رأس المال .

عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن السلف — أي القرض

---

(١) سورة البقرة ٢٧٥

يجرى مجرى شطر الصدقة ، وجاء فى السنن لابن ماجه أنه قال : « مامن مسلم يقرض قرضاً مرتين إلا كان كصدقة مرة » ، وعن ابن مسعود أنه قال : « كل قرض صدقة » .

وهكذا استمرت بعد الإسلام القروض بنوعيها - استهلاكية وإنتاجية يقدمها أرباب المال بغير ربا ، بدافع الإخاء الإسلامى ، والتعاون الاسلامى ، ومايرتجيه رب المال من ثواب على هذا الصنيع ، بل ثبت أن بيت المال كان يخرج بغير ربا قروضا لمشروعات إنتاجية .

روى الطبرى « أن هند ابنة عتبة قامت إلى عمر بن الخطاب فاستقرضته من بيت المال أربعة آلاف درهم تتجر فيها وتضمنها ، فأقرضها ، فخرجت فيها إلى بلاد كاب فاشترت وباعت فلما أتت المدينة شكت الوضيعة - أى الخسارة - فقال لها عمر : « لو كان مالى لتركته ولكنه مال المسلمين » كما أن شركة الوجوه التى أجازها الإسلام - محررة من الربا الجاهلى - تدل على شيوع القروض الانتاجية بغير فائدة ربوية يرتجيها رب المال .

وصورة هذه الشركة - كما جاء فى كتاب المعاملات الشرعية المالية للمرحوم الأستاذ أحمد إبرهيم وكيل كلية الحقوق «أن يتفق جماعة ، اثنان فأكثر من وجوه التجار الموثوق بهم ، على أن يشتروا سلع التجار نسيئة ، ويقوموا ببيعها على أن يكون الربح شركة بينهم ، وإذا شرط التساوى فى المال كانت شركة مفاوضة وإن شرط التفاوت كانت عنانا ، وسبب استحقاق الشركاء الربح فى شركة الوجوه هو الضمان ويكون ضمان ثمن المال المشترى على نسبة حصص الشركاء فيه وعلى هذا تكون حصة كل واحد

منهم بقدر حصته فى المال المشترى ، وإذا شرط لأحدهم زيادة على حصته فى المال المشترى كان الشرط لغوا ، ويقسم الربح عليهم على مقدار حصصهم من المال المشترى وإذا خسرت الشركة قسمت الخسارة أيضا على مقدار الحصص على النحو الذى يقسم به الربح ».

فإجازة شركة الوجوه وتنظيم الشريعة الاسلامية لها ، يدل على تأصل القروض الانتاجية وإن كان الاسلام حررها من الربا ، لأن رأس مال الشركة هو المال أو السلع التى قدمها رب المال إلى الشركاء وانتظر تصريفها حتى يردوا إليه قيمتها بغير زيادة عليها .

ومن جهة أخرى شجع الاسلام التجارة والانتاج عن طريق شركة المضاربة .

ومعنى المضاربة فى اللغة اتجار الانسان بمال غيره. وتسمى أيضاً القراض وصورتها ـ كما جاء فى كتاب المعاملات الشرعية المالية السابق الاشارة إليه أن يكون رأس المال من شخص ، والعمل من شخص آخر ، ويقال للأول صاحب رأس المال ورب رأس المال ، ويقال الثانى مضارب ، وهى من العقود الدائرة بين النفع والضرر كسائر أنواع الشركة وهى تنقسم إلى قسمين: مطلقة ومقيدة . فالمضاربة المطلقة هى التى لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا نوع تجارة ولا تعيين من يعامله المضارب ، ولا بأى قيد كان . والمضاربة المقيدة هى ما قيدت ببعض ذلك أوكله .. ولا بد أن يسلم رب المال مال المضاربة إلى العامل حتى يتمكن من التصرف ولو عمل رب رأس المال مع المضارب فسدت المضاربة لأن ذلك مخل بالتسليم ، ويشترط أن يكون رأس المال معلوما

وذلك منعا للمنازعة ومعلومية تكون إما ببيان قدره ووصفه ونوعه وإما بالإشارة إليه .

ويشترط أن تكون حصة كل من العاقدين جزءاً شائعاً من الربح كالنصف أو الثلث أو الربع لأحدهما والباقى الآخر . فإن كان الشرط لأحدهما مقدارا معينا فسدت المضاربة لاحتمال أن الربح لا يأتى زائداً على ذلك المقدار المعين فتنقطع بذلك الشركة فيه فيفوت الغرض من المضاربة . والقاعدة هى أن كل شرط يوجب قطع الشركة فى الربح أو يوجب الجهالة فيه ، فإنه يفسد المضاربة ولا يصيب للمضارب إلا من الربح فقط ، فلو شرط له شىء من رأس المال أو منه ومن الربح فسدت المضاربة واشتراط الخسارة على المضارب باطل وذلك لأن الخسران هو هلاك جزء من رأس المال فلا يجوز أن يلزم به غير مالك المال . والمضارب أمين على رأس المال فهو فى يده كالوديعة ثم هو من وجهة تصرفه فيه وكيل عن رب المال ، وإن ربحت المضاربة كان شريكا لرب المال فى الربح . وسبب استحقاق المضارب لحصته من الربح فى المضاربة الصحيحة هو عمله فيعطى الربح فى مقابل ما بذله من السعى والعمل ، ورب المال يستحق نصيبه من الربح بسبب ماله .

ونكتفى هنا بهذا القدر من أحكام المضاربة ، على أن نعود إلى تفصيل فيها عند الكلام على المعاملات المصرفية المعاصرة ، لأننا نرى فى هذا العقد بديلا مشروعاً عن بعض المعاملات المصرفية الربوية ونحسب أنه بعد هذا البيان لم يبق محل للجدل فى أن الربا الذى حرمه الإسلام يشمل القروض الإنتاجية

والقروض الاستهلاكية على السواء ، وأن القروض الإنتاجية كانت شائعة فى العصر الجاهلى فجاء الإسلام يحرم الربا عليها كما حرمه على القروض الاستهلاكية .

وقبل أن نختم هذه الكلمة الموجزة عن الربا يجب أن نكشف عن العلة فى تحريمه كشفا نهتدى فيه بعقلنا البشرى . أما التحريم فى ذاته فهو قائم لأنه أمر الله - الله الذى لا يريد لعباده إلا الخير - وقد تقصر عقولنا البشرية عن إدراك مدى حكمته .

أما الربا على القرض الاستهلاكى فحكمة تحريمه ظاهرة لا تحتاج إلى بيان فهو يتنافى مع الأخلاق الإسلامية وهو يهدم جميع الخصائص التى جعلها الله من مقومات المجتمع الإسلامى ، أما الربا على القرض الإنتاجى فلعل حكمة تحريمه لم تظهر على أوضح وجه كما ظهرت منذ أجازت التشريعات الأوربية قرض « الفائدة » على القروض ونكتفى هنا بما أثبتته المشاهدات الواقعية لآثار هذا الربا فى عصرنا مرجئين التدليل عليها إلى سياق البحث .

فمن جهة المرابى : ترتب على تحليل الربا على القرض الإنتاجى فى القرون الثلاثة الأخيرة - كما سنوضح تفصيلا فيما بعد - أن نشأت البنوك الحديثة ، فتركز فى أيدى أصحابها الجانب الأكبر من المال المتداول فى المجتمع حتى صارت لهم السيطرة الكبرى على اقتصاديات المجتمع ثم امتدت هذه السيطرة إلى سياسة المجتمع الداخلية والخارجية ، وإلى تشريعات المجتمع بل وإلى أخلاقيات وأسلوب تفكيره بما أحرزوه من سيطرة على وسائل الإعلام ، ودأبوا على توجيه كل هذه القوى فى الاتجاه الذى يكفل لهم المزيد من القوة

المالية ، ويدعم المكانة الرفيعة التى اغتصبوها ، وإن ضحوا فى سبيل ذلك بالمصالح الحقيقية للشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها .

ثم يجب ألا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن المال الذى آتى أصحاب البنوك هذه القوة وهذه السيطرة لم يكن فى البداية مالهم الخاص بل أكثره مال المودعين الذى أودعوه فى خزائنهم لآجال معينة يحصلون فى مقابلها على فائدة صغيرة ، ثم يقرض أصحاب البنوك أصحاب المشروعات الإنتاجية بفائدة أكبر ويستحلون هذا الفرق الكبير بين الفائدتين وشيئا فشيئا تركز أكثر المال السائل فى المجتمع فى حوزتهم ، وهكذا دانت لهم السيطرة المالية بغير أى كد أو جهد بذلوه . بل كانت عملية امتصاص دماء المجتمع وهم رابضون فى بنوكهم .

أما من جهة المنتج الذى يقترض بالربا فهذه بعض النتائج التى تترتب على رباه :

أولا : غلاء أسعار السلع التى ينتجها المقترض . إذ المنتج يضيف فائدة القرض إلى تكاليف إنتاج السلع التى يشتريها المستهلكون ، فكأن المجتمع ، لا المنتج المقترض ، هو الذى يدفع الفائدة الربوية .

ثانيا : المجتمع يدفع الفائدة الربوية إذا ظلت دورة الرخاء التى اعتمد عليها المنتج قائمة ، وإذا ظل مستوى الطلب على السلعة متفقا مع تقديره . أما إذا تقلصت دورة الرخاء أو إذا نقص الطلب على السلعة بسبب ارتفاع ثمنها نتيجة لإضافة الفائدة الربوية ، فإن الوضع يختلف ، إذ يؤدى ارتفاع

الثمن إلى انحسار الاستهلاك تدريجيا ، فيبقى فائض من المنتجات بغير تصريف ، هذا الفائض له عواقبه .

ثالثا : المنتج إذا أراد تخفيض تكاليف الإنتاج التى ارتفعت بسبب إضافة الفائدة إليها لايجـــد أمامه إلا أجور العمال ، فيسعى إلى تخفيضها أو الاستغناء عن بعضهم ، أما الاستغناء فيؤدى إلى خلق البطالة ، وأما تخفيض أجور العمال فيؤدى إلى نقص القوة الشرائية فى المجتمع ، وفى الحالتين يزداد الاستهلاك انحسارا ويزداد فائض المنتجات ، فتنشأ الأزمات الدورية التى صارت لازمة من لوازم الاقتصاد الغربى .

رابعا : والسعى إلى تصريف فائض الإنتاج يؤدى إلى البحث عن أسواق خارجية وطبعا لن يكون أكثرها إلا فى البلاد المتخلفة غير الصناعية ، ولا سبيل إلى استدامة هذه الأسواق إلا ببسط نفوذ الدول الصناعية عن طريق الاستعمار ، وهكذا تنتقل بلية الربا من مجتمع محلى إلى مجتمعات الإنسانية كلها ، كما ثبت أن هذا التنافس الاستعمارى كان من الأسباب التى أشعلت حربين عالميتين وقد يؤدى إلى حرب عالمية ثالثة .

خامسا : إذا أخفق المنتجون المقترضون بالربا فى تخفيض أجور العمال لجأوا إلى وسيلة أخرى هى تخفيض أثمان المواد الأولية التى تعتمد عليها صناعاتهم والتى يستوردون أكثرها من البلاد المتخلفة غير الصناعية ، وهنا تتآمر الدول الصناعية بتكتلاتها الاحتكارية على تخفيض أثمان المواد الأولية غير مكترثة بالأضرار الفادحة التى تصيب بها الجانب الأكبر من سكان

الأرض ، وغير حافلة بالجهود التى تبذلها منظمات هيئة الأمم المتحدة فى محاولة قمع هذا الاتجاه .

وبعد .. فهذه بعض الأضرار التى أصابت البشرية كلها من إجازة الفائدة الربوية على القروض الإنتاجية ، حتى رأينا بعض علماء الاقتصاد ، وفى الدول الرأسمالية بالذات ، يندد بالفائدة فى الاقتصاد الرأسمالى . وهذا تصديق قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »(١)

---

(١) البقرة ٢٧٨ ، ٢٧٩

الوظائف التى تؤديها البنوك

أهم سند لنشاط البنوك هو « الفائدة » التى تحصل عليها نظير القروض التى تقدمها لعملائها سواء كانت قروضا لتمويل مشروعات إنتاجية ، أو كانت قروضا لسداد مطالب استهلاكية ولذلك جرى علماء الاقتصاد على تعريف البنك بأنه جهاز يتولى تقديم الائتمان لعملائه ويتلقى الودائع النقدية منهم ، ويفصلون هذا التعريف بأن نشاط البنك ينصب على تنظيم الائتمان ابتغاء تحقيق أهداف ثلاثة : تيسير التبادل ، تيسير الإنتاج ، تعزيز طاقة رأس المال . ومع تسليمنا بهذه الأهداف الثلاثة وضرورتها فى الاقتصاد الحديث ، فإن فى الإمكان بلوغها بغير التجاء إلى التعامل الربوى كما سنوضح فيما بعد ، ولكن لنذكر أولا كلمة عن كل هدف منها :

١ — تيسير التبادل : لما كانت المقايضة بين السلع أو الخدمات لا تناسب إلا مجتمعا بدائيا محدودا احتاج الإنسان منذ أقدم العصور إلى واسطة للتبادل بين الناس فى السلع والخدمات فكان ابتكار النقود التى تتمثل فى أحد النقدين — الذهب والفضة — لتكون واسطة التبادل وإن كانت العملة الورقية قد حلت الآن محل هذين النقدين .

ولما كان تبادل السلع والخدمات فى المجتمعات الحديثة يرتفع إلى حجم ضخم فإن إجراء هذا التبادل بواسطة النقود الذهبية أو الفضية أو حتى بالعملة الورقية المستحدثة تعترضه صعوبات عملية كثيرة فى نقل واسطة التبادل هذه من مكان إلى مكان ، صعوبات ترجع إلى وزنها المادى أو احتمال الضياع

أو السرقة ، فقد جاء نظام الائتمان المصرفي بيسر التبادل عن طريق مجرد وعد بدفع ثمن السلعة أو الخدمة .

هذه الوعود بالدفع مكنت الناس من التعامل بينهم بغير حاجة إلى تداول النقود من يد إلى يد ، وكلمة ألفها الناس صارت أشبه بعملة غير رسمية ، يجرى سداد قيمتها فى البنوك عن طريق المقاصة . فأنا أعطيتك وعدا بدفع مبلغ من النقود ثمنا لسلعة أو أجرا عن خدمة ، وأنت أعطيت ثالثا وعدا بدفع مبلغ من النقود ثمنا لسلعة أو أجرا عن خدمة ، وهذا الثالث أعطانى وعدا بالدفع عن سلعة أو خدمة أديتها إليه . هذه الوعود الثلاثة تتلاقى فى البنك ويجرى سدادها جميعا بالقيد فى دفاتر البنك لحساب كل من الثلاثة بغير انتقال مادى للنقود من يد إلى أخرى .

والوعد بالدفع يتخذ إحدى الصور الآتية :

فقد يكون شيكا يصدره العميل إلى مصرفه يأمره فيه بدفع مبلغ معين إلى شخص معين أو لحامل الشيك ، والبنك من جانبه يدفع قيمة الشيك إلى الشخص المسمى فيه أو لحامله من حساب ما أودعه العميل فى خزائنه من قبل .

وقد يتخذ الوعد بالدفع صورة فتح اعتماد من البنك إلى أحد عملائه فيتعهد البنك بجعل مبلغ معين تحت تصرف عميل لمدة معينة يسحب منه تباعا ، وهذه صورة من صور الإقراض تفرض عليه البنوك فائدة ربوية .

وإذا كان العميل يريد السفر من دولة إلى أخرى ولا يريد أن يحمل نقودا

معه فانه يذهب إلى مصرفه وعلى أساس حساب ودائعه فيه يأخذ منه « خطاب اعتماد » يوجهه مصرفه إلى فرعه فى الدولة الأخرى أو إلى مصرف آخر يأمره بدفع المبلغ المطلوب إلى العميل والمصرف فى هذه الصورة لا يأخذ من عميله فائدة ربوية على هذه الخدمة بل يكتفى بعمولة بسيطة لا تتجاوز ربع أو نصف فى المائة .

ومن صور الوعد أو التعهد بالدفع « صورة السند الإذنى » وهو التزام مكتوب يتعهد فيه شخص معين - يسمى المحرر - بدفع مبلغ معين فى تاريخ معين لشخص آخر أو لإذنه يسمى المستفيد وهذا السند الإذنى يصبح أداة وفاء ، فيستطيع المستفيد أن يصرف قيمة السند من البنك فورا قبل حلول تاريخ السداد ، مقابل فائدة ربوية يخصمها البنك من المستفيد مقابل الأجل ، وهناك صورة « الكمبيالة » وهى أمر مكتوب يتوجه به من شخص يسمى الساحب إلى شخص آخر يسمى المسحوب عليه طالبا منه دفع مبلغ معين لإذن شخص ثالث يسمى المستفيد ، فإذا قدم المستفيد هذه الكمبيالة إلى مصرفه بعد أن ظهرها المسحوب عليه دفع البنك قيمة الكمبيالة بعد خصم الفائدة الربوية على المدة التى سوف تمضى قبل حلول أجل الوفاء المقرر فى الكمبيالة .

هذه طائفة من صور المعاملات المصرفية التى تؤدى إلى تحقيق الهدف الأول تيسير التبادل بين الناس فى بعضها يكتفى البنك بعمولة لا إثم فيها . وفى البعض الآخر يأخذ فائدة ربوية وسنرى أن أصحاب البنوك لو صح منهم العزم لأمكن انجاز هـــذه العمليات جميعا بغير التجاء إلى الفوائد الربوية .

٢ — تيسير الإنتاج : هذا هو الهدف الثانى ينسبه الاقتصاديون إلى النشاط المصرفى وسنرى أيضا أنه هدف لا يرتبط ارتباطا حتميا باتباع سبيل الربا ، بل بلوغه ميسور بغير التشبث بالفائدة الربوية .

يقول الاقتصاديون - وبحق - إن مما ييسر الإنتاج ويدفعه إلى الأمام الاطمئنان إلى تدبير عنصر رأس المال اللازم للمشروع ، قبل أن تظهر ثمار المشروع وتعرض فى الأسواق ويسلم المنتج ثمن ما أنتجه . ففى الغالب تمضى فترة زمنية طويلة بين بدء الإنتاج وتسلم الثمن النقدى للمنتجات لاسيما فى النشاط الإنتاجى للمجتمعات الحديثة .

فمثلا الثوب الذى ألبسه قد زرع مادته الخام زارع ، ثم انتقلت المادة إلى مصنع غزل ثم إلى مصنع نسيج ، ثم إلى تاجر الجملة للأقمشة ، ثم إلى تاجر التجزئة الذى اشتريت منه الثوب ، وما دفعته ثمنا لهذا الأخير سيرد بعضه إلى تاجر الجملة ، وهذا سيرد بعضه إلى مصنع النسيج ومصنع النسيج سيرد بعضه إلى مصنع الغزل . وأخيراً يصل بعضه إلى الزارع أى أن السلعة التى اشتريتها لاستهلاكى الآن قد مرت قبل ذلك فى أدوار ومراحل إنتاجية متعاقبة استغرقت زمنا غير قليل .

وكل منتج من هؤلاء يحتاج فى إنتاجه إلى رأس المال : قد يكون لدى بعضهم موارد مالية خاصة أو مدخرات يستعين بها فى إنتاجه ، أو بقية من الثمن الذى قبضه من قبل عن سلع سبق إنتاجها وتسلم ثمنها . ولكن كثيرا من المنتجين قد لا يتوافر لديهم المال اللازم لمواصلة الإنتاج ريثما تنتهى هذه الدورة الإنتاجية وإذن فهم فى حاجة إلى ائتمان ، أى إلى قروض

يستعينون بها على استكمال نفقات الإنتاج أو حتى يتحقق الطلب على السلع التى أنتجوها، وهنا يؤدى البنك وظيفته فى بسط الائتمان وتيسير الإنتاج بوضع أمواله — عن طريق القرض الربوى — تحت تصرف هؤلاء المنتجين .

وهذا تيسير للانتاج بلا شك . وإن كان فى الإمكان تدبير بديل عنه ، مطهر من الربا .

هذا التيسير ساعد على تحقيق التخصص الحديث فى الإنتاج ، لأن كل منتج — مسترشداً بمدى قدرته الفنية فى الإنتاج — يقتصر على إنتاج جزئية صغيرة من السلعة الكاملة — ويستخدم أدواته وعماله فى إنتاج هذه الجزئية ، ولا يضيق ذرعا بانتظار استكمال السلعة فى المراحل التالية ، لأن لديه المال المقدم له من البنك — عن طريق القرض الربوى — المال اللازم لموالاة الإنتاج ريثما يجنى المنتج الثمرة النقدية الإنتاجية .

٣ — توفير رأس المال وتعزيز طاقته : هذا الهدف الثالث ينسبه الاقتصاديون إلى النشاط المصرفى ولكنه فى الواقع ليس إلا نتيجة لتحقيق الهدف الثانى الذى سنرى أنه يمكن بلوغه — وعلى الوجه الأكمل — بغير فرض الفوائد الربوية على القروض الإنتاجية .

يقول الإقتصاديون إن هذا التخصص فى الإنتاج وما صحبه من تقسيم العمل بفضل تيسير المال لمنتجى كل جزئية من السلعة النهائية ، أدى فى المجتمعات الحديثة إلى توفير رأس المال وتعزيز طاقته .

فإن تخصص كل منتج — أوكل فئة من المنتجين — فى إنتاج جزئية من جزئيات السلعة المطلوبة ساعد على توسيع نطاق الإنتاج . وساعد بالتالى على توفير رأس المال المتمثل فى آلات وأدوات كان يستخدمها كل منتج فى إنتاج السلعة النهائية بقدر عدد الجزئيات التى تتألف منها إذكان لزاما عليه أن يقتنى آلات وأدوات لكل جزئية على حدة . أما فى الوضع الحديث فكل منتج أوكل فئة من المنتجين تتخصص فى إنتاج هذه الجزئية بالقدر الذى يكفى عدد السلع الذى يغطى مطالب السوق ، فلا يتكرر اقتناء الآلات والأدوات اللازمة لإنتاج هذه الجزئية .

وهذا وفر واقتصاد فى رأس المال — النقدى والعينى — وتعزيز لطاقته .

وبعد - فلو أن النشاط المصرفى ، وتلك وظائفه يحقق هذه الأهداف الثلاثة بمال أصحاب البنك ومساهميه — وبوسيلة لاتتضمن فائدة ربوية سواء نجح المشروع الإنتاجى أوفشل لما كان فى هذا النشاط المصرفى أى حرج ، ولقى من التفكير الإسلامى كل تأييد ولكن الواقع الثابت هو أن أصحاب البنوك - بإمدادهم المنتجين بما يحتاجونه من مال لمشروعاتهم - لايستخدمون مالهم الخاص إلا بنسبة ضئيلة ، أما نحو ثمانين أوتسعين فى المائة من المال المخصص لإقراض المنتجين فهو مال المودعين ، وليس مال البنك ومساهميه .

وهذا يقتضينا أن نكشف القناع عن نشأة البنوك الحديثة ، ومن أين أتتهم الأموال الضخمة التى تستخدمها فى قروضها الربوية ، وفى معاملاتها المصرفية الأخرى :

نشأة البنوك فى التاريخ

إذا كنا ننعى على البنوك تمسكها بالربا فى أكثر نشاطها المصرفى ، بالرغم من تسليمنا بأنها تؤدى فى الاقتصاد المعاصر خدمات نافعة للمجتمع ، فإنه يهمنا أن نرجع إلى الوراء قليلا لنطلع على مولد البنوك الحديثة فى الغرب، فإن هذه النشأة هى التى تفسر لنا الاتجاه الربوى الذى التزمته ودرجت عليه .

فى القرون الوسطى كانت العملة النقدية قوامها النقود الذهبية . وكان الأغنياء يحرصون على صيانة ذهبهم من السرقة أو الضياع ، فكانوا يعهدون بحفظه إلى المحترفين صياغة الذهب وتجارته وصيرفة النقود ليودعوه فى خزائنهم ، ويسترد المودعون منه بالقدر الذى يحتاجون إليه فى معاملاتهم، وكانوا يدفعون إلى الصيرفى أجرا على حفظ هذه الودائع. وإذا أراد أحدهم الانتقال من بلد إلى بلد أو إلى دولة غير دولة كان لا ينوء بحمل الذهب معه وتعريضه للضياع أو السرقة بل كان يأخذ من الصيرفى أمراً إلى زميل له فى البلد الآخر بتسليم المبلغ المطلوب .

تجار الذهب وصيارفة النقود هؤلاء كانت الفئة الغالبة فيهم من بنى إسرائيل الذين تأبى جبلتهم إلا أكل السحت ويقولون :

« لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ »[1]

وكانوا يعطون كل من أودع ذهباً عندهم سنداً يثبت له قيمة وديعته من الذهب .

---

(١) سورة آل عمران ٧٥

ثم أخذ المودعون يتعاملون فيما بينهم بهذه السندات ، لأن تداولها أخف من تداول الذهب فإذا كنت أودعت مائة جنيه ذهبا عند الصيرفى وأردت أن أدفع لدائنى هـذا المبلغ فإنى أسلمه السند الممثل لهذه القيمة ليسترد هو المبلغ من الصيرفى ، وهو بدوره قد يعطيه لدائنه سداداً لدين عليه وهلم جرا، كل هذه العمليات أراحت المودعين فى معاملاتهم من نقل الذهب من يد إلى يد .

ثم اكتشف الصيارفة أن الذهب المودع فى خزائنهم يبقى جاثماً فيها مدداً طويلة بعد أن ألف المودعون التعامل بهذه السندات الممثلة لقيمة ذهبية وقلما يأتى حامل السند ليتسلم ذهبه إلا إذا كان محتاجا إليه بالذات ، وتبين لهم من التجربة الواقعية أن ما يتم استرداده بالفعل من الذهب المودع لديهم خلال عام أو أكثر لا يتجاوز عشر مقداره ، وتبقى تسعة أعشاره رابضة فى خزائنهم، فلماذا لا يستغلونها فى الإقراض بربا ، بالفائدة التى يحددونها على ما يلمسون من حاجة المحتاجين بغير أى قيد يحد هذا القدر ، وبعد أخذ الضمانات الوثيقة منهم كفالة لسداد القروض عند حلول الأجل ، وعند سداد هذه القروض وفائدتها المرتفعة يستغلونها مرة أخرى فى الإقراض الربوى وهكذا دواليك .

وعلى هذا النحو تضخمت ثرواتهم التى لم تكن فى أصلها إلا مال المودعين. وكلما تضخمت ثرواتهم الخاصة من هذا المصدر استخدموها بالمثل فى الإقراض بالربا بالإضافة إلى مال الودائع .

إلى هنا كان هؤلاء الصيارفة موضع ازدراء الكافة ، وكان مأواهم فى

كل مدينة فى الحى اليهودى المنعزل عن المجتمع ، ثم جاءت الثورة الصناعية فى الدول الأوربية واحتاج الناس إلى توسيع صناعاتهم وإنشاء صناعات جديدة وازداد الرخاء واتسع نطاق التبادل التجارى فتطور نشاط هؤلاء الصيارفة ، فبعد أن كان يقتصر على القروض الإستهلاكية امتد إلى القروض الإنتاجية ، وبعد أن كان الربا لاتجيزه الكنيسة جاءت التشريعات الوضعية فأحلته ، وتطور أيضا مركز الصيرفى فأصبح صاحب بنك له احترامه عند الكافة ، ونشأت البنوك الحديثة .

نشأت البنوك الحديثة فى صورة شركات مساهمة ، رأس مالها يقدمه المؤسسون والمساهمون ولكنه يكون رأس مال ضئيل نسبيا فليكن عشرة ملايين مثلا فإذا الودائع تنهال على البنك فتصل إلى مئات الملايين ، وأصبحت مكانة كل بنك معيارها هو ضخامة هذه الودائع .

هذه الودائع صاروا يقدمون لأصحابها فائدة ضئيلة لإغرائهم بالإيداع ، مصورين لهم أن الربح الضئيل الثابت خير لهم من المجازفة بتوظيف أموالهم فى مشروعات قد تفشل وتهلك فيها أموالهم ويبوءون بالخسران ، ثم يقرضون هذه الودائع بفائدة مرتفعة ويستحلون الفرق بين الفائدتين . وذلك كان المصدر الأكبر للقوة المالية التى أحرزتها البنوك الحديثة .

هذه القوة المالية التى انتزعت السيطرة الشاملة على اقتصاديات عالمنا المعاصر ـ وكنت أود أن أطيل فى هـــذا الجانب ، لأشرح أوزار هذا الأخطبوط ـ الذى يتألف أكثره من بنى إسرائيل ـ وكيف أنشب مخالبه فى مصائر البشر ، وكيف أشعل الحروب المدمرة ـ وكيف أخذ بيد الاستعمار

فى انتهابه لخيرات الأرض ، وكيف صار يوجه أكثر تمويله إلى مشروعات تهدف ـ أكثر ماتهدف إلى هدم أخلاق الشعوب ونشر الفساد فى كل مجتمع مادامت أرباحها أكبر من مشروعات تؤتى الناس مطالبهم من ضرورات الحياة وكيف امتدت سيطرته إلى تشويه أسلوب التفكير لدى الشعوب وحجب الحقائق عنها بما أتيح له من السيطرة على أجهزة النشر ووسائل الإعلام .

كنت أود أن أطيل فى هذا الجانب لولا ضغط مقتضيات البحث ، وإنى أحيل من يطلب المزيد إلى كتاب أصدره أحد العلماء الفرنسيين الأحرار ، كتاب لم يكد يخرج من المطابع فى سنة ١٩٥٥ حتى استولى عليه هذا الأخطبوط ، فأباد جميع نسخه إلا عددا قليلا أفلت من قبضته ووفقت وأنا فى باريس إلى الحصول على نسخة منه .

هذا الكتاب عنوانه «الماليون وكيف يحكمون العالم ويقودونه إلى الهاوية» ففيه الدليل تلو الدليل والوثيقة تلو الوثيقة ، وكلها تثبت بالبرهان المفحم كيف أن كل المحن والكوارث التى تحل بعالمنا اليوم هى من صنع هذا الأخطبوط ، وحبذا لو تولى المجمع ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

وفى مقدمة الكتاب يشير إلى كتاب آخر بحثت عنه سنوات متتالية وفى كل مكان فلم أجد له أثرا ولعل الأخطبوط قد أباده أيضا . وهذا الكتاب عنوانه « فرنسا اليهودية أمام الرأى العام » .

ونقتبس من هذه المقدمة كلمة لمؤلف هذا الكتاب الثانى ، أرى لزاما

علىّ أن أنقلها هنا إلى العربية لأنها صورة دقيقة وموجزة لنفوذ البنوك العالمية الحديثة .

«إن الذى يلفت النظر فى عصرنا ليس هو فقط تكدس الثروات فى أيد قليلة وأحيانا بأساليب فاجرة ، بل هو على الأخص تكدس قوة هائلة تتمثل فى سيطرة اقتصادية لاضابط لها ولا قيد ، سيطرة تصول بها فئة قليلة ليسوا هم فى الغالب ملاك المال بل هم مجرد مستودعين له ، ولكنهم يديرونه ويتصرفون فيه كما لو كانوا ملاكه بالفعل .

إنها لقوة هائلة تلك القوة التى يصول بها هؤلاء فى سيطرتهم المطلقة على المال وعلى الائتمان أى الإقراض - الذى يوزعونه بمحض مشيئتهم المطلقة فكأنهم بذلك إنما يوزعون الدم اللازم لحيوية الجهاز الاقتصادى بكل أوضاعه فإذا شاءوا حرموه دم الحياة فلا يستطيع أن يتنفس ، وإذا شاءوا قدروا مدى انسيابه فى جسم هذا الجهاز ، التقدير الذى يتفق مع مصالحهم الذاتية » .

« ثم إن تجمع هذه القوى وهذه الموارد المالية فى أيديهم يؤدى بالتالى إلى الاستيلاء على السلطة السياسية فى النهاية ، وذلك يتحقق فى خطوات ثلاثة متدرجة متساندة الأولى : الكفاح فى سبيل إحراز السيادة الاقتصادية ثم الكفاح فى جمع مقاليد السيادة السياسية فى أيديهم ومتى تحققت لهم بادروا إلى استغلال طاقاتها وسلطاتها فى تدعيم سيادتهم الاقتصادية ، وفى النهاية ينقلون المعركة إلى المجال الدولى العالمى ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى النتيجة الملازمة لهذا الوضع . وهى أن ولى الأمر الذى كان مفروضاً فيه أن يمثل مصالح المجتمع وأن يحكم من مكانه الرفيع فى نزاهة وحياد وعدل ، وإيثار

لمصالح المجتمع ـ قد سقط إلى درك الرقيق لهذه القوى المالية وأصبح أداة طيعة لتنفيذ أهوائها وشهواتها » .

ويختم هذه الفقرة بهذا النداء « أعيدوا سلطان الدولة الذى انتزعته القوى المالية، أعيدوا إلى ولى الأمر كل اختصاصه الذى ناطه به المجتمع ، عندئذ تتحول « النقود » من رب شرير إلى خادم طيب كما كانت فى الماضى » .

النشاط المصرفي الحديث

رأينا كيف تطور المرابون الصيارفة إلى البنوك الحديثة بفروعها المنبثة في أرجاء الأرض وباتحادها وتكتلاتها العالمية ورأينا أن أموال هذه البنوك - كأموال المرابين من قبلهم ، إنما تأتي من مصدرين : أحدهما رأس مال البنك الذي يتجمع من مال أصحابه أو من مال المؤسسين والمساهمين إذا كان البنك شركة مساهمة وهو الغالب . وهذا المصدر هو أقل المصدرين . أما المصدر الثاني فهو ودائع المودعين ، وهذه الودائع صنفان : ودائع تحت الطلب - وودائع ثابتة أي ودائع لأجل ، فالأولى تنشىء ما يسمى « الحساب الجاري » يسحب منها المودع متى شاء وله أن يسحبها كلها في أي وقت ، ولذلك جرى عرف البنوك على ألا تعطى عملاءها في هذا الحساب الجاري أية فائدة إلا في النادر ، كما قد تفرض عليهم عمولة زهيدة مقابل العمليات الدفترية التي تباشرها في هذا الحساب .

أما الثانية : فهي الودائع التي يودعها العميل لأجل معين : ثلاثة شهور أو ستة أو سنة أو أكثر وهذه الودائع ترتب البنوك عليها للمودعين فائدة ربوية ضئيلة نصف في المائة أو واحد في المائة أو اثنين في المائة في السنة على الأكثر ، ثم تباشر على أساسها وعلى أساس مال المساهمين نشاطها المصرفي في القروض الربوية بفائدة مرتفعة كما قدمنا ، وتستحل الفرق بين الفائدتين في تضخيم ثرواتها . والآن نطلع تفصيلا على المعاملات المصرفية التي ترد على هذا المال :

الشيك : الشيك معروف هو أمر من العميل إلى البنك ليدفع إلى شخص ثالث المبلغ المدون في الشيك من حسابه الجاري في البنك ، وتصويره الشرعي واضح فالعميل مودع لمال مثلى فى البنك المودع لديه - والشيك - الأمر بدفع جزء من هذا المال إلى شخص ثالث - هو تنفيذ لعقد الوديعة بين البنك والعميل ، وهو تصرف برىء من إثم الربا ، وعلى العكس يؤدى خدمات للمجتمع بتيسيره التعامل بين الناس .

فهذا الجانب من النشاط المصرفي لا ربا فيه على الإطلاق لأنه ليس فيه فائدة يؤديها البنك إلى المودعين في الحسابات الجارية ، ولكن اطراد التعامل بالشيكات بين الناس ، وعلى أساس ودائعهم الجارية ، قد أتى البنوك قوة جديدة « خلق النقود » كما سنوضح فيما يلي : قلنا إن الشيكات - باعتبارها أوامر دفع موجهة إلى البنك من عملائه إنما تصرف من الودائع الجارية ، أى الودائع التى تحت الطلب ، وهى مايسمى فى العرف المصرفى بالحساب الجارى .

هذه الودائع الجارية التي تختلف عن الودائع الثابتة في أنها جائزة السحب في أى وقت ، قد اتضح للبنوك أنه لاضرورة للاحتفاظ بكامل قيمتها فى صورتها المعدنية لمواجهة ماقد يرد إليها من أوامر الدفع - الشيكات - والسبب فى ذلك مزدوج : ذلك أنه على حين لا يطالب البنوك بالاسترداد سوى عدد محدود من المودعين في الفترة الواحدة من الزمان ، يعهد آخرون بأموالهم إلى البنوك لتتولى حفظها رهن الطلب فى خزائن البنوك ، فلاعجب إذاً أن زين للبنوك ارتفاع سعر الفائدة وتهافت الناس على طلب القروض استغلال جزء هام من هذه الودائع الجارية فى فتح قروض ربوية .

فإذا كان المودع فى البنك – فى الحساب الجارى – مليونا من الجنيهات فإن التجارب قد علمت البنوك وجوب الاحتفاظ بربع أوخمس هذا المليون فى صورة رصيد حاضر من العملة لمواجهة أوامر الدفع من قبل المودعين ، وإذاً فالبنك يستطيع فى أمن تام أن يستغل أكثر من ثلاثة أرباع هذا المليون فى قروضه الربوية ، ولكن هل يقف الأمر عند هذا الحد ؟ . استمع إلى مايقوله الأستاذ محمد زكى الشافعى عميد كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة :

كلما تواضع الناس على قبول التزامات البنوك كبديل عن الوفاء بالدين سواء أكان ذلك فى صورة إيصالات الإيداع أم فى صورة أوامر الصرف الشيكات – التى يحررها المودعون لدائنيهم على البنوك ، عمدت البنوك إلى إحلال تعهداتها بالدفع محل النقود فيما تمد به عملاءها من قروض بما يترتب على ذلك من زيادة طاقتها على الإقراض ، ومن ثم على جنى الأرباح ، ولم يكن من العسير وقد تمتعت ديون البنوك بالقبول العام كأداة للوفاء بالالتزامات ، أن تقنع هؤلاء العملاء بملاءمة اقتضاء مبالغ القروض فى صورة ودائع جارية قابلة للسحب فى الحال .

ولإيضاح ذلك نفترض مرة أخرى أن جملة ما أودعه الأفراد لدى البنوك فى الحساب الجارى من النقود مليون من الجنيهات ، وأن نسبة الرصيد النقدى الحاضر الذى تحتفظ به البنوك لمواجهة أوامر الدفع من قبل المودعين – أى الشيكات – هى الربع فعندئذ يمكن للبنوك وقد أحلت تعهداتها بالدفع محل النقود فى الوفاء بالقروض أن تقدم للناس ما قيمته ثلاثة ملايين من الجنيهات دون أن يؤثر ذلك على نسبة الرصيد النقدى الحاضر التى تقتضى

دواعى الحيطة والأمان الاحتفاظ بها لمواجهة طلبات الصرف المحتملة من قبل المودعين .

« ومن هنا أمكن للبنوك وقد أودع لديها مليون من الجنيهات أن تنشىء على دفاترها من الودائع ماقيمته أربعة ملايين . لا يمثل منها ماأودعه الناس بالفعل من نقود قانونية لدى البنوك سوى الربع - والربع فقط - على حين تتحصل الثلاثة الملايين جنيه الباقية فى صــــورة ودائع مخلوقة أنشأها النظام المصرفى .

ومن هنا تتضح سذاجة الاعتقاد بأن مصدر الودائع المصرفية الوحيد هو إيداع الأفراد أرصدتهم النقدية فى صورة عملة قانونية لدى البنوك ، فان الودائع الأصلية التى تنشأ فى ذمة البنوك على هذا النحو لا تمثل سوى قدر محدود من مجموع الودائع المقيدة فى دفاتر البنوك فى حين ينشأ الشطر الأكبر منها بمناسبة قيام البنوك بعمليات الإقراض يستوفيها المقترضون فى صورة ودائع قابلة للسحب لدى الطلب .

وعلى هذا النحو تسنى للنظام المصرفى - بما له من مقدرة على خلق الودائع وما للودائع من صفة النقود - أن يشاطروا الدولة سلطانها فى صنع « النقود » فليست وظيفة البنوك التجارية كمجموعة قائمة بذاتها قاصرة على إقراض فريق من الناس ما يودعه لديها فريق آخر من النقود ذلك لأنها استمدت من اطراد قبول الأفراد لالتزاماتها فى الوفاء بالديون سلطانا واسعا فى خلق وسائط الدفع وتقويضها فى النظام الاقتصادى »

وبعد فقد أطلنا بعض الإطالة فى توضيح هذه النقطة لأننا سوف نستند إليها فيما بعد فى اقتراح بديل إسلامى فى العملية التى تقوم بها البنوك فى خصم «الكمبيالات» فى النطاق الداخلى بغير استيلاء فى هذه العملية على فائدة ربوية .

٢ — خطاب الاعتماد : قد يحتاج العميل إلى السفر من بلد إلى بلد آخر ، ويحتاج إلى نقل نقود معه ، ولا يريد أن ينوء بعبء حملها معه فيعطيه البنك الذى يعامله خطاب اعتماد إلى فرعه فى البلد الآخر أو إلى بنك فيه يجرى بينهما التعامل بالمثل .

هنا البنك يؤدى خدمة مشكورة ويحصل عليها عمولة لا إثم فيها وقد لاتتجاوز العمولة نصف فى المائة من قيمة خطاب الاعتماد ، وأحيانا لاتأخذ البنوك أية عمولة تشجيعا لتعامل الجمهور معها .

٣ — القروض الربوية : إلى هنا كان النشاط المصرفى يتجه فى إنجاز خدمات لاإثم فيها ولاربا يكتفى فيها البنك بتحصيل عمولة عادلة عن جهوده ، وكثيرا ما تقوم البنوك الحديثة بخدمات أخرى مماثلة بريئة من أوزار الربا ، كإبرام صفقة تجارية لأحد عملاء البنك أو إمداده برأى فنى عن السوق المالية أو الإشراف على إنشاء شركة مساهمة بدعوة الجمهور إلى الاكتتاب فيها ووضع مكاتب البنك تحت تصرفهم . . الخ وكلها خدمات يحصل البنك عليها عمولة نظير ما يبذله من جهد فى وضع خبرته المالية ودرايته السوقية تحت تصرف عملائه .

والآن ننتقل إلى الوجه الآخر من النشاط المصرفى .

القروض الربوية

وهذه القروض تأخذ صورا كثيرة فقد تكون سلفة مالية يقدمها البنك لأغراض استهلاكية ويفرض عليها الفائدة التى يراها كما يأخذ الضمانات التى تكفل سداد القرض مع فائدته .

وقد تكون قرضا ماليا مباشرا أى تمويلا ناجزا يقدمه البنك لمشروع إنتاجى ويفرض عليه رباه بغير نظر إلى احتمال نجاح المشروع أو فشله ، ولذلك يأخذ الضمانات التى تكفل سداد القرض مع فائدته الربوية .

وقد يتخذ القرض صورة فتح اعتماد بمبلغ معين يضعه البنك تحت تصرف العميل ليسحب منه تباعا حتى يستنفده ويفرض البنك عليه فائدة ربوية محسوبة على أساس الدفعات التى سحبها العميل وتواريخها .

كما أن السند الإذنى الذى يتعهد فيه المدين لدائنه بمبلغ معين بعد أجل معين يستطيع بمقتضاه الدائن أن يتقدم به إلى البنك ليصرف له قيمة السند بعد خصم الفائدة عن مدة الأجل . ويتولى البنك تحصيل قيمة السند من المدين عند حلول أجل الاستحقاق .

وقد يتخذ القرض الربوى صورة خصم الكمبيالة .

والكمبيالة كما قدمنا — أمر مكتوب صادر من شخص يسمى صاحب الكمبيالة إلى شخص ثان يسمى المسحوب عليه بدفع مبلغ معين إلى شخص ثالث يسمى المستفيد فى موعد معين . ومتى قبل المسحوب عليه الكمبيالة أى

أشر عليها بما يفيد استعداده لدفع قيمتها فى موعد استحقاقها أصبحت أداة وفاء قابلة للتداول بمجرد تظهيرها .

وأصبحت الكمبيالات فى التبادل التجارى الدولى ذات أهمية خاصة بل أصبحت عملة خاصة بالهيئات التجارية لاتفترق عن النقود الورقية التى تصدرها الدولة .

ولتصوير كيفية نشوء هذه الأداة نأخذ افتراضين على التوالى :

« الافتراض الأول » تاجر فى الهند استورد بضائع قيمتها مليون جنيه استرلينى من تاجر فى انجلترا ، التاجر الانجليزى سيصدر البضائع إلى التاجر الهندى ولكن كيف يقبض قيمة بضائعه ؟

الطريقة القديمة كانت أن يسعى التاجر الهندى إلى الحصول على مليون جنيه استرلينى ويشحنها إلى التاجر الانجليزى ثمنا للبضائع المذكورة .

والصعوبات العملية التى تعترض هذه الطريقة لاتحتاج إلى بيان .

ولذلك نشأت طريقة الكمبيالة .

الافتراض الثانى : المستورد الهندى يحرر كمبيالة « فهو الساحب » لصالح المصدر الانجليزى وهو « المستفيد » يأمر فيها بنكا انجليزيا أو فرع بنك هندى موجود فى انجلترا أو شخصا مقيما فى انجلترا « وهو فى كل الحالات يسمى المسحوب عليه » يدفع مبلغ مليون جنيه استرلينى إلى المصدر الانجليزى « المستفيد » فى تاريخ معين نظير قيمة البضائع والمصدر الإنجليزى

متى وصلت إليه الكمبيالة يذهب بها إلى المسحوب عليه فمتى أشر عليها بالقبول أرسل فواتير الشحن وبوليصة التأمين إلى المستورد الهندى ليتسلم البضائع بموجبها .

وقد يحصل العكس ، أى أن محرر الكمبيالة يكون هو مصدر البضائع — أى الدائن — ويجعل المسحوب عليه شخص المدين أو فى الغالب بنكا فى بلد المدين مشترى البضاعة ويجعل نفسه أو شخصا ثالثا هو المستفيد وفى الحالتين ، متى تم قبول المسحوب عليه الكمبيالة ، أى أشر عليها بما يفيد قبوله للوفاء بها فى ميعاد الاستحقاق ، أصبحت الكمبيالة أداة قابلة للتداول فيستطيع المستفيد فى الحالتين أن يصرف قيمتها فورا من البنك المسحوب عليه أو من أى بنك آخر بعد خصم العمولة والفائدة عن مدة الاستحقاق .

المهم أن الكمبيالة المقبولة تصبح عملة قابلة للتداول فهى تثبت مبلغا من عملة إحدى الدول قابلا للوفاء فى تاريخ معين ، فلكل ذى مصلحة فى سداد دين تجارى بعملة هذه الدولة أن يشتريها ويسدد بها دينه ، وعلى هذا النحو تتجمع آلاف الكمبيالات بعملات دول مختلفة فى سوق الكمبيالات الأجنبية ويتم سداد الديون المتمثلة فيها بواسطة البنوك بطريق المقاصة بدون نقل نقود من مكان إلى مكان وهكذا صارت الكمبيالات تؤدى دوراً كبيراً فى التجارة الخارجية وصارت أداة وفاء دولية يحرص المستوردون على اقتنائها والتعامل بها فى تبادل السلع من دولة إلى أخرى ،

ولذلك نرجىء الكلام عن بديل إسلامى يقوم مقامها إلى ما بعد .

أما الآن فنمضى فى اقتراح بديل إسلامى عن الربا فى القروض الإنتاجية التى تقدمها البنوك للمقترضين سواء اتخذت صورة قرض ناجز أو صورة فتح اعتماد .

البديل الإسلامى للفائدة على القروض الإنتاجية

رأينا كيف ألف الناس فى هذا العصر إيداع فائض أموالهم النقدية فى البنوك وكان منشأ هذه الألفة إما عن كسل أو إحجام أوعجز عن استثمارها بأنفسهم ، وإما فى انتظار وجود مجال استثمار يوظفونها فيه ، فتبقى هذه الودائع فى البنوك سنة أو سنوات،لايسترد من مجموعها إلا القليل الذى ثبت بالتجربة أنه لايتجاوز العشر .

هذه الودائع ـ التى تسمى ودائع ثابتة أو ودائع ذات أجل ـ يقرر البنك لأصحابها فائدة منخفضة السعر ، ثم تمضى فى إقراضها بفائدة مرتفعة ويكسب الفرق بين السعرين .

والبنك يعتبر جميع الودائع التى لديه ـ أو تسعة أعشارها على الأقل رصيداً متجدد الامتلاء بحسب توالى إيداع الودائع وخروج القروض منها ثم ارتداد هذه القروض إلى أصول الودائع عند السداد ، ويضم البنك إلى رصيد الودائع مايكون نقداً ماثلا من رأس ماله ، ويجعل من هذين المصدرين رصيدا مشتركا يقدمه قروضاً واعتمادات إلى أفراد أو هيئات تباشر أوتعتزم مباشرة مشروعات استثمارية أوالتوسع فى مشروعاتهم القائمة ومن هنا تأتى الأرباح الضخمة للبنوك وهى بمأمن من كل مخاطرة ، مطمئنة إلى استرداد قروضها وفوائدها وهى بمعصم من كل خسارة .

هذه العمليات سواء من المودع الذى يكسب فوق أصل ماله فائدة

منخفضة السعر ، أو من البنك الذى يقرض عملاءه ويكسب فوق أصل القرض فائدة مرتفعة السعر — هى بلا شك عمليات ربوية فالزيادة فى أصل المال جاءت بغير مساهمة من المودع أو من البنك فى مخاطر أى استثمار بل تحملها المقترض وحده فيما باشره من استثمار مكنه من أداء الفائدة المفروضة عليه ، ولم يكن فى نية المودع وهو يودع ماله فى البنك ولا فى نية البنك وهو يقرض عملاءه ، أن يساهما فى هذا الاستثمار بطريق توكيل المقترض فى مباشرة الاستثمار نيابة عنهما ، فإنه يمنع قيام هذه النية عندهما أنهما لم يعتزما من البداية المساهمة فى مخاطر هذا الاستثمار بل كان تقديم رءوس الأموال إلى المقترضين من المودعين بطريق غير مباشر ، ومن البنك بطريق مباشر ، على أساس أداء فوائد معينة سواء نجحت المشروعات موضع القروض أو فشلت .

لحرمة الربا بارزة فى هذه العمليات ، وهى علاوة على هذا التحريم الشرعى قد ثبت للاقتصاديين أيضا أنها تلحق أضرارا جسيمة بالاقتصاد القومى ، فإن البنوك فى استغلالها الودائع على هذا النحو ، وبإصدار القروض الربوية بأضعاف مالديها من ودائع إنما تخلق « قوة شرائية وهمية » تخلق نقودا مصطنعة ، هى مايسمونها بالائتمان التجارى وهى فى هذا الخلق تغتصب وظيفة الدولة المشروعة فى خلق النقود بما يحف بها وبما يوازنها من مسئوليات .

هذا « الائتمان التجارى » الذى كان طوال القرن التاسع عشر موضع تحبيذ علماء الاقتصاد وعلماء المالية قد أصبح فى القرن العشرين موضع نقدهم

العنيف بعد أن ثبت بالتجربة المريرة أن من شأنه أن يزعزع النظام الاقتصادى، ويحول دون استقراره ويفضى إلى الأزمات المتعاقبة التى لازمت النظام الرأسمالى، وذلك لأن التعامل لم يعد يجرى بالنقود الذهبية أو الفضية أو بأوراق النقد إلا فى المعاملات البسيطة المحدودة القيمة، أما أكثر المعاملات - لاسيما الكبيرة القيمة - فتجرى بالشيكات تسحب على الودائع المصرفية وهذه الودائع التى تتمثل فى مجرد قيود دفترية فى سجلات البنوك أصبحت بمثابة عملة نقدية مصطنعة تسيطر عليها البنوك وبطبيعة الأشياء وفى أحسن الفروض تميل البنوك إلى بسط هذه العملة فى أوقات الرخاء، وإلى قبضها فى أوقات الركود.

وكما قال الاقتصادى الأمريكى «هنرى سيمونز» معلقا على الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العالم فى عام ١٩٣٠ «لسنا نبالغ إذا قلنا إن أكبر عامل فى الأزمة الحاضرة هو النشاط المصرفى التجارى، بما يعمد إليه من إسراف خبيث أو تقتير مذموم فى تهيئة وسائل التداول النقدى ولا يشك فى أن البنوك بمعاونة الاحتكار سوف توالينا بأزمات أشد وأقسى إذا لم تتدخل الدولة فى الأمر فتستعيد - فى حكمة ومسئولية - وظيفتها فى ضبط أداة التداول فالثابت إذاً بحكم الواقع المعاصر، هو أن البنوك، بالدور الذى تقوم به فى إحلال الائتمان المصرفى محل العملة النقدية اعتماداً على رصيد الودائع الذى لديها واطمئنانها إلى استمرار تدفقه - تؤدى للمجتمع نفعا فى تيسير التعامل التجارى ولكنها فى الوقت نفسه تلحق بالمجتمع ضرراً عظيما، ينشأ على الأخص من مصدرين :

الأول : ماتصيبه من اغتناء غير مشروع بسبب حصولها المحتوم على فوائدها المقررة من المقترضين ، واجتنابها المساهمة فى مخاطر مشروعاتهم .

الثانى : ميلها فى أوقات الرخاء إلى التوسع فى الإقراض بفتح الاعتمادات التى تربو على رصيدها أضعافا مضاعفة ، وميلها فى أوقات الركود إلى التضييق فى الإقراض أو الكف عنه فهذا البسط والقبض ، الذى تتحكم فيه إرادة القائمين على البنوك ، هو من أهم العوامل التى تهز الكيان الاقتصادى ، وتقضى إلى تتابع الأزمات .

فالبنوك فى المجتمعات الرأسمالية بتمويلها المشروعات عن طريق أرصدة الودائع تستحدث نفعاً وتستحدث ضرراً فى آن واحد . والنظام الإسلامى حريص كل الحرص على اتقاء الضرر ودفعه واجتلاب النفع واستبقائه ، فكيف نهتدى بالأصول الإسلامية فى مواجهة هذا الموقف ؟

أعتقد أن عقد المضاربة الذى أجازته ونظمته الشريعة الإسلامية يكفل لنا بلوغ هذه الغاية على ضوء هذا العقد ، وعلى ضوء حكم الفقه الإسلامى فيه نحدد كيف تكون العلاقة .

أولا : بين المودعين فى مجموعهم من جانب وبين البنك من جانب آخر .

وثانيا : بين البنك من جانب وبين صاحب المشروع الذى يتسلم من البنك مبلغا من المال من جانب آخر .

ولما كانت أحكام عقد المضاربة التى نالت إجماع الفقه الإسلامى هى

التى سنطبقها فى تكييف هاتين العلاقتين - علاقة المودعين بالبنك وعلاقة البنك بأصحاب المشروعات الاستثمارية — فإننا نورد هنا أهم الأحكام التى تحدد هذا التكييف .

١ — المفروض فى عقد المضاربة أن المتعاقدين - رب المال والمضارب - يقتسمان الربح بالنسبة التى يتفقان عليها ، بشرط أن تكون حصة كل منهما فى الربح جزءاً شائعاً كالنصف أو الثلث أو الربع والباقى للآخر .

٢ — فإن كان ما اشترط لأحدهما مقدار معين فسدت المضاربة لاحتمال أن الربح لا يأتى زائداً على ذلك المقدار المعين ، فتنقطع بذلك الشركة فيه فيفوت الغرض من المضاربة ، والقاعدة هى أن كل شرط يوجب قطع الشركة فى الربح أو يوجب جهالة فيه فإنه يفسد المضاربة .

٣ — ولا نصيب للمضارب إلا من الربح فقط فلو شرط له شىء من رأس المال أو منه ومن الربح فسدت المضاربة . واشتراط الخسارة على المضارب باطل ، وذلك لأن الخسران هو هلاك جزء من رأس المال فلا يجوز أن يلزم به غير مالك المال .

٤ — والمضارب أمين على رأس المال فهو فى يديه كالوديعة ثم هو من جهة تصرفه فيه وكيل عن رب المال . وإن ربحت المضاربة كان شريكا لرب المال فى الربح .

وإذا اشترى المضارب بغبن فاحش لا يدخل ما اشتراه فى حساب المضاربة .

ويجوز للمضارب ، إذا كانت المضاربة مطلقة أن يبيع بالنقد أو النسيئة وله قبول الحوالة بثمن مايبيعه وتوكيل غيره بالبيع والشراء وإيداع مال المضاربة والرهن والارتهان ، والإيجار والاستئجار ، والسفر لأجل الأخذ والعطاء إلا إذا كان السفر مخوفا .

وأما إذا كانت المضاربة مقيدة فلايجوز للمضارب أن يخالف ماقيد به بل يلزمه رعايته فإذا خالف الشرط كان غاصباً ، ومتى انقلب غاصباً صار الربح له والخسارة عليه ، وإذا تلف مال المضاربة كان ضامناً له بحكم الغصب من وقت المخالفة .

٥ — وسبب استحقاق المضارب لحصته من الربح في المضاربة الصحيحة هو عمله فيعطى الربح فى مقابلة مابذله من السعي والعمل ، ورب المال يستحق نصيبه من الربح بسبب ماله .

وعلى ذلك إذا فسدت المضاربة كان كل الربح له لأنه ثمرة رأس ماله ، والفرض أن عقد المضاربة غير صحيح ولكن يكون للمضارب أجر المثل بشرط ألا يتجاوز ما كان مشروطا له فى عقد المضاربة . هذا إذا أنت المضاربة بربح ، فإن لم يكن ربح فلا أجر له

٦ — وإذا تلف مقدار من رأس مال المضاربة فإنه فى أول الأمر يحسب من الربح وذلك لأن الربح تبع ، ورأس المال أصل ، فينصرف الهالك إلى الربح فإذا تجاوز مقدار الربح وسرى إلى رأس المال فلا يضمنه المضارب سواء كانت المضاربة صحيحة أو فاسدة وذلك لأن المضارب أمين فلا يضمن إلا بالتعدى ، وليس من التعدى عمله الجائز له فى عرف التجار .

٧ — وبالجملة فالضرر والخسارة عائدان على رب المال وحده ، وإذا شرط كون ذلك مشتركا بينه وبين المضارب فالشرط باطل . غاية الأمر أن المضاربة إذا لم تأت بربح فلاشيء للمضارب ، وذلك لأن نصيبه بعض شائع في الربح ، وإذا كان لاربح فلانصيب له لأن مامنه ذلك النصيب معدوم .

وبعد فهذه القواعد على إيجازها ـ والمراجع الفقهية حافلة بالتفصيل فيها تلقى الضوء على مانريده في تكييف العلاقة الشرعية بين المودعين والبنك ، وبين البنك وأصحاب المشروعات الذين يمدهم بالمال .

أولا ـ تكييف العلاقة بين المودعين والبنك : يعتبر المودعون ـ في مجموعهم لا فرادى ـ «رب المال» والبنك هو «المضارب» مضاربة مطلقة ، أي يكون له حق توكيل غيره في استثمار مال المودعين .

وعلى هذا النحو يمضى البنك في تقديم المال لأصحاب المشروعات ، موجها كل مالديه من فطنة ودراية مالية وخبرة سوقية في تخير المشروعات والقائمين بها ، لأنه طبقاً للقاعدة الرابعة السالفة الذكر «أمين» على هذا المال ، فيجب عليه أن يتحمل أعباء هذه الأمانة على الوجه الأكمل .

هذه المشروعات الاستثمارية بعضها قد ينجح نجاحا كبيراً ، وبعضها قد ينجح نجاحا معتدلا . وبعضها قد يفشل فلا يؤتى أى ربح أو ينقلب إلى خسارة في كل سنة مالية ، أو في فترة أقصر إذا استقر العرف المصرفي على فترة أقل من السنة يقوم البنك بتسوية شاملة بين أرباح وخسائر جميع المشروعات الاستثمارية التي وظف فيها أموال الودائع وبعض أموال مساهمي البنك فمهما

على السواء الرصيد المشترك الذى يوجهه البنك فى إمداد أصحاب المشروعات الاستثمارية بمطالبهم من المال .

والصافى بعد هذه التسوية يخصم البنك منه أولا مصاريفه العمومية بما فيها أجور موظفيه وعماله ، وبما فيها احتياطيات قد يفرضها القانون الوضعى على البنوك باعتبارها شركات مساهمة ، ثم يوزع الباقى بينه وبين المودعين ، طبقا للاتفاق الذى تم بينه وبينهم فإذا اتفق الطرفان على أن يكون للبنك نصف الربح مثلا والنصف الآخر للمودعين ، وزع البنك عليهم النصف بنسبة مبالغ ودائعهم وبنسبة الأجل الذى بقيته هذه الودائع فى حوزة البنك وساهمت بمقتضاه فى هذا الاستثمار .

أما النصف الثانى من صافى الربح ، وهو النصف الذى خص البنك أو الثلث أو الربع أيا كان الجزء الشائع المتفق عليه فيوزعه البنك على مساهميه بنسبة مبالغ أسهمهم .

ثانيا : تكييف العلاقة بين البنك وأصحاب المشروعات الاستثمارية :
إذا كنا اعتبرنا البنك بالنسبة للمودعين هو المضارب واعتبرنا المودعين هم رب المال فهنا نعتبر البنك بالنسبة لأصحاب المشروعات الاستثمارية الذين أمدهم بمال هو رب المال ونعتبر أصحاب المشروعات هم المضارب .

وهنا تسرى القواعد السبع التى أوردناها عن حقوق رب المال وواجباته وحقوق المضارب وواجباته .

فالربح الذى أنتجه صاحب المشروع - وهو المضارب يقتسمه مع البنك وهو رب المال بالنسبة التى اتفقا عليها .

ونصيب البنك من هذا الربح هو الذى قلنا إنه يدخل فى التسوية الشاملة التى تكلمنا عنها أولا فى العلاقة بين البنك والمودعين ، والذى قلنا إنه يجرى توزيع صافى هذه التسوية بعـــد خصم المصاريف والأجور - إلخ - بين البنك والمودعين .

أما إذا لم يؤت المشروع ربحا ، وسلم رأس المال من كل تلف أو خسارة، فليس لصاحب المشروع شىء ، وعاد رأس المال إلى البنك ، وأما إذا تلف جزء من رأس المـال أو كله لسبب أو حادث لايد لصاحب المشروع فيه فالخسارة لا تحقق إلا برب المال « البنك » وذلك تطبيقا لقاعدة ٦ ، ٧ من قواعد المضاربة التى أوردناها من قبل . وأما إذا كان صاحب المشروع « المضارب » تسبب فى تلف رأس المـــال أى صار متعديا فيكون عليه الضمان .

وظاهر أن هذه القواعد سوف تحمل البنك باعتباره رب المـال على التحرز الدقيق عن المجازفة بماله فى مشروعات غير مدروسة أو غير صالحة أو إساءة اختيار من يمدهم بالمـال من المستثمرين .

وبعد ـ فهذا مجمل اقتراحى فيما يكون بديلا إسلاميا عن هذا الجانب من النشاط المصرفى وهو القروض الربوية التى تقدمها البنوك فى المشروعات الإنتاجية .

ولست أنكر أنه فى التنفيذ العملى يخالطه بعض التعقيد . فلا شك أن النظام القائم فى البنوك الآن ـ من تحديد فائدة معلومة للمودع وتحصيل فائدة

معلومة من المقترض أيسر فى التنفيذ ، ولكن شيئا من التعقيد يعدل البعد عن أوزار الربا ، والنجاة من آثامه وشروره ، على أن هذا التعقيد الذى يخشى منه فى البداية سوف يتضاءل تدريجيا كلما درجت عليه البنوك ورسمت له المعايير الواضحة الملائمة ، وكلما ألفه الناس عاما بعد عام فى معاملاتهم المصرفية .

ولا نرى حرجا ـ تطبيقا لقاعدة الضرورات تبيح المحظورات ـ فى تدبير فترة انتقال لتكن خمس سنوات مثلا ، يتحرر خلالها النظام المصرفى فى البلاد الإسلامية فى مباشرته لهذه الوظيفة بالذات ـ من الوضع القائم إلى الوضع المقترح ، حتى تنتهى الارتباطات القائمة وحتى تهيأ الترتيبات الفنية والتنفيذية الملائمة .

البديل الإسلامى للربا فى القروض الاستهلاكية

إلى هنا كنا نعالج الفائدة من حيث فرضها على قروض إنتاجية تقدمها البنوك إلى عملائها ، لتعاونهم بها فى ميادين الإنتاج . وننتقل الآن إلى القروض التى تقدمها البنوك لبعض المقترضين ، ليستعينوا بها على مطالبهم المعيشية .

فى هذه الوظيفة المصرفية أقترح أن تكف البنوك عن ممارستها ، كى يبقى نشاطها دائما فى دائرة التنمية الاقتصادية .

وأرى أن تستأثر بهذه الوظيفة منشآت حكومية تتولى جباية الزكاة - كلها أو بعضها وتوجيه حصيلة ماتجبيه منها إلى مستحق الزكاة فى مصارفها السبعة المعروفة أما غير المستحقين للزكاة ، مما كانت تضطرهم حاجات معيشية وقتية إلى الحصول من البنوك على قروض ربوية قصيرة الأجل ، فإن منشآت الزكاة تستطيع أن تمدهم بغير فائدة ببعض قروض ذات آجال قصيرة ، يستعينون بها على تفريج كربتهم العارضة على أن يبادروا بردها إلى رصيد الزكاة ويحملهم على الإسراع فى سدادها علمهم أنها سترتد إلى رصيد مخصص دونهم لمستحق الزكاة ، علاوة على ماقد تطلبه منهم المنشأة من ضمانات للوفاء .

كذلك لا ننسى أن رصيد الزكاة فى بلد إسلامى - يتغذى بمورد آخر فياض - فإنه مادام المجتمع الإسلامى قائما بالقسط على ماتفرضه الملكية

الفردية من التزامات إيجابية فإن رصيد الزكاة سوف يتغذى باستمرار بتبرعات متوالية من المنفقين فى سبيل الله وقد يتألف من هذه التبرعات ذخر ثمين يساعد منشآت الزكاة على مواجهة هذه الوظيفة الثانية : إقراض غير المستحقين للزكاة بغير « فائدة » .

أفضلية البديل الإسلامى

يتضح مما قدمت فى اقتراحى هذا بشطريه ـ أن الفكرة الغالبة فيه هى إحلال التكافل الوثيق بين طبقات المجتمع الإسلامى بالنسبة للقروض الاستهلاكية ، والتعاون المثمر بين رأس المال والعمل بالنسبة للقروض الانتاجية ، محل بعض وظائف النظام المصرفى السائد فى الاقتصاد الغربى والذى انتقلت عدواه إلى البلاد الإسلامية .

فالزكاة والانفاق فى سبيل الله ، سوف يقضيان على الحاجة إلى عقد قروض استهلاكية ربوية .

أما فى القروض الإنتاجية فالمال الذى أودعه صاحبه فى بنك لن ينال عنه فائدة ثابتة تتسم بسمات الربا المنهى عنه ، بل ربحا عادلا يتكافأ مع الدور الذى أداه ماله فى التنمية الاقتصادية ـ وهذا بلا شك تشجيع كاف لكل مدخر على موالاة الادخار العنصر الأساسى فى تكوين رأس المال القوى .

والبنك من جانب آخر ـ بما فيه مساهموه ـ سينال ربحه المشروع ، جزاء وفاقا على مابذل من جهد وفطنة واعية فى توجيه مال المساهمين ومال المودعين فى استثمارات مجزية .

إن البنك بهذا الوضع الإسلامى لن يصير مجرد دائن لأصحاب النشاط الإنتاجى لايهمه إلا أن يسترد قروضه بفوائدها الربوية مهما كان مصير

المشروعات ومهما كان مصير المقترضين ، بل يصبح البنك شريكا لهم فى نشاطهم الإنتاجى يبحث معهم أفضل مجالات الاستثمار ويهديهم إلى أرشد أساليبه ، وبذلك يصبح المال والإنتاج حليفين يتعاونان فى تنمية الاقتصاد القومى .

هذه الروح التعاونية التى تجمع بين رأس المال والعمل فى تحالف سليم هى روح إسلامية خالصة ، تحقق منهج الله فى سلوك البشر التعاونى عندما أمرهم بقوله :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »(١)

ولو نجح تطبيق هذا التنظيم فى بلادنا الإسلامية فإنه سوف يؤدى إلى إنقاذ العالم الإسلامى من التخلف الاقتصادى الذى طال أمره - ثم يكون قدوة حسنه يحتذيها العالم المعاصر ، شرقيه وغربيه ، بالرغم مما سوف يصطدم به من مقاومة ذئاب المال من بنى إسرائيل .

---

(١) سورة المائدة ٢

النشاط المصرفى الخارجى

إلى هنا كنا نتكلم عن النشاط المصرفى الداخلى ، سواء كان فى قروض ربوية إنتاجيه أو فى قروض ربوية استهلاكية .

ولكن البنوك فى كل دولة لها نشاط خارجى كبير : بعضه لاربا فيه ، كخطابات الاعتماد التى يصدرها البنك إلى فروعه فى الخارج أو إلى أى بنك أجنبى يعامله بالمثل فهنا يأخذ البنك ـ مصدر خطاب الاعتماد ـ مجرد عمولة مقابل هذه الخدمة التى أغنت العميل المسافر إلى الخارج عن نقل نقوده معه ، اكتفاء بالخطاب الموجه إلى البنك فى الدولة التى يسافر إليها .

وفى هذا الحكم أيضا البرقية التى يبعث بها البنك من هنا إلى فرعه فى الخارج أو إلى بنك أجنبى يعامله بالمثل ، يأمره فيها بتسليم مبلغ معين إلى أحد عملائه . هنا البنك أيضا لا يأخذه فائدة ربوية إنما يأخذ عمولة مستحقة .

ولكن النشاط المصرفى الخارجى يتجه فى الجانب الأكبر منه إلى التداول فى الكمبيالات ، ويستولى على فائدتها الربوية مقابل انتظار موعد الاستحقاق وهذه العملية كما قلت تلعب دورا كبيرا فى المعاملات المالية الخارجية من تصدير واستيراد ، ووفاء بالديون الخارجية .

فهل نستطيع أن نجد بديلا إسلاميا يستبقى هذه الأداة الهامة ، ويطهرها من وصمة الربا ؟

١ — الكمبيالات فى النطاق الداخلى :

أما فى النطاق الداخلى فالأمر ميسور على الوجه الآتى : ـ

رأينا أن البنك لايعطى أية فائدة على الودائع الجارية ، ولكنه يستغلها فى نشاطه المصرفى ويستفيد من هذا الاستغلال ربحا قد يصل إلى ثلاثة أمثال مقدار الودائع الجارية فإذا تقدم إليه المستفيد فى الكمبيالة وأراد صرف قيمتها قبل موعد الاستحقاق،وهو موعد لايتجاوز ثلاثين أوستين أوتسعين يوما ، وكان هذا المستفيد عميلا فى البنك له حساب جار فيه ، وطلب صرف قيمة الكمبيالة المحررة الصالحة ، فعلى البنك أن يصرف قيمتها إليه بغير أن يخصم من قيمتها مقدار الفائدة عن مدة الانتظار ونعتقد أن ليس فى ذلك أى ظلم للبنك أو غبن عليه ، فالبنك يستثمر الحساب الجارى لهذا المودع ولا يؤدى إليه أية فائدة فلماذا لايصرف كمبيالته إلا بعد خصم فائدة ربوية من قيمة الكمبيالة ؟

ولنضرب لذلك مثلا : اشترى تاجر من أسيوط بضاعة من تاجر فى الاسكندرية ، وحرر للأخير كمبيالة تستحق الأداء بعد ستين يوما ، وأمر فيها المسحوب عليه ، وهو بنك فى الاسكندرية ، أن يدفع قيمة الكمبيالة للمستفيد فى نهاية الستين يوما ، ولما قدم المستفيد الكمبيالة إلى بنكه فى الاسكندرية قبلها أى كتب عليها مايفيد استعداده لدفع قيمتها فى موعد الاستحقاق .

أصبحت هذه الكمبيالة بعد قبول المسحوب عليه ـ البنك ـ أداة وفاء

الدين قابلة للتداول بين الناس فى السوق التجارية ، فيستطيع المستفيد أن يبيعها لمن يريد شراءها ويستطيع أيضا أن يتوجه إلى بنكه - الذى أودع فيه حسابه الجارى - فيصرف البنك إليه قيمتها بدون خصم أية فائدة ربوية عن مدة الانتظار ، ونعتقد أنه ليس فى ذلك أى ظلم للبنك أو غبن عليه ، فالبنك يستثمر الحساب الجارى لهذا المودع ، فلماذا لايصرف كمبيالته إلا بفرض فائدة ربوية عليه ؟

ونرى لجواز هذه العملية توافر شرطين :

« الشرط الأول » ماذكرناه من أن يكون لهذا العميل المستفيد من الكمبيالة حساب جار فى البنك .

« الشرط الثانى » هو أن يكون هذا الحساب - فى المتوسط السنوى لايقل عن ثلث أو نصف قيمة الكمبيالة التى تقدم للبنك لصرفها ، وذلك حتى لايساء تقديم الكمبيالات للبنوك لدفع قيمتها بكثرة قد تعرقل سيولة رصيدها النقدى .

هذا فى النطاق الداخلى ، الذى قلنا عنه إن مجال استعمال الكمبيالات فيه محدود ، أما فى النطاق الخارجى فالأمر يختلف ، ولا مناص فى ظروف هذا العصر من أن يكون له حكم آخر يسرى على جميع المعاملات المصرفية الخارجية .

٢ - الكمبيالات فى المجال الدولى : هذا الحكم هو أننا إذا كنا نستطيع أن نقول للعالم الإسلامى : امتنع عن الربا ونستطيع بذلك أن نطهر جميع

معاملاتنا المصرفية من الفائدة الربوية لتحل محلها شركة المضاربة فإننا لا نملك فرض هذا الحكم على البلاد غير الإسلامية التى نتعامل معها، ومادمنا مضطرين إلى التعامل مع هذه البلاد فى عقد قروض لتمويل بعض نشاطنا الإنتاجى، وفى استيراد سلع لم نصل إلى إنتاجها بعد ـ فلا مناص من التغاضى عن وزر الربا الذى يشوب معاملاتنا معهم، وذلك تطبيقا للقاعدة الشرعية الضرورات تبيح المحظورات .

ومن هذه المعاملات « الكمبيالة » التى أصبحت أداة تمويل دولية ، ولها سوق عالمية ، يشترى فيها المستوردون الكمبيالات المدون فيها عملة بلاد المصدرين للوفاء بديونهم إلى هؤلاء المصدرين، وأصبحت البنوك والبورصات تتعامل فى هذه الكمبيالات المدونة فيها عملات دول مختلفة للوفاء بمطالب التجارة الدولية .

قد يقال إن الاضطرار « هنا غير حاسم ، فلا ضرورة حيوية لاستيراد سلع من الخارج وهذا صحيح بالنسبة لسلع كمالية أو ترفيهية ، ولكن هناك سلع ضرورية لم نتوصل إلى إنتاجها بعد ـ وهناك ماهو أهم من ذلك بكثير، وهو أجهزة الإنتاج الآلية الضرورية لنا فى مرحلة التصنيع الشامل التى اقتحمتها الآن كثير من البلاد الإسلامية .

لذلك لا أرى بدا من أن أقرر هنا ـ مكرها لا مختارا ـ جواز استمرار معاملاتنا المصرفية الخارجية على الوضع الربوى القائم ، وفى الكمبيالات بالذات لامناص من التغاضى عن وصمة الربا فى تداولنا السوق للكمبيالات سواء كانت مسحوبة منا لصالح مصدرين أجانب أو مسحوبة لصالحنا من مصدرين أجانب .

تأميم البنوك ومايترتب عليه

لانرى أن تأميم البنوك يغير شيئا من التنظيم الذى اقترحناه .

القروض الاستهلاكية : قلنا إن البنوك ـ سواء كانت مؤممة أوغيرمؤممة ـ لن تتولاها بل تتركز فى صناديق الزكاة على التفصيل السابق .

أما القروض الإنتاجية فتظل تتولاها البنوك المؤممة على أساس عقد المضاربة ـ ولكن لنبدأ بكلمة عن سياسة تأميم البنوك بالذات :

شريعتنا الإسلامية ، خاتم الهدايات الإلهية للبشر ـ تهدف أول ماتهدف إلى تحقيق سعادة البشر فى الدنيا ليحيوا فيها حياة طيبة تؤهلهم لمقام الخلد فى الآخرة ، وكل مايهيىء الأسباب لهذه الحياة تدعو إليه الشريعة فى تعاليمها الكلية ، وتحث المسلم على إعمال عقله فى التماس هـــذه الأسباب أو ابتكارها .

وقد يكون تأميم بعض صنوف المال أوالمتاع أوالخدمات فى عصرمعين وبيئة معينة من بين هذه الأسباب .

فإذا ظهر فى عصر معين أن بعض صنوف المال إذا استأثر بامتلاكها فرد من الناس أوفئة من الناس ، أدى هذا الاستئثار إلى إلحاق ضرر عظيم بالمجتمع كله ، وجب على ولى الأمر الذى يمثل المجتمع الإسلامى تحريم تمليك هذه الصنوف من المال ملكية خاصة .

وإذا ظهر فى عصر معين أن بعض أنواع الخدمات التى يؤديها الأفراد بعضهم إلى بعض يكون قيام الأفراد بها مما يسول لهم ـ أو يهيء لهم ـ الاغتناء الفاحش على حساب المجتمع والإضرار به ، والسيطرة غير المشروعة عليه وجب على ولى الأمر تأميم هذا النوع من الخدمات .

ونحن فى عصرنا هذا قد رأينا أن قيام الأفراد بإنشاء البنوك واضطلاعهم بالخدمات المصرفية قد أدى فى المجتمعات الغربية إلى تركيز أموال المجتمع فى قبضة أصحاب هذه البنوك وإلى سيطرتهم المطلقة على توجيه هذه الأموال فى الاتجاه الذى يخدم مصالحهم الخاصة غير مكترثين بما يصيب المجتمع من خير أو شر ، ونابذين وراء ظهورهم تعاليم جميع الأديان السماوية ، لذلك نرى لزاما على ولى الأمر فى مجتمع إسلامى ، إذا لمس تغلغل هذه الظاهرة فيه أن يبادر إلى تأميم البنوك حتى يكفل توجيه الخدمات المصرفية إلى خير المجتمع .

وولى الأمر إذ يفعل ذلك إنما يهتدى بحكم عام يستنبطه من تطبيقين فى صدر الإسلام :

التطبيق الأول : كان بصدد بعض ضروريات الحياة فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام فقد قرر عليه الصلاة والسلام أن « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » فمتى كانت هذه الضروريات فى حالتها الطبيعية فلا يجوز أن يستأثر بها فرد معين أو فئة معينة من الناس ـ ويحجبوا سائر أفراد المجتمع عن الانتفاع بها ، أما إذا حاز أحد الناس شيئا منها فى آنية أو وعاء فقد انتقلت إلى ملكيته الخاصة ـ وقد قال الفقهاء إن النص على

تلك المواد الثلاث ليس للحصر بل يلحق بها كل ما كان مثلها فى حاجة الناس جميعا إليها بدليل إضافة « الملح » إليها فى بعض الروايات .

التطبيق الثانى : فى «الحمى» وهو اقتطاع جزء من الأرض لتكون مرعى عاماً لايملكه أحد بل ينتفع به سواد الشعب ، فقد حمى الرسول أرضا بالمدينة ، يقال لها « البقيع » لترعى فيها خيل المسلمين ، وحمى عمر أيضا أرضا بالربذة وجعلها مرعى لجميع المسلمين .

من هذين التطبيقين صار مبدأ التأميم لمصادر الخدمات والمرافق التى تكون ضرورية لحياة المجتمع فى عصر معين . مبدأ معترفا به فى الشريعة الإسلامية، أى منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا قبل ظهور مبدأ التأميم لبعض ضروريات المجتمع فى بلاد غير إسلامية .

ومن الشرح الموجز الذى أوردناه عن وظائف البنوك فى المجتمع اتضح لنا أن الخدمات التى تؤديها أصبحت فى حكم الضروريات للحياة الاقتصادية فى المجتمع الحديث .

غير أن استئثار فئة من الناس بتملك البنوك وإدارتها بالإضافة إلى الغنى الفاحش الذى تبتزه من الناس ، وبالإضافة إلى قدرتها المطلقة على توجيه هذه القوة المالية التى تجمعت لها فى كل مشروع يؤتيها أضخم الفوائد مهما ساء أثره فى المجتمع ، هذا الاستئثار وهذا التحكم قد أشعل سخط الشعوب ، وطالبت المرة بعد المرة بتأميم البنوك .

وقد تحقق التأميم بالفعل فى دول غير إسلامية كثيرة ، والتى لم تؤمم

جميع بنوكها اقتصرت على تأميم بنوكها المركزية التى تهيمن على نشاط سائر البنوك الخاصة فى نطاق الدولة .

فإذا جاءت دولة إسلامية وأممت البنوك الخاصة فيها فماذا يكون الحكم؟

سيظل النشاط المصرفى الذى اطلعنا عليه سائراً فى طريقه: سيقبل البنك المؤمم الودائع الجارية والودائع ذات الأجل على السواء فى الودائع الجارية يحفظها للمودعين لتكون موضع السحب منهم عند الطلب ، وفى الودائع ذات الأجل سيظل يستثمرها — هى وجزءا من الودائع الجارية فى الإقراض على أساس عقد المضاربة لا على أساس الفوائد الربوية . وسيظل موقف البنك من المودعين هو موقف المضارب من رب المال ، ويظل موقف البنك من المستثمرين الذين يمدهم بماله هو موقف رب المال من المضارب ، على النحو الذى فصلناه من قبل .

قد يقال لماذا لانترك للبنك المؤمم حرية جذب الودائع ذات الأجل ، بأن يقرر البنك لأصحابها فائدة ثابتة ، أى نسبة معينة من رأس مالهم ، بدلا من قاعدة المشاركة فى الربح الذى يزيد فى عام وينقص فى عام وقد ينعدم فى عام ومتى أجزنا ذلك ازداد إقبال المودعين الأغنياء على إيداع أموالهم التى تفيض عن حاجتهم ، مطمئنين إلى فائدة ثابتة المقدار على أموالهم بدلا من انتظار ربح غير ثابت ، وهذا الإقبال منهم يزيد فرصة البنك فى تحقيق أرباح كبيرة ، هى فى الواقع تعود على المجتمع بخير كبير ، فأرباح البنك المؤمم ليست أرباح فئة خاصة من الناس تحرز الغنى الفاحش على حساب

المجتمع بما تفرضه من فوائد ربوية كما هى الحال فى البنوك الخاصة بل هى أرباح المجتمع صاحب البنك المؤمم .

صحيح أن هذا الفارق بين البنك المؤمم والبنك الخاص فارق حقيقى لاشك فيه ولكن حقيقة لايجب أن تحجب عنا شبح الربا إذا أجزنا للبنك المؤمم أن يحدد مقدما للودائع ذات الأجل نسبة معينة من رأس مال هذه الودائع .

هذا التحديد الثابت لنسبة معينة من رأس مال الودائع — كذا فى المائة منها — هو ربا لا يصح أن يستحله المودعون ، بعكس اكتفائهم بقدر من الربح الذى ينتجه البنك من استثماره لأموالهم فى مشروعات استثمارية قد يجرى تحديده فى نهاية كل عام على ضوء نتيجة هذه المشروعات ، فذلك مشاركة مشروعة تستند إلى عقد المضاربة .

إذن يجب أن تقرر أن البنك المؤمم عند مايباشر النشاط المصرفى الذى كان يباشره كبنك خاص قبل تأميمه يجب أن يقلع عن فرض فائدة ربوية على من يمدهم بماله لأغراض إنتاجية ، حتى تتطهر معاملات البنوك المؤممة من أوزار الربا .

هذا هو رأيى فى البنوك المؤممة عندما تباشر — نفس النشاط المصرفى الذى كانت تباشره قبل التأميم ، والذى لازالت تباشره البنوك الخاصة التى لم تؤمم عقد المضاربة وأحكامه التى نظمتها الشريعة الإسلامية — وعلى التفصيل الذى أوضحناه — هى التى تطبق فى الحالتين على السواء .

تخصص البنوك

(ا) البنوك الصناعية : توجد إلى جانب البنوك التى شرحنا نشاطها المصرفى إلى الآن ، والتى رأينا أن نشاطها ينصب فى أكثره على التعامل فى الودائع الجارية ذات الأجل حتى اصطلح على تسميتها « بنوك الودائع » توجد بنوك تتخصص فى عمليات مصرفية لها مميزات خاصة .

ذلك لأن القروض التى تمول بها البنوك العادية — أى بنوك الودائع — مشروعات الاستثمار تكون فى الغالب قصيرة الأجل ، لا يتأخر الوفاء بها عن سنة أو سنتين ، وذلك حرصا من هذه البنوك على الاحتفاظ بالسيولة المطلوبة لمداومة العمليات المصرفية وتجددها .

ولكن النشاط الاقتصادى قد يتطلب قروضا طويلة الأجل يتأخر الوفاء بها سنوات عديدة وهذا الإقراض الطويل الأجل تخصصت فيه « البنوك الصناعية » بالإضافة إلى ما قد تمارسه من عمليات مصرفية أخرى .

هذه البنوك الصناعية انتشرت فى ألمانيا بصفة خاصة وفى القارة الأوربية بصفة عامة وكان لها الفضل الأكبر فى التنمية الصناعية .

وفى رأيى أن التكييف الشرعى لهذه القروض الطويلة الأجل لا يختلف عن التكييف الشرعى للقروض القصيرة الأجل . فعقد المضاربة يسرى على الاثنين على السواء فالبنك الصناعى هو رب المال والعمل يقدمه المضارب ، وتسرى أحكام المضاربة كاملة بشرط أن يكون المال كله

مقدما من البنك « رب المـال » والعمل كله مقدما من صاحب المشروع « المضارب » .

ولـكن الذى يحدث فى التمويل الصناعى لا يكون فى الغالب على هذا النحو فصاحب المشروع لا يقتصر فقط على تقديم العمل ، بل قد يشترك بجزء من رأس المـال يتمثل فى الأرض التى يقوم عليها مصنعه - وفى مبانى المصنع وفى أجهزته وفى آلاته ، ويكون الهدف من القرض هو توسيع المصنع أو تجديد بعض أجهزته وآلاته .

هنا لا أرى أن عقد المضاربة هو الذى يسرى على العملية ، لأنه يشترط فى المضاربة كما قدمنا أن يكون المـال كله مقدما من رب المـال ، أما هنا فالمال مقدم من الاثنين وأحدهما يقوم بالعمل بالإضافة إلى ماله .

لذلك أرى أن العقد الواجب التطبيق هنا هو عقد « شركة الأموال » ويقتسم الربح على أساس النسبة بين قيمة المـال الذى قدمه البنك من جانب، وقيمة المـال الذى قدمه صاحب المصنع،وقيمة العمل الذى يباشره صاحب المصنع من جانب آخر . أما ملكية رأس المـال سواء المقدم من البنك أو المقدم من صاحب المشروع ، فتكون ملكيه شائعة بين الإثنين بالنسبة التى اتفق عليها .

أى أن تقسيم الربح بين البنك وبين صاحب المصنع أو المشروع الذى قدم إلى جانب عمله أعيانا أو آلات أومالا من أى نوع ، هذا التقسيم يكون على أساس حصة فى هذا الربح تكون للبنك عن المال النقدى الذى قدمه

لصاحب المصنع ، وحصة ثانية تكون لصاحب المشروع على أساس الأعيان التي يستخدمها في المشروع ، وحصة ثالثة تكون لصاحب المشروع عن العمل الذي يقدمه والذي يكون الطرفان قد اتفقا على تقويمه ماليا . ويكون تحديد كل من الحصص الثلاث على حسب الاتفاق الذي أبرمه الطرفان من البداية .

ولكن قد يقال ـ استنادا إلى رأى جانب من فقهنا ـ إن «شركة الأموال» لايكون محلها إلا الأموال ، فكيف تجعل العمل جزءا من هذا المحل ؟

الواقع أن هذه المسألة كانت موضع خلاف بين فقهائنا ، فنهم من قرر أن محل شركة الأموال لايكون إلا مالا ، ومنهم من أجاز اشتمال المحل على مال وعمل . ونحن نتابع الفريق الثاني في هذه الإجازة .

جاء في «بداية المجتهد للقرطبي ـ الجزء الأول ص ٢٤٩» عن شركة الأموال إذا كانت شركة عنان : «وأركان هذه الشركة ثلاثة : الأول محلها من الأموال ، والثاني في معرفة قدر الربح من قدر المال المشترك فيه ، والثالث في معرفة قدر العمل من الشريكين من قدر المال ثم تكلم عن الركن الثاني فقال : «ص ٢٥٠» .

وأما الركن الثاني وهو وجهة اقتسامهما الربح فإنهم اتفقوا على أنه إذا كان الربح تابعاً لرؤوس الأموال أعني إن كان أصل مال الشريكين متساوياً كان الربح بينهما نصفين : واختلفوا هل يجوز أن تختلف رؤوس أموالهما ويستويان في الربح ؟ فقال : «مالك» و «الشافعي» ذلك لايجوز ، وقال أهل

العراق يجوز ذلك . وعمدة من منع ذلك تشبيه الربح بالخسران فكما أنه لو اشترط أحدهما جزءا من الخسران لم يجز ، كذلك إذا اشترط جزءاً من الربح خارجا عن ماله ، وربما شبهوا الربح بمنفعة العقار بين الشريكين ، أعنى أن المنفعة بينهما تكون على نسبة أصل الشركة .

وعمدة أهل العراق تشبيه الشركة بالقراض ، وذلك أنه إن جاز فى القراض أن يكون العامل من الربح ما اصطلحا عليه ، والعامل ليس يجعل مقابله إلاعملا فقط ، كان فى الشركة أحرى أن يجعل للعمل جزء من المال إذا كانت الشركة مالا من كل واحد منهما وعملا ، فيكون ذلك الجزء من الربح مقابلا لفضل عمله على عمل صاحبه ، فإن الناس يتفاوتون فى العمل كما يتفاوتون فى غير ذلك » .

هذا ما يراه فقه العراق . وحتى إذا لم نأخذ بهذا الرأى الذى أشار إليه صاحب « بداية المجتهد» فى اعتبار عمل العامل مالا تخصص له حصة من الربح فإننا نستطيع أن نكيف هذا العقد تكييفاً يجعله عقداً قائماً بذاته عقداً يمتزج فيه عقد المضاربة وعقد شركة الأموال وكلاهما قد أجازه الشرع الإسلامى .

(ب) بنوك التسليف الزراعى : ـ هذا النوع من البنوك يتخصص فى تسليف الزراع حاجتهم من التقاوى والسماد والآلات الزراعية والمبيدات الحشرية وغيرها من مستلزمات الزراعة ، وقد جرى العرف الحديث على أن تتولى الحكومات إنشاء هذه البنوك لخدمة مرفق الزراعة ، وتتحمل ميزانية الدولة ماينوء به البنك من مصروفات .

وأرى أن يكون إقراضها للزراع بمجرد عقد قرض عادى لاربا فيه ، فالزارع اقترض من البنك مقداراً من السماد والتقاوى والمبيدات الحشرية، وقدر البنك قيمة هذا القرض وقبل الزارع هذا التقدير ، فعليه أن يرد إلى البنك بعد الحصاد هذه القيمة المتفق عليها بغير زيادة ، وبالنسبة للآلات الزراعية يكون استعمال الزراع لها على سبيل الإجارة ، بالأجرة التى يتفق عليها الطرفان ، وتسرى هنا أحكام عقد الإجارة .

هذا وقد قرر تشريع الجمهورية العربية المتحدة إلغاء الفائدة من قروض بنك التسليف الزراعى وهو هيئة حكومية .

(ح) بنوك الادخار : كذلك يوجد إلى جانب النشاط المصرفى العادى الذى تمارسه بنوك الودائع ، بنوك تتخصص فى جمع المدخرات الصغيرة وهى التى تسمى فى الجمهورية العربية المتحدة صناديق توفير البريد وبنوك الادخار المحلى وتتولاها هيئات حكومية .

هدف هذه المنشآت هو تشجيع الادخار الصغير عند سواد الشعب فى بلد مزاجه القومى يجنح إلى التبذير وينفر من الادخار .

ولما كان كثير من البلاد الإسلامية فى أشد الحاجة إلى تنمية رأس المال القومى ، لمواجهة مرحلة التصنيع التى نجتازها الآن ، والتصنيع يحتاج إلى تمويل ضخم ، والتمويل الضخم لايتأتى إلا إذا اشترك فيه كل مواطن على قدر سعته ، حتى لو لم يكن من الأغنياء الذين يودعون فائض أموالهم فى بنوك الودائع ، فقد نشأت الضرورة إلى تشجيع الادخار عند سواد الشعب .

كيف يمكن مواجهة هذه الضرورة ؟

مواجهتها لاتكون إلا بإغراء الناس على الادخار ، والإغراء قد يتخذ إحدى صورتين لاثالث لهما :

الصورة الأولى : تكون تنفيذاً لعقد المضاربة فالمدخرات الصغيرة التى تتجمع فى صناديق الادخار توجهها الهيئات المشرفة عليها إلى استثمارات تؤتى ربحاً وبعضها قد لايؤتى ربحا ومن التسوية فى نهاية العام يتضح صافى الربح الذى توزعه على المدخرين بنسبة مدخراتهم وفى هذه العملية تستوى هيئات الادخار مع بنوك الودائع فى الإستناد إلى عقد المضاربة .

هذا الربح قد يكثر فى عام وقد يقل فى عام وقد ينعدم فى عام ثالث ، كما يحصل فى استثمار البنوك لودائع المودعين. وإذا : لن تلتزم هيئة الادخار بفرض ربح معين للمدخر بل تترك تحديد الربح إلى نهاية العام .

ولكن المدخر الصغير قد لايقبل على حرمان نفسه من بعض دخله إذا لم يكن واثقاً من ربح معين محدود مهما كان طفيفاً ، يظفر به نظير هذا الحرمان ، فليست عنده روح المغامرة التى توجد عند كبار أصحاب المال الذين يودعون أموالهم فى البنوك لآجال معينة .

من أجل ذلك نعرض الصورة الثانية ، وأترك البت فى شرعيتها إلى اجتهاد الفقه الإسلامى وإن كنت أضع أمامه بعض الملاحظات التى قد تنير له الطريق .

الصورة الثانية : تحدد الهيئة المشرفة على الادخار - سواء كانت مصلحة

حكومية أومؤسسة عامة أو بنكا مؤماً نسبة معينة من رأس المال المدخر ، تحددها مقدما كربح نتيجه استثمارها للمال المدخر . فنقول مثلا كل جنيه يدخر مدى عام تصرف الهيئة لصاحبه ٤٪ أو ٥٪ منه .

ولنبدأ بالملاحظات التى نضعها تحت أنظار فقهنا الإسلامى .

الملاحظة الأولى : المظهر فى هذه العملية مظهر ربوى ولكن إذا تأملنا فى الواقع نجد أننا لسنا هنا نتعامل مع شخص مراب ، همه ينحصر فى اقتطاع الفائدة الربوية ، بل العملية تقوم بين مدخر صغير من جانب وهيئة حكومية من جانب آخر ـ أى ولى الأمر الذى ، يمثل المجتمع ـ ونصيبه فى ربح هذه المدخرات يرده إلى المجتمع فى صورة مصانع أو منشآت تخدم المجتمع كله . فاختفت هنا بشاعة الربا ، وبشاعة ظلم المرابى ، وبشاعة الاغتناء الفاحش الذى يمتصه المرابون من دماء المجتمع .

الملاحظة الثانية : قد يقال إن هذه العملية تنطوى على مخالفة لأحكام عقد المضاربة الذى يشترط فيه أن يكون الربح الذى يتفق عليه بين رب المال « المدخر » وبين الهيئة المشرفة على الادخار « المضارب » ، ربحا غير محدود النسبة إلى رأس المال بأن يكون لأحدهما نصف الربح قل أو كثر ، وللآخر النصف الباقى أو الثلث أو الربع . أما تحديده بنسبة معينة من رأس المال فشرط باطل ، وإذا لم يأت العمـــل بأى ربح فلا ربح مطلقا لرب المال « المدخر » والتحديد بنسبة ثابتة من رأس المال المدخر يعيبه فوق ذلك عيب الغرر .

وهذا كلام وجيه ، وقاعدة شرعية لاجدال فيها ، ولكن لكل قاعدة استثناء قد تبيحه الضرورات إن ولى الأمر هنا يملك أن يفي للمدخر بالنسبة التى فرضها على نفسه ، وهو فى تقديره لهذه النسبة يجعلها دائما فى حدود الاحتمال وفى نطاق الواقع ، مما ييسر له الوفاء بالنسبة التى فرضها على نفسه والتى قبلها المدخر من البداية .

فإذا صدق تقديره فى ٩٩ ٪ من الحالات ، ولم يصدق فى ١ ٪ من الحالات فإنه يستطيع أيضا أن يفي بالنسبة المتفق عليها بالالتجاء إلى موارد الدولة الأخرى .

صحيح أنه إذا التجأ إلى موارد الدولة الأخرى فى سبيل الوفاء بالنسبة المتفق عليها يكون قد ألحق ضررا بمال المجتمع ، ولكن النفع الذى حققه المجتمع فى ٩٩ ٪ من الحالات لاشك يعدل الضرر اليسير الذى يصيب المجتمع فى ١ ٪ من الحالات .

والقاعدة الشرعية التى تقرر أن « الغنم بالغرم » تعطى هذا الاستثناء فالغنم الذى يفيء إلى المجتمع فى ٩٩ ٪ من الحالات يقابله الغرم الذى يصيب المجتمع فى ١ ٪ من الحالات .

الملاحظة الثالثة : قد يقال إن ولى الأمر إذا احتاج إلى مال للوفاء بما يتطلبه الشعب من خدمات فله فى مجال الضرائب التى يفرضها على الرعية متسع كبير يؤتيه مايشاء من مال يوجهه فيما يريد .

وهذا صحيح ولكن يجب أن لا ننسى أن لكل شعب طاقة ضريبية يجب على ولى الأمر ألا يتجاوزها وإلا ألحق بشعبه وبالاقتصاد القومى أضرارا فادحة . هذه حقيقة ثابتة استنبطها العلم - علم المالية العامة وعلم السياسة - من واقع تجارب الشعوب والدول فإذا كان ولى الأمر قد استنفذ الطاقة الضريبية لشعبه ولا زالت البلاد فى حاجة ماسة إلى تنمية رأس المال القومى ، فأين يكون اختياره ؟ أيختار تجاوز الطاقة الضريبية بما يرهق الشعب ويعطل قواه الإنتاجية ويؤثر أسوأ تأثير فى الاقتصاد القومى ؟ أم يختار حث الشعب فى جملته على الادخار ولو بشىء يسير يترك تقديره لكل مواطن ثم يغريه بربح معين ثابت على كل مايدخره ، ومن مجموع هذه المدخرات الصغيرة يتكون رأس مال كبير يمكن ولى الأمر من أداء الخدمات التى يتطلبها الشعب ويحقق الأمانى التى يتطلع إليها الشعب .

وبعـــد :

فهذه مجرد ملاحظات مستقاة من الواقع ، لا أقطع فيها برأى وإنما أضعها تحت أنظار فقهنا الإسلامى ، ليتولى هو البت فيها وفى الخيار الذى يشير به على ولى الأمر .

الخلاصة :

نحن رسمنا صورتين الأولى لاجدال فى شرعيتها ، إذا كان نفاذها يكفله أنها تتفق مع ميول البيئة التى يراد سريانها فيها وتتجاوب مع شيمتها وخصالها والثانية يشوبها بعض الشك فى شرعيتها ولكنها قد تكون أكثر تجاوباً مع ميول بيئات أخرى درجت على ألا تجازف بادخار شىء إلا إذا كفلت لما تدخره ربحا محدودا مقدرا من البداية .

خاتمـــة

من هذه الجولة السريعة بين العمليات المصرفية المعاصرة ، يتضح مدى قدرة الشريعة الإسلامية على مواجهة كل جديد .

فشريعتنا الإسلامية بقدر ما تلقى من تبصر فى توجيهاتها ، وتدبر لأهدافها ، تتسع لمقتضيات كل عصر ، وتلبى على الوجه الأرشد والأكمل جميع مطالب البشر ، فى حرص دائم على الوفاء بها فى نطاق تعاليمها الكلية .

ولا غرو فالشريعة الإسلامية خاتم الهدايات الإلهية التى أنعم الله بها على الإنسان منذ استخلفه فى الأرض ، وأحكامها الكلية وقواعدها الأصولية تستطيع فى يسر وفى قوة أن تشيد للبشر بنيانا متكاملا يعصمهم من كل فتنة ومن كل انحراف ، ويصون مصالحهم الحقيقية من كل عبث وكل تشويه ، بنيانا يقوم على أساس ثابت من العدل الشامل ومن الحق المبين ، بنياناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا تزعزعه تيارات الأهواء الجامحة ، ولا النزعات الزائغة عن سبيل الرشاد .

وهنا ونحن إزاء المعاملات المصرفية التى سادت فى هذا العصر وسيطرت على كل مجال من مجالات نشاطه ، وتغلغل الربا بكل شروره وآثامه فى كل مجال منها ، رأينا كيف كان فى الإمكان على ضوء أحكام شريعتنا ـ أن نطهر هذه المعاملات من أوزار الربا تطهيرا يكاد يكون كاملا ، وأن نطورها تطويرا ينأى بها عن كل الانحرافات المهلكة التى باتت تنذر الإنسانية المعاصرة بالخسران والدمار المحيط .

وما كانت تقضى ضرورات العصر باستبقائه من هذه المعاملات مشوبا بالربا ، فقد رأينا كيف يمكن حصره فى نطاق محدود ، هو نطاق المعاملات المصرفية فى سياسة المعاملات المصرفية الدولية ، ولا حرج علينا فى هذه الرخصة الاضطرارية ، فالله سبحانه أمرنا أن نتقيه ما استطعنا ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه .

ملحق بشأن بنوك الادخار

قلنا فى صدر الكلام على بنوك الادخار إن اختيار إحدى الصورتين السابق بيانهما يتوقف على مدى استعداد كل بيئة للتجاوب مع مقتضيات كل من الصورتين : هل تحجم البيئة عن الادخار إذا لم تضمن فائدة معينة من البداية ، أو تقبل على الادخار حتى لو كان الربح الذى سيعود عليها غير محدد المقدار من البداية ؟ .

وظاهر مما قدمنا أننا نؤثر اختيار الصورة الأولى لبعدها عن شبهة الربا ، ولكن هل كل البيئات تتشابه فى استعدادها للتجاوب معها ؟ ألا تختلف البيئة الريفية عن البيئة الحضرية ؟ .

ظهر من تجربة قامت بها الجمهورية العربية المتحدة فى إحدى المناطق الريفية أن الثقة المتبادلة بين بنك الادخار المحلى وبين البيئة التى يعمل فيها لها تأثير كبير فى الإقبال على الصورة الأولى ، والثقة أساسها المعرفة الشخصية بين الفريقين ، وهذا أكثر بروزا وشيوعاً فى البيئات الريفية منه فى البيئات الحضرية .

هذه التجربة أقامتها مؤسسة الادخار فى بلدة ميت غمر والقرى المحيطة بها ، فانشأت بنك ادخار محلى لايفرض فائدة ثابتة على مدخرات أهل هذه المنطقة ، بل يشاركهم فى أرباح المشروعات التى يستثمر فيها مدخراتهم عن طريقة تطبيق عقد المضاربة .

وقد تجاوبت هذه البيئة الريفية تجاوبا كاملا مع الفكرة التى تمثلها الصورة الأولى التى عرضنا لها فى كلامنا على بنوك الادخار ، وقد نجحت التجربة التى لم يمض عليها أكثر من سنة واحدة نجاحا لم يكن فى حسبان المؤسسة التى أنشأت البنك بحيث لو عرض البنك على المودعين - المدخرين - أن يقرر لهم فائدة ثابتة على مدخراتهم لرفضوا هذا العرض ، لا فقط لشبهة الربا فيه ، بل لأن الأرباح التى يوزعها عليهم البنك تتجاوز ١٠ ./ من قيمة مدخراتهم ، وذلك بفضل القروض التى يقدمها البنك فى مشروعات صناعية صغيرة محلية ، ثم يقاسم القائمين بها الأرباح التى يحصلون عليها ، ثم يوزع البنك نصيبه من هذه الأرباح على المدخرين بنسبة مدخراتهم بعد خصم مصاريف إدارة البنك وأجور عماله .

وهذه بعض أمثلة من هذه المشروعات التى وظف فيها البنك مدخرات المودعين من واقع مشاهداتى الشخصية وزيارتى لهذه المشروعات وفحص لدفاتر البنك :

١ - أقرض البنك صاحب مصنع يدوى لعلب الكرتون ، الاتفاق بينه وبين البنك على اقتسام الأرباح مناصفة ، أنتج المشروع أرباحا مقدارها ٢٥٠ ج و ٥٠٠ م فى ستة أشهر حصل البنك منها على ١٢٥ ج و ٢٥٠ م .

٢ - قام البنك بمشاركة أحد الأهالى فى تجارة الأسمنت مقابل المناصفة فى الأرباح الناتجة. القرض بمبلغ ألف جنيه ، لم يكن للبنك أى إشراف على المقترض إلا الثقة المتبادلة بين الطرفين .

بعد ثلاثة شهور سدد المقترض أصل القرض مضافا إليه مبلغ ٤١ ج و ٥٨٥ م نصيب البنك فى الأرباح الناتجة عن العملية .

٣ — قرض من البنك إلى أحد عملائه المدخرين بمبلغ ١٠٠٠ ج مشاركة من البنك فى إقامة مصنع صغير للصاج ، اتفق على اقتسام الأرباح بينهما بنسبة ٣٠ ٪ للبنك ، ٧٠ ٪ للصانع بعد ثلاثة شهور دفع الصانع إلى البنك أرباحا مقدارها ٣٠ ج ، كما سدد جزءا من رأس المال ، وبعد ثلاثة شهور أخرى دفع الصانع أرباحا قدرها ٤٠ ج وسدد جزءا من رأس المال أى أن الألف جنيه فى خلال ستة أشهر آتت البنك أرباحا مقدارها ٧٠ ج بخلاف أرباح الصانع وله ٧٠ ٪ وبخلاف قدرته على تسديد جزء كبير من رأس المال .

٤ — قدم البنك لأحد مدخريه مبلغ ١٥ ألف جنيه لإقامة مصنع للطوب المدخر عنده خبرة فنية فى هذه الصناعة ، الاتفاق على تقسيم أرباح المشروع بنسبة ٧٠ ٪ للبنك و ٣٠ ٪ للصانع .

حقق المشروع فى الشهر الأول من إقامة المصنع أرباحا مقدارها ٠ . ج وينتظر أن تزداد الأرباح فى الشهور التالية .

٥ — قدم البنك للفلاحين قروضا صغيرة بين ١٠ و ١٥ ج للقيام بشراء مواد خام لصناعات يدوية يباشرونها فى منازلهم كصناعة الحصير وصناعة الجريد الذى يحولونه إلى أقفاص وصناعة الغاب الذى يحولونه إلى كراسى ، يدفع الصانع للبنك أرباحا عن العشرة جنيهات التى اقترضها مقدارها ١٥ إلى

٢٠ قرشا أسبوعيا. واكتفى بهذه الأمثلة عن النشاط التعاونى الذى يباشره هذا البنك الريفى تطبيقا لعقد المضاربة .

ولكننا فى الاستشهاد بهذه التجربة يجب أن نقرنها بالعاملين الأساسيين فى نجاحها وهما عاملان لايمكن أن يتوافرا فى جميع البيئات فى السواء .

العامل الأول : هو الثقة المتبادلة بين القائمين على البنك - وكلهم من أهل هذه المنطقة الريفية - وبين المدخرين من أهلها - ثقة تنبعث من المعرفة الشخصية بين الطرفين .

العامل الثانى : هو الخلق الريفى ، خلق الزراع ، فالزارع يلقى البذر فى الأرض ولا يعلم ثمار زرعه إلا يوم الحصاد فهو قد ألف انتظار الثمرة، ولذلك لايجد حرجا عند مايودع مدخراته فى البنك فى انتظار النتيجة النهائية للمشروعات الاستثمارية التى يوظف البنك فيها أموال المدخرين .

هذان العاملان لايتوافران فى البيئات الحضرية .

ومن أجل هذا الاعتبار اقترحنا الصورة الثانية ، فإذا كان الهدف الذى يسعى إليه مجتمع إسلامى تلبية لضرورات العصر هو تشجيع الادخار ابتغاء تنمية رأس المال القومى الذى تتطلبه مرحلة التصنيع والتسلح التى يجتازها المجتمع ، فله الخيار بين الصورتين حسبما تهديه طبيعة البيئات المتباينة فيه .

نعم يوجد فى كل مصرف ناحية تسمى خزانة ، لها مفتاحان : أحدهما

بيد المودع وثانيهما بيد المصرف ، فمن أراد ألا يقع فى الشبهات يستأجر هذه الخزانة ويدفع أجراً زهيداً للمصرف نظير الحراسة .

وهذا حلال ثم إن الأسهم حلال لأنها شبيهة باسم المضاربة ، وأما السندات فهى حـــــرام لأنها قرض بفائدة معينة لا تباح إلا للضرورة القصوى لا للاستغلال ولا للاستهلاك .

مسائل فقهية ضرورية لكل مسلم

المسألة الأولى : رجل له على آخر دين فيتفقان على أن يأخذ الدائن من المدين فى نظيره إردبا من القمح بعد مدة معينة ، حكمها أنها غير جائزة عند الجمهور ، لأنها بيع كالىء بكالىء ، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقد أجاز ذلك ابن القيم مستدلا بأدلة منها :

أولا : أن فيه تيسيرا للمدين ، وأنفع للدائن ، والتعامل شرع لتحصيل منافع الناس ، وقضاء مصالحهم .

ثانيا : أن الشرع أجاز الحوالة شرعاً ، وهى تقتضى نقل الدين ونحوه من ذمة المحيل إلى ذمة المحال عليه .

ثالثا : أن الشرع أجاز بيع العين بالدين ، فيجوز أن يفرغ المدين ذمته من دين ، ويشغلها بغيره وكأنه شغلها به ابتداء إما بقرض أو معاوضة ، ففى مثل هـــذه شغل أحد المتعاقدين ذمته بدين ، وحصل المتعاقد الآخر على الربح .

رابعا : أن هذا الحديث ، وهو بيع الكالىء بالكالىء ضعيف ، لايحتج به ، « ومعنى الكالىء : المؤجل » .

المسألة الثانية : بيع الدين لغير المدين بثمن حال .

هذا البيع جائز على الصحيح الذى فيه مصلحة راجحة لقوله صلى الله

عليه وسلم : « من ابتاع دينا على رجل فصاحب الدين أولى به إذ أدى فعل ماأدى صاحبه » .

وقول المانعين : إن فيه مخاطرة لأن الدائن لايقدر على تسليم المبيع للمشترى . هذا إذا لم يكن الدائن مليئاً ، أما إذا كان يمكنه السداد ، فلا بأس لأن فيه تيسير للطرفين .

المسألة الثالثة : بيع الدين من غير المدين بثمن مؤجل .

كأن يكون لشخص على آخر دين قدره عشرون جنيهاً ليشترى بها من ثالث أربعة قناطير من القطن يأخذها من بعد شهر . أجاز ذلك ابن تيمية وابن القيم .

المسألة الرابعة : بيع الكمبيالات .

البيع الجارى الآن فى المصارف غير جائز لأنه مشتمل على الربا .

نعم إن كان المدفوع فى السند من غير جنسه ، كما لو كان الدين نقدا فيبيع بثوب أو عقار أو نحوهما كان البيع جائزاً .

والقاعدة أن كل معاملة خلت من الربا هى جائزة نعم إذا كانت الزيادة يسيرة فى نظير التعب فلا بأس بها .

القصاص رحمة للمقتول لاقسوة

واقد شرع الله القصاص من القاتل الظالم ، وجعله حقا ثابتاً لولى المقتول المظلوم يطالب به ويستوفيه له الحاكم ، وليس لأحد أن يحول بين الولى وبين المطالبة بالقصاص واستيفائه ولكن لايجوز للولى أن يسرف فى أمر القتل ، بأن يتجاوز الحد المشروع ، كأن يمثل بالقاتل أو يقتل غير القاتل من أقاربه ، أو يقتل اثنين بدل واحد .

هذا ولما كان القصاص يقلل من القتل أمر الله به ، وبين حكمته فى قوله تعالى :

« وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »[1]

أى تتقون القتل ، وقد عطل القصاص بعض دول الغرب واهمين أنه قسوة ولكنهم وجدوا فى تعطيله أشد قسوة إذ كثرت حوادث القتل كثرة مريعة فرجعوا إلى مشروعية القصاص ، وما يزعمونه قسوة إنه رحمة ففيه حفظ الأمن وصون العرض والمال وإنما القسوة تكون من التعدى على الآمنين الذين يستحلون الدم لحاجة فى نفوسهم .

٢ — اليتيم من الأجناس البشرية :الصغير الذى فقد أباه ،وفى الحيوان الذى فقد أمه ، فقول الله تعالى :

---

(١) سورة البقرة ١٧٩

« وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلا بالَّتِي هِيَ أَحْسَن حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ »[1]

مبالغة فى التحذير حيث نهى عن القرب ، لأن القرب من الشىء يفضى عادة إلى الوقوع فيه ، والمعنى لا يتصرف أحد فى مال اليتيم إلا لحفظه وصيانته واستثماره وإنمائه على الوجه المشروع الذى أحله الله تعالى حتى يبلغ اليتيم أشده ويصل إلى تمام عقله وذلك بأن تتوسم فيه علامات التمييز بين النافع والضار ، والحرص على ماله وحينئذ تدفع إليه ماله يتصرف فيه ثم إن المسئول عن مال اليتيم هم الأوصياء والحكام المشرفون على الأوصياء يحاسبونهم على تصرفهم ، ولقد أسست الحكومة المصريه مجالس حسبية لكل من لا يحسن التصرف ولكن واأسفاه لها تصرفات غريبة ليست فى صالح اليتيم وقد ختمت هذه الآية بقوله تعالى :

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً »[2]

يحذر الله تعالى الأوصياء بأن ما أخذه الله عليهم من حفظ مال اليتيم يسألون عنه يوم القيامة .

٣ — إيفاء الكيل والميزان : أمر الله تعالى بإيفاء الكيل فيما يكال وإيفاء الميزان فيما يوزن ، ثم بين جل وعلا الحكمة الإلهية التى لأجلها أوجب الإيفاء فى الكيل والوزن فأخبرهم أن ذلك لأمرين جليلين .

الأول : أن إيفاءهما خير أى وصف حميد محبوب يرغبه العقلاء .

---

(١) سورة الأنعام ١٥٢

(٢) سورة الإسراء ٣٤

الثاني : أنه أحسن تأويلا ، وأحمد مآلا وأطيب ما فيه في الدنيا والآخرة

أما في الدنيا فإن ذلك يكسب صاحبه الشهرة بالأمانة ، ويوجب الرغبة الصادقة في معاملته فتربح تجارته .

وأما في الآخرة فيكون قدوة لغيره ، والدال على الخير له من الأجر مثل من اتبعه ولا ينقص من أجره شيئاً .

مثال من أروع الأمثال :

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ »(١)

شيخ كبير قد عجز عن الكسب،ومعروف أن الإنسان يشتد حرصه عند كبر سنه وله ذرية ضعفاء لا يقدر على الكسب،أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا .

والشهوات والمعاصي أفاع مهلكة وسموم قتالة وإن نهى الشارع عنها كنهي الوالد ولده عن الوجود بشاطىء البحر خوفا عليه من الغرق فهي كالسم في العسل طعمه لذيذ ، ومن ورائه الهلاك الشديد ، والمعاصي وإن كانت مشتهاة للنفس ولكن العقل يقبحها وإن مكافحتها بقانون يجعل لها من اللذة والإغراء مايدفع الكثيرين إلى مقارفتها كما قيل : أحب شيء إلى

(١) سورة البقرة ٢٦٦

النفس ما منع . وكما قيل : لو حرم على الناس جماجم الجلر لقال قائل : لو أذوقه .

فى بعض الآثار عن الكتب السابقة : ابن آدم خيرى إليك نازل ، وشرك إلىّ صاعد ، أتحبب إليك بالنعم وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلىّ بالمعاصى وأنت فقير إلى ولا يزال الملك الكريم يأتى إلىّ منك بكل عمل قبيح قال صلى الله عليه وسلم ما نقصت صدقة من مال. وما زاد الله عبداً عفوا إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه قال صلى الله عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، كلكم عباد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى » قال صلى الله عليه وسلم : « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم : « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله » وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله ماالنجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك » .

المعنى الإجمالى : اسع فى معاشك أو فى مصلحة أحد أو كن فى بيتك لراحة جسمك وواجب أهلك أو مشتغلا بالعلم أو فى المساجد تعبد الله تعالى قال صلى الله عليه وسلم : « قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه إن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح — البخارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا وقال أيضا « شر الناس علماء السوء » وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا وقال صلى الله

عليه وسلم : « لو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم ييأس من النار » وقال أبو الدرداء : لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما . وقال رجل لسلمان لقد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخراءة .

ومما يؤسف له أن من رجال الأزهر قد امتدت إليهم هذه اللوثة لوثة التقليد الأعمى وتحسين البدع ، والأزهر منارة الإسلام ومثابة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها والقائم على حفظ الشريعة الغراء فنجدهم لا يقومون بالأمانة التى استحفظوا عليها يؤثرون رضاء الخلق على رضاء الخالق فانزلق البعض إلى مزالق لا يؤمن شرها ، ولا يؤمن عواقبها .

ويرحم الله القائل :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته الفهم السقيم
ومن يك ذا فم مريض يجد مرارة الماء الزلالا
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

من توجيهات القرآن الكريم

« وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً . وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً . وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً »(1)

معنى المفردات : الولى : من يتولى أمره وهو الوارث أو الحاكم إن لم يكن له وارث ، سلطانا : تسلطاً وسيطرة على القاتل ، فلا يسرف : فلا يتجاوز الحد المشروع ، الأشد : كال القوى العقلية والحسية ، القسطاس : الميزان، تأويلا : مآلا وعاقبة ، ولا تقف . لا تتبع ، مرحا : تكبراً وخيلاء، تخرق الأرض : تثقبها إلى الجهة الأخرى بقدميك .

١ — المعنى الإجمالى : — قتل النفس من أكبر الكبائر ، ولا يحل

---

(1) سورة الإسراء ٣٣ — ٣٨

فى شريعة من الشرائع السماوية أولا الوضعية ، ولم نجد معصية ورد فيها الوعيد الشديد فى القرآن الكريم والسنة النبوية مثل قتل النفس وأكتفى بالآتى : قال تعالى :

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً »(١)

وفى السنة فى حديث رواه الترمذى والنسائى عن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم » ولعظم هذه الجريمة جعل الله تعالى التعدى على نفس واحدة كالتعدى على سائر النفوس ، كما أن احترام نفس واحدة كاحترام سائر النفوس ، قال تعالى :

« مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً »(٢)

وصدق الله : فإن الشخص قاسى القلب ، غليظ الكبد ، الذى تغلبت عليه رذيلة الغضب والخبث إذا استباح قتل نفس واحدة ، فمن السهل عليه

---

(١) سورة النساء ٩٣
(٢) سورة المائدة ٣٢

أن يستبيح سفك دماء كثيرة ، وإذا كان جزاء نفس واحدة النار فما بالك بمن زاد عليها .

نعم جاء فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لاإله إلا الله إلا إحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

قال تعالى :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »(١)

هذا ومن معجزاته أنه عالج أمة عريقة فى الشقاء ، وحمئة الجاهلية ، فرفعها وجعل لها السيادة وسادت الأمم من بدو وحضر ، مع أنها كانت أمية ، وقد تجلت معجزات كثيرة فى عصر العلم منها قوله تعالى :

« يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ »(٢)

ومعروف أن التكوير عبارة عن إدارة الشىء على الجسم الثقيل ، ومنها قوله تعالى :

« وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا »(٣)

والدحو دحرجة الشىء الكروى . ومنها قوله تعالى :

---

(١) سورة فصلت ٥٣
(٢) سورة الزمر ٥
(٣) سورة النازعات ٣٠

« سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ »(١)

وكذلك تلقيح الزرع بالرياح ، وما كان هذا معروفاً عند العرب .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :

« أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »(٢)

فقد أثبت العلم الحديث أن الأرض شظية من شظايا الشمس .

ومن معجزاته أيضا أنه ثبت أن السحاب فيه قوة السالب الموجب فعندما تتصادم سحابة بأخرى يتولد من احتكاكهما نوع من الكهرباء ، تلمع فى وجه السماء وهو مايسمى بالبرق .

ومنها قوله تعالى :

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى

---

(١) سورة يس ٣٦

(٢) سورة الأنبياء ٣٠

السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »[1]

فمن المعجزات أن يأتى القرآن بما اكتشف فى عصر العلم بأن هذه الكائنات وجدت بالتدريج إذ أن المراد باليوم الزمن الذى فيه كائن من الكائنات ، فاليوم الأول كانت دخاناً حين فتقت من رتق المادة العامة التى خلق منها كل شىء مباشرة أو غير مباشرة ، واليوم الثانى هو الزمن الذى كانت فيه مائية واليوم الثالث الذى تكونت فيه ، واليوم الرابع هو الزمن الذى ظهرت فيه الأحياء من الماء .

فهذه الأطوار قد تكون متداخلة : أما السماء فقد سوى أجرامها من مادتها الدخانية فى يومين أى زمنين كالزمنين الذين خلق منهما جرم الأرض .

---

(١) سورة فصلت ٩ — ١٢

العدالة الإلهية فى قسم الأرزاق

اقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يجعل للرزق أسبابا ، بيد أن تلك الأسباب منها ما يحتاج إلى جهد جهيد ، ومنها ما يأتى من غير كد ولاعناء طويل ، فالأولى هى الركن الركين وعليها عماد الكون ونظام الحياة ، وكلما كان السبب أقوى كان الرزق أوسع ، ولنضرب لذلك مثلا : التاجر الذى يخلص فى تجارته فينتقى سلعته ، ويحسن معاملته ، ويتذرع بالصبر الجميل ولا يركن إلى الكسل والخمول ويربأ بنفسه عن الكذب فى القول ،والغش،والتدليس، لجدير به أن تنفق سلعته وتروج تجارته مسلماً كان أو كافرا ، وهكذا الشأن فى جميع وسائل الأرزاق ، وها هو ذا القرآن الكريم يقرر ذلك فى أوجز عبارة وأروع أسلوب فى سورة النحل :

« لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ »

(تفاوت الناس فى الميول وتفاضلهم فى الأرزاق أساس الحياة)

تفاوت الناس فى الميول مشهود لا ريب فيه ، ولقد نلمس ذاك الميل فى العهد الأول من طور الطفولة فهذا طفل يميل إلى العمل الجسمانى ، وآخر يميل إلى العمل الفكرى وهكذا وبذلك ينبغى أن يوجه الآباء أبناءهم الحياة العملية على هذا الأساس وذاك الميل ، ومن الآباء من لا يفطنون إلى هذه الظاهرة ، فيوجهون أبناءهم إلى غير ما فطروا عليه ويكلفونهم بما ليس فى طبيعتهم فيرهقون أولادهم ويفقدون ثمن تربيتهم وربما كانت العاقبة الفشل والخسران .

بهذا التفاوت قام العمران وانتظم الكون قال تعالى :

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً »

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) هود . ترى الآية الشريفة إلى أن الله تعالى قادر على أن يوجه الناس كلهم إلى دين واحد ليس فيه اختلاف لكنه لم يفعل لأن هذا يخالف الحكمة بل جعلهم مختلفى الميول ولذلك أعنى اختلافهم فى الميول خلقهم فنهم من يختار اليهودية ومنهم من يؤثر النصرانية ومن الناس من يشق طريقا له فى اختياره إلى المهن الحقيرة وغيره يأباها وهكذا وكل من هؤلاء وهؤلاء يرى سعادته فيما اختاره ، حكمة الحكيم الخبير فى تدبير الكون .

أما التفاضل فى الأرزاق فنها ما يرجع إلى قوة الأسباب وهو الأكثر

كما ذكرنا ومنها ما يجيء من غير سبب نأتيه أو طريق نسلكه كالأرزاق التى تأتى من طريق الميراث ومن طريق الهبات والتبرعات ، ومنها ما يأتى من أسباب غير منتظرة كارتفاع الأسعار طفرة على التجار وقت الحروب ومنها ما يأتى من أسباب يسيرة فان من الناس من تراه أقل كفاية وعملا ورزقه واسع ممن هو أعظم كفاية وأكثر عملا ، فهذا فى شظف من العيش وذاك فى بسطة ودعة . ففى النوع الأول يتجلى العدل الإلهى بأجلى مظاهره وما عداه يحتاج إلى نظر واستدلال وفكر وإمعان فنقول أولا إن هذه أمور شاذة نادرة لا حكم لها فى باب العموميات كما هو ثابت فى نظر الشرع الشريف ، والعمل السليم .

ثانياً : إن هذا التفاوت إنما هو ضرورى لنظام الحياة وقوام المجتمع فلو تساوت الناس فى الأرزاق من الذى يخرج لنا من الأرض حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ؟ ومن الذى يشق لنا الأنهار ، ويبنى الجسور ، ويعبد الطرق ، ويصنع لنا رغيف الخبز ؟ ومن الذى يخاطر بنفسه فيقتحم البحار ويغوص فى الماء ليستخرج اللؤلؤ والمرجان ؟ ومن الذى يختار لنفسه المهن الحقيرة فيرضاها لنفسه . ومن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل كل واحد مقبلا على عمله ببهجة نفس ، وقرة عين ، ويرى أن سعادته فى عمله مهما كان فيه من مشقة وإعنات ، وفوق هذا وذاك أن الله تعالى لم يضيع أعمالهم سدى بل سيوفيهم أجورهم يوم القيامة إذ كل ما يبتغيه الإنسان فى الحياة الدنيا ولم ينله لابد أن يجده فى الآخرة قال تعالى فى سورة النور :

« يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ »

الدين : الجزاء ، وفى سورة الشورى :

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُم فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً »

أى ليسخر بعضهم بعضا فى أمور المعيشة .

ثالثاً : إن الله تعالى يحب أن يعبد بجميع أنواع العبادات ، فعبودية صبر الفقير وصدقة الغنى وعتقه وإيثاره وبذله لن يكون ذلك إلا بالتفاضل فى الأرزاق ولولا هذا التفاضل لتعطلت عبودية الصبر والصدقة والعتق والإيثار والبذل .

رابعاً : الابتلاء يبتلى الله تعالى الأغنيا. بالفقراء والفقراء بالأغنياء قال تعالى فى سورة الشورى :

« وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ »

المعنى : جعلكم يخلف بعضكم بعضاً فى الأرض وفاضل بينكم فى المال والجاه وغير ذلك ليختبركم فيما آتاكم . وفى سورة محمد :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ »

وفى سورة العنكبوت :

« وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ »

على أن هنا حقيقة لا ينبغى إغفالها وقد خفيت على كثير من الناس، وهى أن هذا التفاضل فى قسم الأرزاق كما أنه لمصلحة المجتمع تارة يكون لصالح الأفراد وهذا كثير مشهود . إن من الناس من يصلحه قلة المال فإن كثر يفسده ، ومن الناس من يصلحه كثرة المال ولو قل ماله لفسد ، فقد روى البغوى وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه تعالى « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك إنى أدبر عبادى إنى بهم خبير بصير » عدة الصابرين لابن القيم .

وقال تعالى فى سورة الشورى :

« وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ »

ألا فلا يغتر مغرور بماله ولا يأسف فقير على فقره ، فرب مال ورث صاحبه ندامة فى الدنيا وعذابا فى الآخرة ورب فقر ورث صاحبه عزا وقناعة وبهجة نفس وقرة عين فى الدنيا ونعيما دائماً فى الآخرة .

قال أبو حازم « نعم الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمه فيما أعطانى منها ، إنى رأيته أعطاها قوماً فهلكوا ، وكل نعمة لا تقرب من

الله فهى بلية ، وإذا رأيت الله تعالى يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره »
يؤيد ذلك ما قاله الرسول صلوات الله وسلامه عليه « يأيها الناس هلموا إلى
ربكم فإن ماقل وكفى خير مما كثر وألهى » أحمد . الترغيب والترهيب .

وفى سورة الفجر :

« فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ . كَلَّا »

تبين لنا الآية الشريفة أن تقتير الرزق على الإنسان ليس من سخط الله
تعالى ولا إهانته ، ولا سعته وبسطه من رضاء الله تعالى ، وإنما هو ابتلاء
من الله تعالى .

وفى سورة المؤمنون :

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ »

وهنالك حقيقة قد غفل عنها كثير من الناس وهى أن الله قد عوض
الفقير خيراً مما فقده من المال ، وهذا العوض هو نعيم القلب وبهجة النفس
وقرة العين فتراه دائماً فى أنس ، ومن فرط راحة الجسم يغنى طرباً وفرحاً
بما هو فيه ، لايحلم بها صاحب القصر المشيد والمال الوفير .

سبحانك ربى ما أعدلك وما أعظم حكمتك ، فاضلت بين عبادك فى الرزق

ولم تجعل التفاضل فى الرزق مقياساً للرضا أو السخط ، أو الشقاء أو النعيم .

فهذا متمتع بجسمه وشقى بقلبه وروحه وذاك شقى بجسمه ولكنه متمتع بقلبه وروحه ، ثم تقبضهم إلى رحمتك فتوفيهم أجورهم يوم القيامة بعد أن يبلغوا الأجل الذى أجلته لهم فى الحياة الدنيا ، تباركت من رب قدير قلت وقولك الحق :

« وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ »(١)

فما كان لأحد بعد هذا أن يرتاب فى عدل الله ، ولاسيما إذا اقترن بهذا أن الحياة الدنيا ليست دار جزاء وإنما هى دار عمل ، فالمؤمن إذا لم ينل حظه فى الدنيا فإنه يناله فى الآخرة ، ولن يضيع الله تعالى على العامل عمله ، ولا على المحسن أجره ، نعم ، الكافر يأجره الله تعالى فى الدنيا ، ويخفف عنه عذابه فى الآخرة لحسب .

فقد أخرج ابن جرير بسنده فى آية :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ »(٢)

أن النبى صلى الله عليه وسلم قال (ما أحسن من محسن مؤمن أو كافر إلا وقع ثوابه على الله فى عاجل دنياه وآجل آخرته) وكما رواه البزار عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما أحسن

---

(١) سورة المؤمنون ١٧

(٢) سورة الزلزلة ٧

من محسن مسلم ولا كافر إلا أثيب ، قلنا يارسول الله هذه إثابة المسلم قد عرفناها فما إثابة الكافر ؟ قال : إذا تصدق بصدقة أو وصل رحماً أو عمل حسنة أثابه الله ، وإثابته المال والولد فى الدنيا وعذاب دون عذاب فى الآخرة ، وقرأ

« أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »(١)

مجمع الزوائد للهيتمى باب الصدقة

فالكافر ليس له نصيب فى الآخرة كما قال تعالى :

« وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً »(٢)

سوى تخفيف العذاب عنه فقط بمقتضى العدل الإلهى ، وهذا الجزاء المذكور إنما يقرره العقل السليم والفكر الصحيح إذ أن العبد الذى كفر بسيده فماذا ينتظر منه بعد ذلك ؟

---

(١) سورة غافر ٤٦

(٢) سورة الفرقان ٢٣

النهى عن البحث فى القدر

هذه نقطة من بحر أو خردلة من مهمه قفر بالنسبة لحكم الله تعالى ، فان العقل البشرى مهما بلغ من الارتقاء ووصل من السمو ، لايدرك أسرار الكون وحكم الله تعالى ، كيف وقد خفيت حكمه على كليم الله موسى بن عمران فأنكر على الخضر وهو مثله فى النبوة ، خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار مع أنه موفد له من قبل الله تعالى ، وقد أخذ عليه العهد ألا يسأله عن شىء حتى يحدث له منه ذكراً .

فتفاوت الناس فى الأرزاق وقصر الآجال وطول الأعمار وقلة الأولاد وكثرتها وفقد الحواس ودمامة الوجه وغير ذلك ، لايدرك كنهه ولا حقيقته إلا خالقها وربها ، لهذا نهينا عن البحث فيها والخوض فى حكمتها .

فى مصابيح السنة للإمام البغوى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه وقال : أبهذا أرسلت لكم ، إنما هلك من قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه. وقد سئل فى ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : بحر عميق لاتلجه ، كرر عليه السؤال ثانياً فقال : طريق مظلم لاتسلكه ، كرر عليه السؤال ثالثاً فقال : (سر الله قد خفى عليك فلا تفشه) فأنت ترى من هذا أننا نهينا عن سر القضاء ، أى يارب لم بسطت الرزق لفلان وقدرته على آخر ، ولم جعلتنى أعمى ولم أكن بصيراً ، وهكذا

فكل ذلك محظور على الإنسان أن يخوض فيه ، لأن العقل البشرى يعجز عن الوصول إليه بنفسه .

« وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً »(١)

---

(١) سورة الإسراء ٨٥

السحر وحقيقته

لقد حظرت شرائع الله تعالى تعاليم السحر والعمل به وشددت عقوبته حتى جعلته الشريعة الموسوية كعابد الصنم ، وقد ذكره القرآن الكريم فى مواضع العبرة ومواطن الهداية والإرشاد وإلى تجنبه والبعد عن تعلمه لأنه لايكون إلا من أهل الكفر والفسوق والعصيان وكلما كان الساحر أكفر وأخبث كان سحره أقوى أثراً وأعظم خطراً ، ولا يكون ذلك إلا بمباشرة أسباب تقرب الساحر من العالم السفلى وتبعده عن العالم القـــدسى كالذبح بأسمائهم ومناجاتهم ، وتلاوة العزائم والأقسام بأسماء ساداتهم وكتابة بعض الآيات القرآنية بالنجاسات وعدم التطهر . بهذه الأسباب يستطيع الساحر أن يستخدم المتمرد من الجن فى قضاء حاجاته ويكلمه فيرد عليه فينخدع الحاضرون بهذه الإمدادات الشيطانية ويظنون أن هذا الكلام الذى ينطق به الجن من الجماد ، وغيره .

والشواهد فى ذلك كثيرة منها أن عبد القادر الجيلانى كان فى خلوته وإذا بصوت من السماء يرن فى أذنيه فنظر فى السماء فوجد سحابة أظلته ، ويسمع نداء من خلالها ياجيلانى حرمت لك كذا وأحللت لك كذا فقال الجيلانى إخسأ عدو الله فإنك شيطان ، لأن شريعة سيدنا محمد خالدة ، فقال الشيطان غلبتنى بعلمك ياجيلانى ، فمن هذا نعلم أن من ينادى أهل القبور ، ويسمع الإجابة عنهم فإن هذا من إجابة الشياطين لأن دعاء الغائب محرم باتفاق أئمة المسلمين سلفهم وحاضرهم ، وفى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم : قال له « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله إلخ » للنووى فى الأربعين .

ومن هذه الشواهد الحديث الصحيح « أن الشيطان تمثل فى صورة سراقة وتقدم للمشركين فى غزوة بدر الكبرى وقال إنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبية وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون) .

وسأبين للقارىء البون الشاسع بين السحر والمعجزة فيما يلى إن شاء الله وقد حكى القرآن الكريم فى سورة الجن مايؤيد ذلك فقال :

« وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »

أى طغياناً وإثماً وشراً وقد نفقت سوق هذا العلم عند أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وأهل مصر القدماء وغيرهم ، وكانت لهم فيه دراسات واسعة ، ولم يعثر الباحثون على شىء مما كتبوه سوى كتاب يدعى (الفلاحة النبطية) ومنه أخذ العلم .

أسباب السحر وكيفية تأثيره

١ـ الإتصال بعالم الجن بعد أن يتقرب إليهم الساحر بأنواع من القرب كما ذكرنا آنفاً فيستخدمهم فى نقل بعض الأمتعة ، وتلاوة ما كتب من وراء ستار ونقل بعض الاخبار ، وأنبه القارىء إلى أن هذا ليس من علم الغيب فى شىء وإنما هو علم شهودى، فمثلا علم الطب عند من درسه يكون علما شهوديا ، وعند من لم يدرسه يكون علما غيبيا فهذا كله من الغيب النسبى . أعنى أنه علم غيبى لمن لم يدرسه ويعرفه وعلم شهودى لمن درسه وتعلمه ، أما الغيب المطلق فهو ماوراء عالم الشهادة مما لايدخل تحت الحواس الخمس وهى الشم والسمع والبصر والذوق واللمس كأمور الآخرة ومايجرى على العوالم الحية فى مستقبل الزمان فإن الحيوان فى تغير دائم فلايعلم مداه وحركاته إلاخالقه وأماعالم المادة فإنه يدخل تحت علمنا إذ أنه خاضع لقانون ثابت لايتغير فمثلا حركة الأفلاك من يوم أن خلقها الله هى هى لم تخرج عن طورها ولم تتجاوز حدودها ، فالعالم بتنقلاتها ومقادير حركاتها فى مستقبل أمرها لا يوصف علمه بالعلم الغيبى لأنه علم ناشىء عن حساب وتقدير فاذا أخبر عالم الهيئة بأن الشمس ستدخل فى الكسوف والقمر سيدخل فى الخسوف وحدد الدقيقة والساعة ماكان ذلك غيبا وإنما هو علم شهود .

وذلك كإخبار سكة الحديد بأن قطار الحجاج مثلا يصل إلى بور توفيق الساعة كذا فأنت ترى أن هذا الخبر ناشىء عن تجارب وحساب ، فكذلك حركة الكواكب غير أن حركة الكواكب من تقدير العزيز العليم لاتتأخر

لحظة ولا تتقدم أخرى ، أما قطار سكة الحديد فتارة تعتوره عوائق فتؤخره عن الميعاد كما إذا أصابه خلل أو عائق طبيعي كالمطر .

أما الغيب المطلق فهو لله وحده ، نطق بذلك القرآن والسنة ، وفي سورة الأعراف :

« وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ »

وفي الحديث الشريف عن عائشة رضى الله عنها « من زعم أن الرسول يعلم الغيب فقد أعظم على الله الفرية ، لأن الله يقول :

« قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ »[1]

من هذا لاتغتر بهذه الطائفة التي أطلقت على نفسها أنها اختصت بعلم روحاني يوهمون الناس به أنهم يعرفون كنوز الأرض مع أنهم في فقر مدقع فيكتبون حجبا وتمائم مشتملة على طلاسم وأسماء من شياطين الجن وربما يذكرون فيها شيئا من القرآن لإزالة الريبة عنهم والشك في عملهم ويدعون أن فيها خاتم سليمان عليه السلام الذي يقي حامله من شرور الإنس والجن وهؤلاء يجدون مرتعا خصبا في القرى فكم من أموال ابتزوا وكم من أعراض هتكوا ، الله يتولى حسابهم وهو أسرع الحاسبين ، احذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون .

---

(١) سورة النمل ٦٥

وقد ثبت فى الصحيحين مايفند مزاعمهم ويدحض حججهم أن عائشة قالت « سأل أناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال لهم النبى ليسوا بشىء قالوا يارسول الله فانهم يحدثون أحيانا بشىء يكون حقاً فقال الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرها فى أذن وليه قر الدجاجة فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » .

وكذلك جاء فى الصحيحين أن رجلا يسمى ابن الصياد كان يبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم مايدعيه من الكهانة ويتعاطاه من الكلام فى الغيب فامتحنه الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلم حقيقة حاله ويظهر بطلان مدعاه للصحابة وأنه كاهن ساحر يأتيه الشيطان فيلقى على لسانه ماتلقيه الشياطين إلى الكهنة فامتحنه باضمار قول الله تعالى فى سورة الدخان :

« فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ »

وقال له قد خبأت لك خبئا فقال ابن الصياد (دخ) فقال الرسول « اخسأ فلن تعدو طورك » وتتجاوز القدر الذى يدرك الكهان من الاهتداء إلى بعض شىء بواسطة الجن التى تسترق السمع أو تسمع حديث النفس وهذا ليس خاصاً بك بل فى الكهان .

النوع الثانى من أسباب السحر : إن الساحر قد تكون عنده خاصة روحية وقوى نفسانية جبلية فإن عالم الأرواح يتفاوت فى القوى كعالم الأجسام بل عالم الأرواح أقوى، وتقوى هذه الخاصة بأنواع من الرياضات وتناول اليسير من النباتات وتوجد هذه الطوائف بكثرة فى بلاد الهند فقد أخبرنى من لاأشك فى خبره أنه رأى فى الهند من يسلط روحه على القطيع

من الغنم فيبعج وهكذا ولا عجب فى ذلك فإن هذه من الأسباب الكونية التى جرت العادة بأن تحصل المسببات من ضر أو نفع عند حصولها بإذن الله تعالى كما إذا وضع الزارع بذرة فى أرض مغصوبة فان الأرض تنبت نباتها وإن كان السبب غير مشروع فكذلك السحر فهو راجع لسنن الأسباب والمسببات بيد أنها تارة تكون ظاهرة وطوراً تكون خفية وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن نستعيذ من هذا النوع فى قوله تعالى :

« وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ »(١)

أعنى الخيوط التى تعقدها النفوس الشريرة ذات الأرواح الخبيثة فتنفث فيها فيتصاعد منها أرواح خبيثة فينعقد السحر .

---

(١) سورة الفلق ٤

(حكم الشرع فيه القتل)

فقد ورد فى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال فقتلنا ثلاث سواحر .

وصح عن حفصة رضى الله عنها أنها « أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت » ذلك لأنه شرك بالله وضار بالانسانية فمن حديث أبى هريرة الذى خرجه النسائى « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه » .

طرق الوقاية منه

من أراد أن يقي نفسه من السحر فليكثر من ذكر الله تعالى ولا سيما آيات التعاويذ والأذكار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فما ورد في الموطأ أن كعبا قال كلمات حفظتهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حمارا « أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظم منه وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وبأسماء الله الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم من شر ما خلق وذرأ وبرأ » فكل ما يصيب الانسان من أضرار خفية ليس للإنسان سبيل لدفعها سوى الالتجاء إلى الله تعالى .

أما حل السحر بمثله وهو ما يسمى بالنشرة فلا يجوز ، فقد روى الإمام أحمد بسند جيد وأبو داود عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة فقال « هي من عمل الشيطان » لأن ذلك يرجع إلى التقرب إلى الشياطين .

نعم حل السحر بالرقية الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم والتعوذات والأدعية ، والدعوات فهو جائز .

التنويم المغناطيسى

يصح أن نتجاوز ونسميه سحرا باعتبار أن أسبابه خفية فيرجع إلى تأثير روح قوى فى روح ضعيف آخر كما ذكرنا فى عالم الأرواح فترى المنوم يختار شخصا ذا روح ضعيف فيسلط روحه القوى عليه فيوقع جوارحه فى سبات عميق حتى يفقد إحساسه وشعوره فلا يحس بوخز فى جسمه ، ولو قرض جسمه بمقاريض من حديد ، فعند ذلك يتنبه الروح ويتيقظ وينسلخ من حجاب الجسم الكثيف فيرجع إلى الخاصة التى أودعها الله تعالى فيأتى بأمور مدهشة ويخبر عن أشياء غيبية فى نظرنا وهذا فى الحقيقة من عالم الشهود كما أسلفنا فرب غيبي عند شخص يكون شهوديا عند آخر ، أما الغيب المطلق فهو لله تعالى كما توضح ذلك فيما سبق .

مراتب السحر

تارة يكون تأثيره فى الإحساس فحسب ، فيخيل للمسحور أنهارا وحيات تسعى والواقع على خلاف ذلك فهذا التصرف فى نفس الرائى وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ماهو به، وتارة يتصرف فى المرئى باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها فيجعل المحبوب إليه بغيضا والبغيض محبوبا وغير ذلك من التأثيرات المعروفة ، وقد قال تعالى عن سحرة فرعون فى سورة الأعراف .

« سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ »

فبين سبحانه أن أعينهم سحرت وذلك إما أن يكون لتغيير حصل فى المرئى وهو الحبال والعصى وذلك باستخدام الأرواح الشيطانية فى تحريكها فظنوا أنها تحركت بأنفسها وهكذا كما إذا جر من لا يراه حصيراً مثلا ينجر ولا يرى الجار له مع أنه هو الذى يجره فهكذا حال الحبال والعصى لبستها الشياطين فقلبتها كتقليب الحية فيظن الرائى أنها تقلبت بأنفسها والشياطين هم الذين يقلبونها .

الفرق بين السحر والمعجزة

المعجزة خارقة للنواميس الكونية والسنن الطبيعية والسحر خاضع لمزاولة أسباب خفية فهو صناعة مخصوصة يحتاج صاحبها إلى الأخذ فى أسباب غير مشروعة وتحتاج إلى تعلم وإرشاد ونوع من الرياضات ولا تخرج عن نطاق العقل البشرى مهما كان له من التأثير ، أما المعجزة فتأثيرها أقوى وأشد من السحر ولا تتوقف على مزاولة أسباب وتعليم وإرشاد لأنها إمداد من الله تعالى تأييداً لأنبيائه لتكون شاهد صدق على إثبات نبوتهم .

يؤيد ذلك ما كان من سحرة فرعون لما انقلبت عصا موسى حية وتلقفت ماصنعوا فقد خروا لها ساجدين وقالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون الحق أن الذى دفعهم إلى ذلك هو علمهم بأن موسى لم يعرف السحر ولم يتعلم فنونه لأنه تربى بين ظهرانيهم وهم قد تعلموه ونبغوا فيه .

وجدير بمثل هذا أن يكون مؤيداً من قوة أخرى تلك هى قوة الله تعالى التى تنتهى عندها كل قوة وتتلاشى لديها كل عظمة . فكفر السحرة بفرعون وإيمانهم بالله تعالى أمر طبعى اقتضته الفطر الإنسانية التى أطفأ نورها طغيان فرعون وكهانته ولكنها مالبثت أن ثابت إلى رشدها ورجعت إلى معدنها الصافى وهو إيمان الفطرة التى ترجمت عنه ألسنتهم :

« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين »

التحقيق فيما قيل في هاروت وماروت

قال تعالى :

« وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »

البيان والتأويل

(تتلوا) تتبع (على ملك سليمان) : على عهد سليمان (وما كفر سليمان): بعمل السحر لأنه كفر (أنزل على الملكين) الهماه (بابل) : بلدة في سواد العراق (هاروت وماروت) : ملكان أرسلا للابتلاء (باذن الله) : التخلية بينهم وبين ما يبتغون (اشتراه) : اختاره (خلاق) نصيب .

منذ أن انبثق نور البعثة المحمدية وتفجر معينها من صخور مكة واليهود يكيدون للإسلام كيداً ويدخلون في كتب التفسير حكايات لم تنطبق على

الفكر السليم ولا العقل الصحيح ولا يصدقها الوحى الالهى الصادق ، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى مكنهم من ذلك تظاهرهم بالإسلام فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . من ذلك ماقالوه فى هاروت وماروت . أنهما ملكان اختبرهما الله تعالى فركب فيهم الغرائز الطبيعية فشربا الخمر وسفكا الدماء فكان عاقبة أمرهما أن انتقم الله منهما فعلقا من شعورهما فى بئر ببلاد بابل ولا يزالان فى هذا العذاب الواصب والهم الدائم حتى تأتيهم الساعة ، وهذا قول على الله بغير علم وتنقيص من قدر الملائكة الذين هم جنود الله تعالى فى الأرض وأمناء على وحيه وسفراء على رسله لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ذلك لأنهم من العوالم المسخرة التى ليس لها من نفسها اختيار كالانسان ، والتحقيق أنهما ملكان أرسلهما الله تعالى بعد أن ألهمهما السحر فتنة وامتحاناً للناس ومايعلمان أحداً من الناس حتى ينصحاه قبل التعليم ويقولا له إنما نحن امتحان وابتلاء من الله عز وجل فمن عمل بما تعلم منا كفر ، ومن تنحى عن تعلمه والعمل به سلم من شره ، فكانت النتيجة أن تعلم كثير من اليهود السحر ليفرقوا بين الزوج وزوجته بايجاد العداوة التى توجب التفرقة بينهما بمزاولة أسبابه التى ذكرناها آنفاً من الاستعانة بالأرواح الخبيثة والعزائم والرقى غير المشروعة وهى التى تكون بألفاظ غير عربية أو بألفاظ عربية ولكن فيها استعانة بمخلوق .

أفادتنا الآية الشريفة أن السحر له حقيقة وآثار فى الواقع لا فى المخيلة

لحسب كما يزعم البعض ، ومن آثاره إحداث العداوة والبغضاء بين الرجل وزوجه فتفارقه ويفارقها .

« وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ »

ما هم إشارة إلى السحرة بضارين به من أحد إلا باذن الله ، المراد بالاذن ألا يقع قهراً عن الله بل لولا أن الله خلى بين العمل والتأثير من ربط الأسباب بالمسببات لما حصل التأثير ، ولو شاء عدم الضرر لفعل ولكنه تركه للسنن الكونية .

الضرر الذى يلحق السحرة عاجل وآجل : أما العاجل فهو سوء السمعة وسقوط الهمة وعدم الشرف ، وأما الضرر الآجل فهو فى الآخرة من عذاب الله تعالى وما يلاقيه فيه من الجزاء .

« وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »

المعنى أن هؤلاء السحرة قد حرموا نعيم الآخرة وحظهم من الجنة حيث آثروا هذه المتعة الطائشة وهذه اللذة العاجلة ، لذة السحر ونفعه القليل على ماعند الله تعالى من النعيم المقيم ولبئس ماصنعوا لو كانوا يعلمون .

الحسد والوقاية منه

ثبت الحسد بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية وبالتجارب العديدة .
قال تعالى :

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ »

وأما السنة فقد ورد فيها الكثير، ونكتفي منها بذكر حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « إياكم والحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب » رواه أبو داود بلوغ المرام .

وفى الصحيح عن أبي سعيد الخدرى أن جبريل أتى النبي صلوات الله وسلامه عليه قال يامحمد اشتكيت ؟ فقال نعم فقال باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك باسم الله أرقيك .

كيفيته وسببه

كيفيته : أن تتوجه نفس الحاسد إلى المحسود توجه استعظام وإعجاب مع تكيف نفسه بكيفية الخبث والغضب فتنبعث نار الحسد من قلبه إليه فيصاب المحسود بأذى فيسقط أو يحم أو غير ذلك مما هو مشهود ، فسببه شدة العداوة أو الإعجاب بالشيء واستعظامه ، فيتكيف الروح بكيفية خاصة فيؤثر فى المعين ، وهذا مايسمونه عيناً ، وقد جاء فى الحديث عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » بدائع الفوائد لابن القيم .

الحاسد والعائن

وهنا ينبغي أن نفرق بين الحاسد والعائن ، فان الحاسد اعم ، فكل عائن حاسد وليس كل حاسد عائنا ، وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها ، ولهذا جاء فى القرآن الكريم ذكر الحاسد دون العائن ، فقد يكون الرجل فى طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه ، فاذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله فيحدث للمحسود مايحدث ، وأما العائن فلا تتكيف نفسه إلا عند مقابلة المعين ومعاينته ، والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً ، وكلاهما راجع إلى النفس الخبيثة كالحية تارة يشتد غضبها وخبثها فتطمس البصر .

من هذا تعلم أن تأثير الحسد تأثير روحى وليس للأجسام فيه مدخلية ، فكما أن الأجسام لها تاثيرات فى عالم الحس كذلك الارواح ، بل هى أشد تأثيراً من الأجسام كما ثبت بالتجارب العديدة ، وهل الإنسان إلا بروحه وما الجسم إلا غلاف للروح كالثوب الذى يستر الجسم،وقد تكلمنا بإسهاب عن الأرواح وتأثيراتها العجيبة فى السحر فراجعه .

فهذا التاثير فى الحقيقة راجع إلى سنن الله تعالى الكونية فى ارتباط الأسباب بالمسببات ، فمثلا من وضع بذرة فى أرض مغصوبة ليس له حق فيها فإن الأرض تنبت نباتها وإن كان السبب غير مشروع فكذلك الحسد له

أسباب يباشرها الحاسد متى باشرها ترتب عليها آثارها وإن كانت الأسباب غير مشروعة فهي خاضعة لأسباب كونية خفية.

وقد قال جمهور المفسرين في قوله تعالى :

« وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ »

أنه الإصابة بالعين فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه قوم من العائنين وقالوا ما رأينا قبله ولا مثل حجته وكانت طائفة منهم تمر بهم الناقة والبقرة السمينة فيعينها ثم يقول لخادمه خذ المكتل والدرهم واتنا بشيء من لحمها ، فما تبرح حتى تقع فتنحر .

الحسد طبيعة الإنسان

قال تعالى :

« وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ »

تفيد أن الشخص فى طبعه الحسد ولا يكاد يخلو منه أحد ، كما فى الحديث الشريف الذى أخرجه عبد الرزاق مرفوعا « ثلاث لا يسلم منهن أحد : الطيرة والظن والحسد ، قيل فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ » سبل السلام .

معنى عدم البغى ألا يأخذ فى أسبابه فلا يعامل أخاه بما يكره ويجاهد نفسه على ماوقع فيها من حسد ويلزم نفسه الدعاء لصاحبه بأن الله تعالى يزيده من نعمه ويقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

قيل للحسن البصرى : أيحسد المؤمن ؟ قال ما أنساك أخوة يوسف .

ومن حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » البخارى .

أنواعـــه

وهو ينقسم إلى نوعين : أحدهما مذموم وهو بغض نعمة الله تعالى على المحسود وتمنى زوالها بأن يبقى على حاله وفقره أو ضعفه أوشتات قلبه عن الله أو قلة دينه . وهذا الحسد هو الذى ورد فيه الوعيد الشديد .

النوع الثانى : حسد الغبطة وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود ومن غير أن تزول النعمة عنه فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه بل هذا قريب من المنافسة التى ذكرها الله فى كتابه :

« وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ »

وفى الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار . ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار » صحيح البخارى .

الأسباب التى يندفع بها شر الحسد

١ — التعوذ بالله من شره والتحصن به . وكان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يستعيذ بالله من الحسد فلما نزلت المعوذتان اكتفى بهما وكذلك يفرغ قلبه من الإشتغال به والفكر فيه وأن يمحوه من قلبه كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ، وهذا من أقوى الأسباب على دفع شره. وقد ثبت بالتجارب أن أكثر الذين يصابون بالحسد إنما هو من التفكر فيه وخوفهم منه وذلك لا يكون فى الغالب إلا من خراب القلب من ذكر الله تعالى وضعف الإيمان فإن القلب متى كان عامراً بالإيمان ، واللسان رطبا بذكر الله تعالى لا يكون لهذه الخواطر عليه سبيل (ومن يؤمن بالله يهدقلبه) وقد قال الله تعالى فى شيطان الجن فى سورة الحجر :

« إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »

٢ — الصبر على أذى الحاسد فلا يتعرض له بأذى ويقابل إساءته بالإحسان إليه ، وكلما ازداد أذى له ازداد إليه إحسانا وعليه شفقة ، قال تعالى .

« وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »(١)

وفى الحديث الشريف أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال الذى

---

(١) سورة فصلت ٣٤ ، ٣٥

يحسن إلى أقاربه وهم يسيئون إليه « لا يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك » رياض الصالحين للنووى .

٣ — التوكل على الله تعالى فى دفع الحسد يدفع الحسد فإن من توكل على الله تعالى حق توكله كفاه ونصره قال تعالى :

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »

٤ — أن يتقى الله تعالى فان تقوى الله تعالى تدفع كل شر قال تعالى :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً »

وفى حديث ابن عباس « احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك » .

٥ — الصدقة والإحسان إلى من يستحقها ولاسيما للحاسد إذا كان محتاجا إليها فان الصدقة تدفع البلاء ، وترد العين ، وتجلب حب الله والناس وتحصن المال . وفى الحديث الشريف : « حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة » الجامع الصغير . وقال تعالى :

« لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ »

٦ — ولا يفوتنا أن نذكر أنه لا بأس بالرق للمرضى مالم يكن فيها شرك أو كانت بلغة أخرى غير اللغة العربية وما عداها فهى جائزة .

فقد صح عن عائشة أنها قالت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن أسترق من العين».

وعن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجارية فى بيتها «أرى فى وجهها سفعة يعنى صفرة. فقال إنها نظرة استرقوا لها» متفق عليهما.

أمس من الجن أم مرض عصبي

الجن عالم من عوالم الله تعالى كالإنس مأمورون منهيون لهم ثواب وعقاب إلا أنهم مستورون عنا، لأنه ليس لنا حاسة سادسة تدركهم ولذلك سموا جنا لاجتنانهم واستتارهم عن العيون ومنه سمي الجنين جنينا .

دعاهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الله فاستمعوا منه القرآن قال تعالى :

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »

ثم أمر الله تعالى رسوله أن يخبر الناس بذلك فقال تعالى :

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا »

إلى نهاية السورة .

وقد تضمنت هذه السورة حكماً عالية وطائفة عظيمة من العلم منها أن الرسول أرسل إليهم وأن أهم مايعنى به الهداة الراشدون والدعاة المصلحون إنما هو توحيد الله أولا . ومنها أن الاستعانة بالجن والاستعاذة بهم من الشرك ، وأن منهم الصالح والطالح والكافر والمؤمن وأنهم يسترقون السمع من الملائكة المدبرين للكون فيقرونها فى آذان أوليائهم فى الأرض فيضمون إليها من الكذب ما يشاءون وأن هذا الاستراق قد انقطع فى عهد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما بعده فلا يحكم بقطعه بل يجوز أن يكون موجوداً .

وأنبه القارىء الكريم إلى أن كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان ففى سورة الأنعام :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً »

وقد وصف الله تعالى شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم بأنها كالحيات القبيحة المنظر فقال تعالى فى سورة الصافات :

« طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ »

أعنى الحيات المذكورة .

وفى صحيح مسلم عن جابر رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « غطوا الإناء وأوكئوا السقاء وأغلقوا الأبواب وأطفئوا السراج فإن الشيطان أعنى المتمرد من الحشرات ، لايحل سقاء ولا يفتح

بابا ولا يكشف إناء فان لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عودا ويذكر اسم الله فليفعل فان الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم » . الفويسقة : الفأرة .

ففي هذه الأدلة الثلاثة دليل على أن الشياطين ليست من الجن فحسب بل تكون من الإنس والحشرات والدواب والطيور وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى حمامة تتبع حمامة فقال « شيطان يتبع شيطانة » شفاء العليل لابن القيم . ومن تتبع السنة يجد فيها استشهادات كثيرة ، وقد نبهنا في بحث السحر أن أهل البــدع الذين لهم عبادات غير شرعية يتقربون إلى شياطين الجن بأنواع القرب من عباداتهم والذبح إليهم والكفر بالله وكتابة القرآن بالنجاسة والدم وقلب حروف القرآن وبالعزائم الشركية ، والتمويه على الناس يدخلون في هذه العزائم بعض آيات قرآنية ليخدعوا بعض الناس بشركهم فإذا ماتم لهم ذلك يستخدمونهم في الرذائل التي تهواها نفوسهم والتضليل على غيرهم .

لذلك كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم عابديها كما يحصل الآن ممن ينادي الغائب سواء كان من أولياء الرحمن أو من أولياء الشيطان فتراه يجيبه باسمه ، قال تعالى :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ »

صرع الجن للإنس

إن الله تعالى اجعل للإنس سلطاناً على بعضهم فكذلك جعل للجن سلطانا على الإنس أعنى القوى من هؤلاء وهؤلاء يصرع الضعيف منهم .

ويرجع ذلك إلى أسباب منها انتقام لأنفسهم إذا أوذوا من الإنس كالبول على بعضهم وصب الماء الحار كذلك أوقتل بعضهم ولو من غير قصد لأن الجن أجهل وأظلم ، وتارة يكون عن سفه وجهل من غير سبب .

وتارة يكون عن عشق وحب المصروع للاتصال به ، وعلى كل فأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على الإنس إنما تكون من قلة دينهم وخراب قلوبهم وألسنتهم من الذكر والتعاويذ والتحصنات النبوية المنصوصة في كتب السنة والإيمان بالله .

الأدلة على أن الجن يصرع الإنس أولا ماتشاهده بأنفسنا ونلسه بأيدينا فنرى الشخص المصروع منسلخاً من شخصيته فيتغير صوته ويضرب بأشد الضربات بل ربما يكوى بالنار فلايحس ولوكان هذا عليه لمات .

ثانيا : ماورد في القرآن الكريم في سورة البقرة :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ »

ثالثاً : مارواه الإمام أحمد في مسنده وأبوداد في سننه من حديث مطر بن

عبد الرحمن الأعنق قال حدثتني أم أبان بنت الوازع بن زارع بن عامر العبدى عن أبيها أن جدها الزارع انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق معه بابن له مجنون أو ابن أخت قال جدى : فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت إن معى ابنا لى أو ابن أخت لى مجنونا أتيتك به تدعو الله له ؟ قال ائتنى به قال فانطلقت به إليه وهو فى الركاب فأطلقت عنه وألقيت عليه ثياب السفر وألبسته ثوبين حسنين وأخذت بيده حتى انتهيت به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال أدنه حتى أجعل ظهره مما يلينى قال بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض إبطيه ويقول أخرج عدو الله أخرج عدو الله ، فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه فدعا له بماء فمسح وجهه ، ودعا له فلم يكن فى الوفد أحد بعد دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل عليه .

دفع الجن

إن دفاع الإنسان عن نفسه غريزة طبعية حتى فى الحيوان الأعجم لذلك شرع الله الدفاع عن النفس والعرض والمال قال تعالى :

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ »

فيجوز للإنسان أن يدفع الجن بالطرق المشروعة بحيث لا يكون فيها شرك بالخالق ولا ظلم للمخلوق وذلك يكون بتلاوة آيات الذكر الحكيم ولا سيما آيات التعاويذ والمعوذتين وآية الكرسى .

وأما دفعهم بغير ذلك من حفلات الزار الخاطئة الكاذبة فخطأ وتضليل وسفه وتبذير . نعم إذا تصور فى صورة الحشرات الضارة مثلا واعتدى علينا ، لنا أن نقابل العدوان بمثله فقد ورد فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن بالمدينة نفراً من الجن قد أسلموا فمن رأى شيئا من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثاً فإن بدا له بعد فليقتله فانه شيطان » ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى الدرداء قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعناه يقول أعوذ بالله منك .

ثم قال ألعنك بلعنة الله ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا يارسول الله قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار

ليجعله فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت آخذه ووالله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » .

ولا يلتبس على القارىء الكريم صرع الجن بالمرض العصبى ، فالأول قد وقفنا على أعراضه ، أما الثانى فله أخصائيون درسوه ونبغوا فيه فارجع إليهم فلكل داء دواء إلا الهرم عرفه من عرفه وجهله من جهله .

خطاب من مكتب الشئون الدينية

مقدمة :

لقد كان خطاب السيد رئيس الجمهورية إلى الأمة تعبيرا صادقا عن إرادة الأمة وترجمة سليمة لما يجيش فى صدور أبنائها وما تنبض به قلوبهم من إصرار على هدف التحرير والنصر والبذل الكامل للجهد والنفس بما يحقق هذا الهدف ويقرب يومه المنشود . وفى نفس الوقت كان الخطاب إيذانا ببدء مرحلة جديدة من مراحل معركتنا مع العدو وقد تبدو النظرة العابرة عودة إلى مرحلة سابقة ولكن الحقيقة أن طبيعة المرحلة الجديدة تختلف عن ذى قبل حيث أننا أصبحنا بحمد الله أقوى عزما وأشد صلابة وإصرارا وأكثر استعدادا مع ما أمكننا تحقيقه فى الأيام القريبة الماضية والتى تحدث عنها السيد الرئيس فى خطابه فقال : ولكن من الحق والواجب أن أقول : أن جهودنا خلال الشهر الماضى لم يذهب عبثا وإنما وصلنا إلى نتائج لها قيمتها الكبرى وأبرز هذه النتائج هى عزلة إسرائيل الكاملة عن المجتمع الدولى عن الرأى العام العالمى وهذا شىء ليس بالهين ولا هو بالقليل .

ولما كانت الأمم المجيدة تعيش حاضرها بزاد من ماضيها وقبس من ضيائه ينير لها الطريق وتتمثل ماضيها بصورة توائم عصرها وتتابع الأحداث التى تمر بها ، فإن من واجبنا أن نرى فى تاريخ أمتنا وفى تعاليم دينها ما يثرى نضالها ويسدد خطوها ويبارك جهدها ويدعم إيمانها بالله وبنفسها حتى يشرق فجر النصر عن غد حميد .

وعلى هدى الإسلام وتاريخ الدعوة المحمدية يمكننا أن نلمس الحقائق الآتية :

١ — طبيعة المعركة .

إن الله عز وجل قد اختار أمتنا وجعلها خير أمة تحمل أقدس رسالة قال تعالى :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »

ورسالة أمتنا التى أكرمها الله بحملها هى رسالة العدل والحق والخير والمحبة والشرف والفضيلة تعمل لها وبها وتنشر على الناس خيرها وبرها فى غير ما تعصب ولا تحزب ولا استعلاء ولا تكبر .

وقد اقتضت سنة الله فى الحياة أن يواجه أصحاب الرسالات وحملة المبادىء بعداوة أرباب الطمع وأتباع الهوى وأهل الباطل وقد تجلى ذلك فى جميع رسالات الأنبياء وسجل القرآن ذلك فقال :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا »

وحيث كانت الحياة لابد فيها من تصارع الخير والشر وتدافع الحق والباطل كان لابد لأصحاب الحق وحملة مبادىء العدل أن يعدوا أنفسهم لطول المعاناة وهول المكابدة ولقبول التضحيات بالاعتصام بالإيمان الصادق والتذرع بالصبر الكريم وباليقظة بالحذر والحيطة والاستعداد بالعمل والبذل والرضا فى الشدة والرخاء .

قال تعالى :

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »

وقال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

كذلك لابد لنا فى مواجهتنا لعدونا من الأناة والروية وأن نقدر لأقدامنا قبل الخطو موضعها وأن نحسب النتائج وفق تحركاتنا وخططنا ومن ثم وجب علينا أن لا نتعجل النتائج قبل اكتمال الأسباب ، وأن لا يدفعنا رد الفعل إلى الخطأ فى الحساب وأن لا يجرفنا تيار العاطفة عن السبيل القويم ، لقول الله تعالى :

« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ »

وقال تعالى :

« فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ »

وإدراك هذه المعانى والإيمان بها يرخص التضحيات فى سبيل الهدف الأسمى مهما غلت ويهون الصعاب وإن تراكمت ، ويجدد العزم ويقوى النفس

مع امتداد الزمن ، وأمام تلك المعانى علينا أن ننظر موقنين ماجاء بخطاب السيد رئيس الجمهورية :

ستكون المعركة شرسة ولكنها أشرف معارك الحياة وستكون المعركة طويلة ومريرة ولكنها قدر الأحرار .

٢ — الحرب خدعة .

إذا كان هدف المعركة هو تحقيق النصر على العدو والتمكين للحق وللعدل الذى نؤمن به فإن هذا لا يعنى الجمود على طريق واحد هو طريق القتال وحده، إذ أن قهر العدو دون غايته وصرفه عن مطلبه وصده عن عدوانه كلما أمكن تحقيقه بوسيلة أقرب وبخسائر أقل أو بدونها كان ذلك افضل وهو إلى الحكمة أقرب ، ولذلك فإن حرية المناورة باتباع بعض الأساليب التى يظن أنها توصل إلى الهدف أمر مشروع بل إنه طريق مطلوب وقد أجمل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فى قوله : (الحرب خدعة) .

وعمليا فإن النبى صلى الله عليه وسلم ما أقدم بأصحابه على قتال عدوهم إلا وهو يرى أن لا سبيل إلا القتال أما حين يرى غيره يمكن أن يحقق الهدف فكان لا يترك الفرصة تمر دون أن يغتنمها فلقد قاتل أعداءه فى بدر وفى أحد وفى غيرها ، وحين رأى أن المصلحة الكبرى فى عدم الإسراع إلى القتال يوم الحديبية قبل ذلك وكان الخير فيما فعل وفى ذلك يقول أبو بكر :

« ما كان فتح أعظم فى الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد » .

غير أن تأجيل القتال لايعنى الغفلة عنه وعدم إدخاله فى الحساب وإنما يعنى إكمال الاستعداد له وتمام التجهيز لأجله وحشد ما فى الاستطاعة حشده من كل وسائل القوة وأنواع الجهود ، فإذا نجحت وسيلة أو أخرى فى قهر إرادة العدو وفى استخلاص الحق منه فقد تحقق الهدف وإذا لم يكن من القتال بد أقدمت الأمة عليه وهى أوفر عدة وأعظم قوة ، ودخلت الميدان بثقة فى الله لاتعرف الحدود وثقة بالنفس يشرق معها الأمل قال تعالى :

« فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا »

وفى ضوء ذلك ندرك ماجاء بخطاب السيد رئيس الجمهورية فى حديثه عن قبوله الامتناع عن إطلاق النار منذ ٤ فبراير الماضى ولم يكن ذلك من وجهة نظرنا حلا للأزمة ولكنه كان تحريكا عمليا لبدء الحل واختبارا للنوايا .

٣ — موقفنا وموقف عدونا .

حين يقدر للكلمات أن تختفى خلف ستار من دخان الطلقات وللمدافع أن تبدأ مع العدو حوارا يحطم غروره ويفل عزمه ويقدر لدماء الضحايا أن تكون مدادا تخط منه صفحات المجد والخلود وللمناضلين الشرفاء والشجعان الأوفياء ، فإن مما يزيد الثقة بالنفس ويقوى الأمل فى النصر أن ينظر أبناء الأمة إلى أنفسهم من قمة التفوق المعنوى الذى يزودهم به إيمانهم بالله وبالحق الذى يعملون فى سبيله وبعراقة المجد الذى ينتسبون إليه .

وإلى هذه المعانى يشير القرآن فيقول :

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوت فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » .

ويقول تعالى :

« وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً » .

ويقول تعالى :

« وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ » .

ومن هدى هذه المعانى انبثقت كلمة السيد رئيس الجمهورية فى خطابه حين قال :

« ونحمد الله لأن يدنا هى الأعلى فنحن يدفعنا إلى الكفاح الثقة والأمل وقداسة كل حبة تراب فى أرضنا ، وعدونا يدفعه إلى جنون العدوان الخوف من الهزيمة والخوف من اليأس » .

٤ — واجباتنا .

منذ خطا العدو على أرضنا تأكدت فريضة الجهاد علينا على كل فرد فينا الرجل والمرأة الشاب والفتاة الجندى والعامل والفلاح والمدرس والكاتب والخطيب ، الموظف والتاجر ، وليس الجهاد مجرد القتال وإنما الجهاد بذل

غاية الجهود الممكنة وحشد كل الطاقات المستطاعة كل فى موقعه وبحسب خبرته بما يكفل للمقاتلين وفرة عدتهم وتأمين ظهورهم ويمكنهم من مغالبة العدو وقهره .

ولهذا نرى الله عز وجل لم يعف الضعفاء ولا المرضى من واجب الجهاد وجعل واجبهم مايستطيعون من رد شائعة أو النطق بكلمة طيبة تغرس الثقة وتقوى الهمة أو السعى فى حاجات المقاتلين وأسرهم وقد أجمل القرآن ذلك فيما أسماه بالنصيحة لله ورسوله حيث قال :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ »

ومعنى هذا أن من قدر على بذل المال جهادا فى سبيل الله فهذا فرضه وواجبه ومن لا يمكنه إلا بذل الجهد فى موقع عمله فهذا واجبه ومن لا يمكنه إلا القيام بواجب التوجيه والتعبئة فهذا واجبه وإرشادا إلى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم « جاهدوا الأعداء بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم » .

وإذا كان هذا واجبنا منذ اللحظة التى دنست أقدام العدو فيها أرضنا فعند تحرك المسيرة الظافرة لدحر عدوانه وتطهير الأرض من آثاره فإن الواجب يتأكد وكل معنى إنسانى يهيب بأبناء الأمة ويردد على أسماعهم ماقاله السيد رئيس الجمهورية :

إننا مطالبون بأن نقاوم وبأن نقاتل نحن مطالبون بأن نعطى الحياة لكى

تكون لنا حياة ونحن مطالبون بأن نضحى بالروح لكى تبقى وحدة ترابنا الوطنى مصونة على طول الزمان .

وقوله :

إننا نعرف ومن الحق أن نعرف معنى قرارنا بالوقوف لأداء الواجب وأن نعرف أيضا تكاليف هذا القرار ، إن تكاليفه تحسب بالعرق والدم وليس هناك غير ذلك حساب للتكاليف » .

حول التفسير العصرى

فى كل عصر وجيل وشعب وقبيل تشذ طائفة فتخالف ما عليه قومها من دين ودنيا لا عن علم عرفوه ، ولا دليل أقاموه سوى ابتغاء الشهرة الكاذبة وحب الظهور ، وهذا ما كان يخشاه نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم على أمته إذ يقول : « ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » رواه الإمام أحمد وغيره عن كعب بن مالك ففى الأيام الأخيرة طلعت علينا الصحف اليومية برأى ارتآه بعض الكتاب بأنه يجب أن يفسر القرآن تفسيراً عصريا يجارى العلم الحديث ، ويكشف لنا من أسرار الذرة وغيرها مما يحررنا من فهم الأولين « الصحابة والتابعين » لأن القرآن أنزل عليهم ولا عهد لهم بشىء من هذه العلوم لأنهم أميون ، فهو يرفض ما فهمه الصحابة من معانى القرآن الكريم ، ولما كان هذا الرأى لم يكن عن علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإنما كان من نسج الخيال خشينا سوء أثره فى المجتمع فعالجنا تطهيره بهذا المقال .

وقد سبقنى فى ذلك من يغارون على الدين فجزاهم الله خيراً ، والحق دائماً منصور إما بالحجة والبرهان وإما بالقوة ، والباطل مهزوم نعم إن للباطل فلسفة كما أن للحق فلسفة ولولا ذلك ما التبس حق بباطل ، ولا خفى الباطل على أحد ، ولا عمى عن الحق أحد ، ولكن الله تعالى أقام الوجود على سنن الحق فلا يمازجه باطل ، ولا يخالطه شك ، فمن كان على الحق انتهى أمره إلى ظفر ونجاح ، ومن كان على غير ذلك عاداه الوجود ولفظه ، وسارت عليه سننه ففضحته وانتهى أمره إلى فشل وخذلان كما قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ »(١)

وفى آية أخرى :

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »(٢)

الحق أن صاحب هذا الرأى العقيم نظر إلى شىء وفاته أشياء ، نظر إلى أن الصحابة أميون لايقرءون ولا يكتبون . وفاته أن الأمية فيهم شرف، إذ هى التى حملتهم على أن يعولوا فى فهم الدين على حفائظهم لاعلى كتبهم - ولهذا كانت الأمية فى الرسول صلى الله عليه وسلم آية الله الكبرى وحجة على قومه حتى أتى بأخبار الأولين وهذا التشريع الحكيم وقد تربى بين الصخور والجبال ، لاسفينة بحر - ولا جوابة بر . قال تعالى :

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ »(٣)

إذا لايشك أحد فى أن العلم المحمدى لم يكن مقتبساً من أحد ولامما تعارفه البشر وإنما كان من مشكاة الوحى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد . هذا وإن من الجحود الآثم أن ننكر فضل الصحابة على الدين ، أليسوا هم الذين حملوا أمانته فنقلوه إلينا

---

(١) سورة النحل ١١٦

(٢) سورة الأنبياء ١٨

(٣) سورة العنكبوت ٤٨ ، ٤٩

بعد الجهد الجهيد ، أليسوا هم الذين مكنوا لدين الله فى الأرض رغم أنف المعارضين .

هذا وإن من يمعن نظره فى هـذا الرأى يتبين له أنه ليس وراءه سوى التشكيك والتضليل فى قوم انتفعت الدنيا بمواهبهم ، وأضاءت الكون عبقرياتهم ، ومن جاء بعدهم حذوا حذوهم فانقلبوا فى رحاب الأرض ينشرون الدين ويتلمسون العلم من كل مكان وتلقيه من أى شفة ولسان ، لايبالون عمن تكون عقيدته إذا نفعتهم حكمته شعارهم « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ولست مبالغاً إذا قلت : إن النهضة العلمية التى قامت فى الغرب إنما وضع أساسها العرب بما اقتبسوه من الشرق ، فعلم الكيمياء واختراع الآلات المفيدة ، والطب والفلسفة والحساب والموسيقى ، وإنشاء المراصد إنما كان من العرب ، وأول مرصد هو الذى بناه المأمون فى بغداد ، وأنشأ الحاكم بأمر الله مرصداً فاخراً فى جبل المقطم ، ومن غير هؤلاء مراصد كثيرة فى أصبهان ومصر والأندلس ، وأول مرصد فلكى أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى أشبيلية من بلاد أسبانيا . وممن نبغ فى الفلسفة والهيئة والحساب واشتغل بالترجمة ، فترجم كثيرا من كتب الفلسفة أبو يوسف الكندى ومنهم ابن سينا الطبيب المشهور والفارابى وغيرهم مما شهدت لهم علماء أوربا واحتفظوا بكتبهم .

وقال دارير أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الإمريكان: إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى واليهود على مجرد الاحترام بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ، ورقوهم إلى أسمى المناصب فى الدولة .

وقال باكون إمام الفلسفة الحديثة : القليل من العلم يبعد من الله ، والكثير منه يقرب إلى الله . وقال هيكسلي الحكيم الكبير : « الدين والعلم توأمان فصلهما يؤدى إلى موتهما ، فإن العلم ينمو متى كان دينيا والدين يثبت متى كان علميا » وقال هربرت شبنسر : العلم عدو الأوهام المتداولة بين الناس باسم الدين ولكنه ليس بعدو للدين الحق الذى كثيراً ماتحاول هذه الأوهام ستره عن البصائر .

ونريد بالعلم هنا : العلم المطلق : علم الدنيا والدين ، وهو معرفة حقائق الوجود جميعاً ونوجه سؤالا إلى علماء عصرنا الحاضر فنقول لهم : علام تفخرون ؟ تفخرون بهذه العلوم التى استخدمت فى صنع الآلات الحربية والمذابح البشرية والمجازر العمومية وآلات التخريب والتدمير حتى أصبحت الحياة الإنسانية المعذبة التى سئمت الحياة جحيماً ولقد قرر علماء الاقتصاد والاجتماع أن ماينفق فى الحروب الآن يكفى سكان الكرة الأرضية غذاء وكساء ومتاعا .

نعم كنا نتمنى وليس لكل امرىء مايتمنى : أن هذه العلوم التى يفخر بها أبناء هذا العصر سترفع المصائب وتخفف وطأة الغلاء الذى ترك فى كل نفس حسرة ، وفى كل قلب لوعة ولكن والأسف كانت هى نفسها عين المصائب بل ردت الإنسانية إلى وحشية ، وجعلت الحياة جحيماً تفور بأهلها كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق ، ألا يخبرنى مخبر : ماذنب الطفل الصغير حتى يعتدى عليه فى مهده ، وأى ذنب اقترفه الهرم الكبير فتحاربه فى عقر بيته ، وإنها لإحدى الكبر أن

تحارب المرأة فى خدرها مما لم نسمع به فى عصر من العصور ، إن هذه الحروب لوصمة عار فى جبين هذا العصر ، وإن من الحماقة والسفه أن يسموه عصر النور ، ولو أنصفوا لسموه عصر الظلم والظلمات وصدق الله :

« فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »(١)

نعم إنهم استحبوا العمى على الهدى وآثروا الغى على الرشد ، والباطل على الحق ، ولو كانت هذه الحروب الفاجرة لاسترداد حق أو لحماية الدين من الفتنة ، أو للدفاع عن الوطن والمحافظة على الحرمات لخفت المصائب ، ولكنها حروب جشع واستعمار .

وما أحوجنا فى هذا الوقت العصيب والزمن المنكوب الذى يموج بالاضطرابات ، وعم الذعر والفزع كل مكان حتى بلغت القلوب الحناجر إلى هداية روحية وصيحة سماوية ترد هذه النفوس الضالة عن غوايتها فلا تتعدى حدودها : ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه أين هذه الحروب من حروب الإسلام ؟ التى كانت حروب تأديب واستصلاح لاحروب جشع واستعمار ، فقد كان حماة الدعوة الإسلامية لايشنون حربا إلا إذا بدأ العدو كما جاء فى القرآن الكريم :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ »(٢)

---

(١) سورة الحج ٤٦
(٢) سورة الحج ٣٩

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ »(١)

وكان التراحم وحقن الدماء والرغبة فى السلام يسيطر على أعمالهم وسياسة حكامهم ، فلقد حدث أن بعض الروم نقض عهداً فى زمن معاوية وكان لدى معاوية رهائن من الروم ، فامتنع المسلمون جميعاً عن قتلهم ، وخلوا سبيلهم وقال معاوية « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » وهاهو ذا القانون الدولى الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحروب وأذاعه أبو بكر الصديق : « لاتخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه . ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا إلا للأكل ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له » .

ومن وصايا على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى أحد أمرائه :

إياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس شىء أدعى لنقمة ولاأحرى بزوال نعمة من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالى مبتدىء بالحكم بين عباده فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله ولا عذر لك عند الله ولا عندى .

هذه الحروب الإسلامية فأين هى من حروب اليوم التى هى حروب

---

(٢) سورة الأنفال ٦١، ٦٢

بغى واستئصال تجليها الأثرة ويسوق إليها الطمع والجشع ، ويذكى نارها ما فى النفوس من حب الغلبة ، والجنوح إلى الظلم ، ولا يمكن أن يستريح العالم من ويلاتها إلا إذا عقدت أواصر المودة بين النوع الإنسانى وانتصف كل واحد لأخيه من نفسه ورحم الله الأديب إذ يقول :

لو أنصف الناس لاستراح القاضى
وبات كل واحد منهم عن أخيه راضى

ولنرجع إلى طالب التفسير العصرى فنقول له : إن القرآن الكريم اشتمل على كثير من الآيات الكونية لنتدبرها ونستدل بها على عظمة الصانع جل وعز ولننتفع بما خلق الله فى السموات والأرض وما أودع فى الكون من قوى وأسرار وجعل سبحانه التفكير فى خلق السموات والأرض من أفضل العبادات قال تعالى :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »(١)

ولقد نعى على الغافلين الضالين الذين عطلوا موهبة العقل فقال سبحانه :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

---

(١) سورة آل عمران ١٩٠ ، ١٩١

آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ »(١)

فذكر القرآن للآيات الكونية بمجل ولم يقصد به التفصيل بل ترك ذلك للعقل الذى هو الهداية الثانية بعد القرآن الكريم الذى هو أساس الدين لأن العقل يهتدى إلى مافيها من تفصيل ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « أنتم أعلم بأمر دنياكم »(٢) فلو أن القرآن فصلها تفصيلا لتعطلت موهبة العقل ، وكان خلقه عبثاً وحاش لله أن يخلق شيئا عبثا .

هذا ولما كان العقل قاصرا عن تشريع يحفظ لكل ذى حق حقه وينظم الحياة الدنيا أتى به القرآن لأن التشريع علاج للنفوس ودواء للقلوب ولا يعلم أمراضها وما يصلح لها إلا خالقها لهذا أفلست جميع التشاريع الوضعية فى الأمم المتحدة فلا أمن فيها ولا استقرار بل فوضى مروعة ، وفساد فى الأخلاق ، وأما الأمم التى استمسكت بالتشريع السماوى فنجدها فى بحبوحة من الأمن ورغد من العيش يسير الأعزل من السلاح فى البيداء فى جوف الليل وكذلك المرأة تحمل متاعها وطفلها لايخافان إلا الذئب .

وقصارى هذا القول أن علماء هذا العصر ومن يجىء بعدهم لن يصلوا إلى ماوصل إليه الصحابة من فهمهم القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا لأن علمهم خرج من النبع الأول ،ولو عقدنا نسبة بينهم ، وبين علماء العصر الجديد لوجدناها نقطة من بحر ، أو خردلة فى مهمه قفر فكيف يعيبون علم الصحابة .

---

(١) سورة البقرة ١٧٠

(٢) رواه مسلم عن أنس وعائشة ، رضى الله عنهما .

وإن من العجب العجاب أن يتبجح الكاتب ويقول إن اتباعهم جمود ومخالفتهم تجديد ونقول له إن كان اتباع الصحابة جمودا فأنعم به من جمود، وإن كانت مخالفتهم تجديدا فما أبغضه من تجديد!! والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وأختتم هذا المقال بما وصفهم القرآن الكريم :

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»(1)

معانى المفردات

سيماهم : علامتهم ، مثلهم : صفتهم ، شطأه : فراخه المتفرعة .

فآزره : فقوى ذلك الشطأ الزرع ، فاستغلظ : صار غليظاً .

فاستوى على سوقه : فاستقام على قضبانه .

---

(1) سورة الفتح ٢٩

الخاتمـــة

تم بحمد الله وحسن توفيقه هذا المؤلف « الضوء المنير » فى أول المحرم سنة ١٣٧٠ هـ .

وأضرع إلى الله تعالى أن ينفع به قارئيه ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

هذا وقد توخيت فيه ما يجرى على ألسنة الكثيرين من شبه يقف فيها العقل حيران بين العلم الحديث والدين ، وما يلقيه الشيطان فى أمنية الباحثين .

ولله الحمد والمنة أرانى وفقت لإزاحة الشبه وإزالة ما يطوف بالذهن من خواطر سفلية بقوة الله . والله ذو القوة المتين .

وأنبه قارىء الكتاب أن يقرأه على مكث حتى يحيط بما فيه من عظات نافعة وحكم بالغة وألا يتعجل بتوجيه اللائمة على المؤلف إذا ما وجد حديثا فيه ضعف ، فإنه لا يذكره إلا إذا كان مندرجا تحت أصل عام ، أو يعززه حديث آخر فى معناه ، ولم يكن ثمة ما يعارضهما ، وألا يكون الضعف شديدا كأن رواه من فحش غلطه أو اشتهر بالكذب ، وأن يكون فى فضائل الأعمال لا فى العقائد ولا فى إثبات حكم من الأحكام .

وقد أثر عن الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة : إذا ما روينا فى الحلال والحرام شددنا ، وإذا روينا فى الفضائل ونحوها تساهلنا .

وفى الأصل والذى ذهب إليه كثير من أهل الترخيص يكون فى الرقائق

ومالا حكم فيه من أخبار المغازى ، وما يجرى مجرى ذلك ، وأنه يصل منها مالا يصل فى الحلال والحرام لعدم تعلق الأحكام بها كما أنى تركت بعض أخطاء يسيرة لفطنة القارىء يتداركها بالتأمل .

هذا وقد طاف بذهنى الآن بعض أدعية وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم فرأيت من الخير أن أجعلها خاتمة الكتاب ونحمد الله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ونسأله الرشد والصواب ونصلى ونسلم على خاتم النبيين الذى بعث رحمة للعالمين وعلى من اهتدوا بهديه واتبعوا ما أنزل عليه من ربه .

الدعاء

لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى صدرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا ، اللهم اشرح صدرى ويسر لى أمرى ، وأعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر ، وفتنة القبر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر مايلج فى الليل وشر مايلج فى النهار وشر ماتهب به الريح وشر بوائق الدهر - اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ، لايخفى عليك شيء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، والرجل المشفق المقر المعترف بذنوبى ، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه وذل جسده ، ورغم أنفه لك ، اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رؤفاً رحيماً ياخير المسئولين وياخير المعطين .

معانى المفردات : الوسواس : الصوت الخفى ، الشتات : التفرقة يلج : يدخل . البوائق : المهلكات .

فهرس

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

من الكتب التي يجب إقتناؤها

مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية

المنتقى لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية مختصر للذهبي

طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية

الوحي المحمدي للسيد رشيد رضا

فضل علم السلف على الخلف لابن رجب البغدادي

نداء للجنس اللطيف للسيد رشيد رضا

الاعتصام لإبراهيم بن موسى الشاطبي

إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان لابن قيم الجوزية

قصص الأنبياء المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار

هداية المرشدين والإبداع للمرحوم الشيخ على محفوظ

بدع المساجد لجمال الدين القاسمي

الوعظ الديني للمرحوم الشيخ عبد العزيز الخولي

عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ومفتاح دار السعادة وزاد المعاد وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية

تفسير سورة النور لابن تيمية .

المنتقى من منهاج الاعتدال وهو منهاج السنة ومنهاج الاعتدال

طريق الهجرتين وباب السعادتين

وأما في التوحيد فهي : شرح كتاب التوحيد للإمام أحمد بن حنبل

رسائل لابن تيمية والتوسل والوسيلة وأولياء الرحمن وأولياء الشيطان له أيضا

رسالة الشيخ محمد عبده في التوحيد

فتح المجيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب

الضياء الشارق في شبهات المارق للشيخ سليمان بن سمحان

هذا الكتاب من أنفس الكتب رد على كتاب يسمى الفجر الصادق لرجل عراق يدعى جميل افندى صدقى الزهاوى
الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية
أما التى فى الفقه فهى : الروضة الندية لصديق بن حسن
شرح الدرر البهية سبل السلام للصنعانى شرح بلوغ المرام
المغنى لابن قدامة
المجموع للنووى
أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية
الفتاوى لابن تيمية
المحلى لابن حزم
القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد للشوكانى
الصلاة ومايلزم فيها لأحمد بن حنبل ويليها رسالة لابن القيم فى الصلاة
وأما فى التصوف فهى : منازل السائرين لأبى إسماعيل الهروى على هامش مدارج السالكين لابن قيم الجوزية

كتب المؤلف المطبوعة

١ ــ العدل الإلهي والقدر

٢ ــ هدى الحائر

٣ ــ إرشاد الأمة

٤ ــ خلاصة كتاب « العلم يدعو للإيمان لعالم أمريكى »

٥ ــ البيان فى تصحيح الإيمان « طبع مرتين »

٦ ــ درة الواعظين

٧ ــ الدين والعلم الحديث

٨ ــ ذخيرة الواعظ

٩ ــ مشكاة الواعظ

١٠ ــ الضوء المنير فى الوعظ والتذكير جزآن